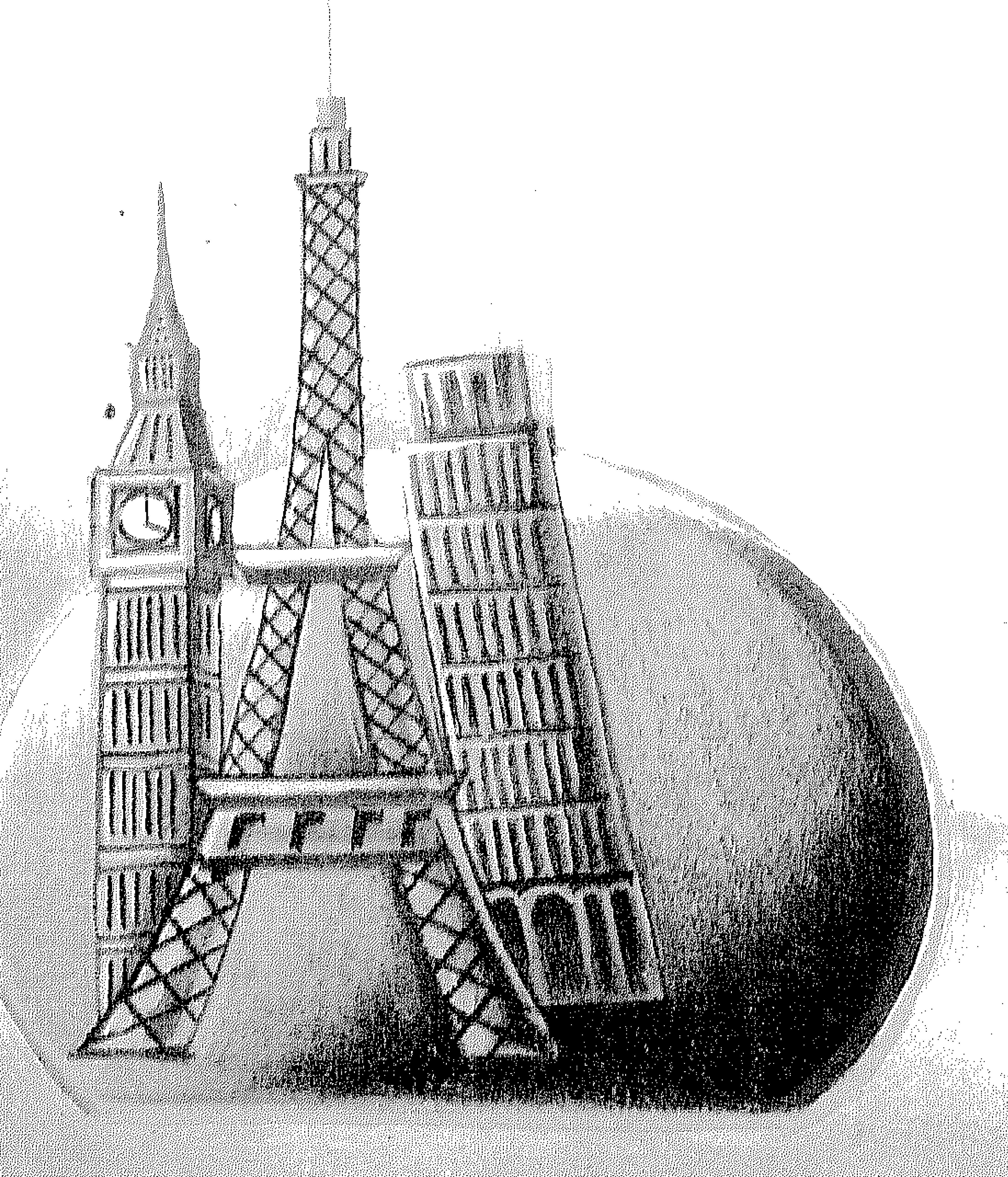
الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية

دراسة مقارنة

دكتور توفيق الطويل
أستاذ الفلسفة بآداب القاهرة



مكتبة التراث الإسلامي
٨ شارع الجمهورية عابدين ت ٣٩١١٣٩٧

إهـــــــداء٢٠٠٧

اسرة المرحوم الدكتور / السيد عبد الحليم الزيات

جمهورية مصر العربية

الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية

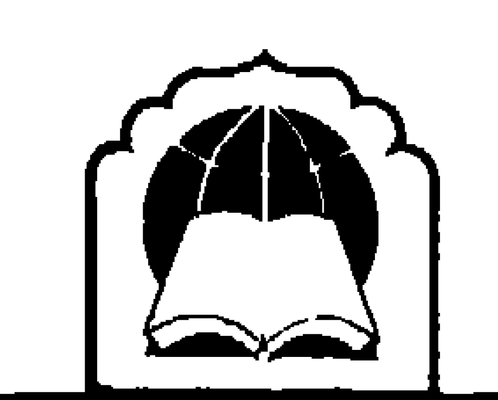
دراسة مقارنة

دكتور توفيق الطويل

أستاذ الفلسفة بآداب القاهرة



مكتبة التراث الإسلامي



٨ شارع الجمهورية عابدين القاهرة   ت : ٣٩١١٣٩٧   فاكس : ٣٩١٣٤٠٦

إهـــداء الكتـــاب

إلى وزوجـــتى وابنتـى مـنى

أثناء إعداد هذه الفصول ، أصابتني وعكة صحية إلى أمد ليس بالقصير وكان ابنى د . حسام لايزال فى برمنجهام بإنجلترا فاحتملت عناءها البالغ زوجتى بمعونة من ابنتى إلى آخر الوعكة .

ولا أجد الأن تعبيراً أعرب به عن تقديرى البالغ لهن . جزاهم الله خيرا لقاء ما بذلوه من جهود مضنية ، وقدموا من تضحيات جسيمة ، واحتملن من عناء تجاوز كل وصف....

شكر المؤلف

إلى كل من قدم لى عوناً : كتاباً أو نصيحة أو اقتراحاً .. وأختص بالذكر زملائى وأصدقائى بآداب القاهرة وفى مقدمتهم الأستاذ الدكتور عاطف العراق والدكتورة منى أحمد أبو زيداللذين أسهما فى الاشراف على هذه الطبعة من الكتاب ، جزاهم الله جميعاً كل خير ..

دكتور توفيق الطويل

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى الكتاب

ينصب حديثنا عن الحضارتين الإسلامية والاوربية على الفترة التى أزدهرت فيها كلتاهما ، تخطينا عصر الجهالة والتخلف فى أوربا . وبدأنا حديثنا عن عصر النهضة الاوربية حتى القرن العشرين ــ أى نحو ستة قرون من الزمان ، أما الحضارة الإسلامية فقد بدأت ببداية الإسلام لأنهما يتزاوجان ولا ينفصل أحدهما عن الاخر ــ كما سنعرف بعد ، وواضح أن اهتمامنا بتتبع معالمها كان عن عصرها الذهبى منذ مطلع العصر العباسى فى منتصف القرن الثامن للميلاد ــ الثانى للهجرة ــ حتى غارة التتار على بغداد التى كانت فى ذلك الوقت عاصمة الدنيا بأسرها ــ وحولها التتار إلى كومة من رماد عام ١٢٥٨ م فكأن العصر الذهبى استمر نحو خمسة قرون من الزمان .

وكان اهتمامنا فى دراسة الحضارتين بأهم أسباب الحضارة وأظهر مسبباتها ، وهو العلم وإخوته من دين وفلسفة وفن وأدب ..

وسنرى عند الموازنة بين الحضارتين أن بينهما فروقا جذرية ضخمة بدأت من المنبع وسارت حتى المصب ، ومرد ذلك إلى أن الحضارة الاوربية قد استلهمت العلم وانصرفت عن المسيحية بقيمها الروحية العليا ــ ومن هنا كانت أوربا طوال تاريخها أكثر قارات الدنيا إثارة للحروب والصراعات والاحقاد والضغائن ، ومنذ الجيل الأخير فى القرن التاسع عشر كانت أكثر الدول الصناعية استعمارا للدول الضعيفة والمتخلفة ، ليقوم بسرقة أموالها ونهب أرزاقها واذلال أهلها .. ونجد من أعلام الفكر الاوربى المعاصر من أدان الحضارة الاوربية ورأى أنها بسبب افتقارها إلى المقومات الروحية والاخلاقية قد أدركتها الشيخوخة وأخذت تميل إلى الانحدار .. وقد اخترنا ثلاثة من هؤلاء الاعلام لنعرض رأيهم فى هذا الصدد ، هم أوزفالد شبنجلر ١٩٣٦ ***Spengler*** وألبير شفيتسر ***Shweizer*** وأرنولد توينبى + ١٩٧٥ ***Toynbee*** وفى شهادتهم على إنحدار الحضارة الأوربية وشيخوختها ما يكفي . أما الحضارة الإسلامية فقد استلهمت الإسلام فتزاوجت معه ولم يكن بينهما انفصال ، لكن الفروق الجذرية الضخمة بينهما لم تمنع من لقاءات حضارية خلت من السلاح والحقد والصراع ، وكانت غنية بالعطاء والخير ، كما سنعرف من حديثنا عن أربعة من هذه اللقاءات الحضارية .

تفسير عنوان الكتاب

تمهيد فى مفهوم الحضارة ـ تطور مفهوم الحضارة فى القرنين التاسع عشر والعشرين ـ مفهوم الحضارة فى أوربا الغربية ومفهومها عند المسلمين فى الشرق .

تمهيد

إستجابة لنصيحة وجهها « سقراط » منذ نحو أربعة وعشرين قرنا من الزمان ، نرى لزاما علينا أن نفسر ـــ ونحن فى مستهل الحديث ـــ ما نقصده بالألفاظ الرئيسية التى وردت فى عنوان البحث ، فإن هذا كفيل بأن يحدد اطاره فى ذهن قارئه ، ويوحى إليه بمختلف أبعاده وأهدافه .

مفهوم الحضارة :

ليس للحضارة مفهوم واحد متفق عليه ، فقد كانت عند علماء القرنين السابع عشر والثامن عشر ، تعد شكلا من أشكال الثقافة ، لأن العلماء كانوا متأثرين بالمكتشفات العلمية التى تكشف عنها عصرهم ، وأدت إلى تقدم فى مجال الحياة الاجتماعية والفردية ، وعندئذ بدت الحضارة عندهم مجموعة من القيم والنماذج تحققها الإنسانية من خلال تطورها ، ومجموعة أنماط اجتماعية وأخلاقية وصناعية يحققها المجتمع فى نشاطه توصلا إلى سعادة مواطنيه والتقدم العلمى ـــ مسبوقا ومصاحبا للازدهار الفنى الادبى ـــ أظهر معالم الحضارة وأقوى أسبابها ، وأوضح مسبباتها .

والانثربولوجيون وعلماء الاجتماع الأوائل ـــ من أمثال « اميل دوركايم » ١٩١٧ E.Durkeim ومارسيل مويس *M.Mouss* ومعظم العلماء الامريكيين والفرنسيين يوحدون بين مدلول الحضارة ومدلول الثقافة ، وان قيل إن الثقافة هى « كل استنارة للذهن وتهذيب للذوق وتنمية لملكة النقد والحكم لدى الفرد أو المجتمع ، وتشمل المعارف والمعتقدات والفن والاخلاق ، وجميع القدرات التى يسهم الفرد فى مجتمعه .. ولكل جيل ثقافته التى استمدها من الماضى ، وأضاف إليها ما أضاف فى الحاضر وهى عنوان المجتمعات البشرية » أما الحضارة فهى جملة مظاهر الرقى العلمى والفنى والادبى مما

ينتقل من جيل الى جيل فى مجتمع أو مجتمعات متشابهة ... ويفرق عادة بينها وبين الثقافة على أساس أن الثقافة ذات طابع فردى ، وتنصب خاصة على الجوانب الروحية ، بينما تبدو الحضارة ذات طابع اجتماعى ومادى .

تطور مفهوم الحضارة فى القرنين التاسع عشر والعشرين :

بسبب التقدم الحضارى ــ العلمى التكنولوجى ــ الذى حققته أوربا الغربية فى القرن التاسع عشر ، ذهب الباحثون من أهلها إلى أن الحضارة لاتضاف لغير الشعوب الأوربية[١]، فهى وحدها المجتمعات المتحضرة ــ أما غيرها من شعوب الأرض فهى الشعوب المتوحشة أو البربرية أو غير المتحضرة! وفرق هؤلاء الباحثون بين هاتين الطائفتين من الشعوب على أساس من التقدم العلمى والتكنولوجى ، دون نظر إلى المعايير الاخلاقية أو الروحية .

لكن الباحثين من الغربيين فى القرن العشرين قد عدلوا عن ذلك التصور ، فلم يعودوا يفرقون بين شعوب متحضرة وشعوب همجية غير متحضرة ، لأن مفهوم الحضارة ومفهوم التقنية (التكنولوجيا) قد تغيرا فى أذهانهم عن ذى قبل ، فأصبحت الحضارة عندهم تتمثل فى كل جهد يبذله الإنسان لتحسين أحواله المعيشية فى دنياه ماديا ومعنويا ، أما التكنولوجيا فأصبحت تعنى تطبيق الإنسان للمعرفة المتاحة له ابتغاء تطوير حياته وتيسيرها ما أمكن ، وبهذا التغيير فى مفهوم الحضارة ومفهوم التقنية أصبحت الحضارة تضاف إلى كل شعب من شعوب الأرض ــ متطورا صناعيا أو متخلفا زراعيا أو غير ذلك .. فالذى كان يشرب الماء من البحيرات أو الانهار بفمه على طريقة البهائم ، ثم طور هذا الأسلوب فى حياته وصنع من الطَّفل الموجود فى بيئته «قلة» يشرب منها ، وآنية فخارية يحفظ فيها طعامه ، دل بهذا على أنه طور حياته بأسلوب حضارى ، ولا يتطلب وصفه بالمتحضر أن يتقدم العلم المتاح فى بيئته ، ويتوصل إلى قوانين تطبق فتكون التكنولوجيا التى تتحول إلى آلات وأجهزة تستخدم فى مصانع

---

(١) بدأت فى إيطاليا النهضة الأوربية الحديثة ولكن إيطاليا لا تضاف إلى أوربا الغربية من الناحية الجغرافية إلا على سبيل المجاز وعلى العكس تضاف أسبانيا والبرتغال وهولندا وبلجيكا ودول اسكنديناوه :

ومزارع ومتاجر ، وتدخل بيته لتيسير حياته فى دنياه .. كما كان هذا المفهوم فى القرن الماضى .. فالباحثون اليوم على اتفاق فى أن لكل شعب ــ همجيا متخلفا أو متمدينا متطورا ــ حضارته ، والخلاف اليوم بين حضارة شعب وحضارة شعب اخر ، ليس فى أن احداهما متحضر والاخر غير متحضر ، وإنما أصبح الخلاف بينهما يقوم فى مستوى الحضارة عند كل منهما ، أى فى المستوى الحضارى الذى بلغه كل منهما ، أو نكص عنه أو توقف عنده ، وكل مرحلة من هذه المراحل إلى زوال ، ومن هنا قيل أن الشعوب البيئية التى لم تصل إلى عصر التصنيع لا تخلو حياتها من حضارة وتقنية (تكنولوجيا) لأن هذه تقال اليوم على تطبيق أى نوع من المعرفة المتاحة لتشكيل الأشياء المصنوعة من حرف ومهن يدوية وغيرها ، كما تدل التقنية اليوم على أى مهارة تستخدم فى مصنع الآلات .

ومن عجب أن الكثيرين من شعوب العالم الثالث ــ والعرب منهم ــ لا يزالون يعتنقون التصور الذى كان يردده الباحثون الغربيون للحضارة فى القرن التاسع عشر ، حين كانت الحضارة قصرا على شعوب أوربا الغربية ... !! ولعل مرد ذلك إلى شعورهم بعقدة النقص ــ أو عقدة «الخواجة» الذى كان يستعمر بلادنا إلى عهد قريب .. ! ولذلك واصل هؤلاء الاعتقاد بأن الشعوب الغربية هى وحدها الشعوب المتحضرة .

مفهوم الحضارة فى أوربا الغربية ومفهومها عند المسلمين فى الشرق

حسب القارئ أن يذكر أن الذى يعنينا من دول أوربا الغربية ما كان منها مسرحا لحضارة فى عصورها الحديثة ، ونعنى بها انجلترا وفرنسا والمانيا وايطاليا .

أما المسلمون فى الشرق فيراد بهم من اعتنقوا الإسلام واتبعوا تعاليمه ممن يقيمون فى الشرق ــ واحسن حالات المتدينين ــ شرقا أو غربا ــ من تحولت عنده ثقافته الدينية إلى أسلوب فى حياته العملية ــ وهؤلاء جد قليلين .

الباب الأول

مقدمات علمية فى موضوع الحضارة

قلنا أن هذه الدراسة تستهدف الكشف عن أهم الخصائص التى تميز الحضارة الاوربية والإسلامية عسى أن يمكننا ذلك من تقيمهما والموازنة بينهما ، وليس أعوق على ذلك من أن نتناول الحضارة فى الحالتين عندما بلغت ذروة ازدهارها . ولهذا يكفينا من الحديث عن الحضارة الاوربية أهم معالمها فى عصرها الحديث منذ عصر النهضة الاوربية .

وسنعرض فى هذا الباب للحديث عن موضوعات تدخل فى صميم الحضارة بما هى حضارة ــ أى غير مرتبطة بمكان أو زمان ، سيان أن تكون حضارة إسلامية أو أوربية أو غير ذلك .

الفصل الاول
نشأة الحضارة ونموها

تمهيد :

أ ــ دور المجتمع فى قيام الحضارة ــ دور الفرد فى بناء الحضارة ونموها ــ مشاركة الفرد والمجتمع فى بناء الحضارة .

ب ــ نشأة الحضارة ونموها بين بيئة صناعها والجنس الذى ينحدرون عنه .

١) رد الحضارة إلى البيئة الجغرافية ومناقشته .

٢) رد الحضارة إلى الجنس الأبيض .

٣) تفنيد نظرية الاجناس .

جـ) مواثيق السلام ومصيرها بين أوربا فى الغرب والمسلمين فى الشرق .

تمهيد :

يطلق أسم الانقلاب الصناعى ــ كما سنعرف بعد ــ على العصر الذى دخلت فيه الالة مجال الصناعة والزراعة والتجارة ، مكان القوة العضلية عند الإنسان ، وهذا يقتضى بطبيعة الحال تقدما علميا يتمثل فى وضع قوانين لتفسير الظواهر ، وتطبيقا لهذه القوانين

حتى تكون التقنية (التكنولوجيا) وإن كنا قد قلنا أن القرن العشرين قد عدل مفهوم الحضارة ووسع مفهوم التكنولوجيا حتى أصبح لكل مجتمع بشرى حضارته ، وان خلا من كل تقدم علمى وتطبيق تكنولوجى ، وبهذا المفهوم الواسع نتحدث عن نشأة الحضارة ونموها .

إن الحضارة ــ بأى معنى من معانيها ــ لا يشارك فى إنشائها أفراد المجتمع جميعا ، وإنما تنشئها قلة من صفوتهم تتميز بالطموح والوعى والشعور بالمسئولية والرغبة الجادة فى العمل النزيه المخلص لمصلحة المجموع الذى ينتمون إليه ، ولا يمنع هذا من أن نقول أن نشأتها قد تصادف ظروفا سياسية واقتصادية واجتماعية .. مواتية لنشأة الحضارة ، وقد لا تكون مواتية فتتعثر الحضارة ويصاب المجتمع بجمود وركود . وإذا خبت الحضارة فى مجتمع أمكن أن تزدهر متى تغيرت ظروفه وأصبح قادته مهيئين لقيادة مجتمعهم إلى هذا النهوض ، دون أن يرغبوا فى استغلال مراكزهم لتحقيق مصالحهم الشخصية على حساب أمتهم .

وقد اختلفت وجهات النظر بين الباحثين ، فيمن يرجع إليه الفضل فى قيام الحضارات ، أهو الفرد (المميز) أو المجتمع ... ؟ وفيما إذا كانت الظروف المواتية لنشأة الحضارة هى البيئة الطبيعية التى يعيش فيها صناع الحضارة أم نوع الجنس الذى ينتمون إليه ، فلنقف عند هذين العاملين قليلا .

أ ــ دور المجتمع فى قيام الحضارة :

قلنا أن نشأة الحضارة تكون على يد صفوة من أفراد يحسنون قيادة الجماعة عن وعى وتبصر وطموح .. ولكن من الباحثين من رأى أن المجتمع بأعرافه الاجتماعية هو الذى يوجه التاريخ ويحدد له مسار مستقبله ورواد هذا الاتجاه هم أصحاب الفلسفة الوضعية الفرنسية وعلماء الاجتماع بوجه عام ، وكان طبيعيا أن يرفض هذا الرأى مفكرون آخرون ، يردون للفرد فاعلية ، ويمكنون لارادته ، وقدرته العقلية التى سلبها الوضعيون والاجتماعيون ، وبالتالى يردون قيادة المجتمع فى حاضره ومستقبله إلى الفرد .

احتلت النزعة الاجتماعية التاريخية مكان الصدارة فى تفكير القرن التاسع عشر ، فإنصرف مفكروه عن دراسة الإنسان مستقلا عن أقرانه ، وعالجوه من حيث هو عضو فى جماعة يخضع لتأثيرها ويستجيب لتياراتها ولا يملك أن يتصدى لمقاومتها أو يسيطر على

توجيهها.. وقد بدت هذه الظاهرة عند «أوجست كونت» + ١٩٥٧ A. Conte أمام الفلسفة الوضعية ومن ذهب مذهبه[١] ، وتمكنت خاصة على يد المدرسة الإجتماعية الفرنسية التى يتزعمها اميل دوركايم + ١٩١٧ .

وانتهت الوضعية عند « كونت » إلى إنكار التفكير اللاهوتى والميتافيزيقى فى كل مجالاته ثم نزع « كونت » إلى إقامة علم الاجتماع علما وضعيا يصطنع مناهج البحث التجريبى (الملاحظة الحسية) ، ورأى أن وظيفته تقوم فى ملاحظة الظواهر العقلية والخلقية التى تنشأ وتنمو عن طريقها المجتمعات البشرية .

وتبلورت أفكار «كونت» عن علم الاجتماع ، عند «اميل دوركايم» + ١٩١٧ مؤسس علم الاجتماع الحديث ، إذ جعل علم الاجتماع محور دراساته ، واهتم بدراسة الظاهرة الاجتماعية[٢] توطئه لإقامة الاجتماع علما واقعيا مستقلا ، ورأى أنها تنشأ خارج شعور الفرد كحقيقة موضوعية ، تؤثر فى الفرد وتوجه سلوكه وتفكيره وشعوره ، على غير إرادة منه ، بل ليس فى وسعه أن يقاوم تأثيرها ، وهى تخضع لقوانين علمية شأنها شأن الضواهر الطبيعية ومن ثم تخضع لدراسة علمية موضوعية لا تتدخل فيها أهواء الباحث وعواطفه ، وهى تنشأ بنشأة الاجتماع البشرى ، لأنها من صنع العقل الجمعى *Collective mind*[٣] ويتميز بصفة القهر والإلزام ، بمعنى أن الظاهرة الإجتماعية تفرض نفسها على الافراد فلا يملكون إلا طاعتها راضين أو كارهين بسبب استحسان المجتمع أو استهجانه ، فالجماعة البشرية تسخر أو تنفر ممن يخالف عرفها عمدا ، أو يستخف بقواعد المجتمع واللياقة التى تفرضها .

وقيم الاخلاق ومثلها العليا من صنف الظواهر الاجتماعية التى تنشأ باجتماع الناس بعضهم ببعض ، ولا تكون قط من صنع الافراد ، أو الفلاسفة كما يقول المثاليون ،

---

(١) هو فى رأى الفرنسيين خاصة مؤسس علم الاجتماع .. وقد نسى هؤلاء أن مؤسسه الحقيقى هو «ابن خلدون» ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦ م .

(٢) «هى» كل ظاهرة قوامها علاقة بين أفراد ، ويصحبها شعور بسلطان المجتمع .. وتنشأ عن اجتماع الناس بعضهم ببعض ، ولا تكون وليدة مزاجَ الفرد أو ارادة فردية مجمع (٢) وقد سبق ابن خلدون إلى هذا قبل دوركايم بأكثر من خمسة قرون من الزمان ! ..

(٣) «هو من الجماعة بمثابة الضمير من الفرد ، فيصدر أحكاما مباشرة على القيم الأخلاقية لأعمال معينة ، يرضى ويسخط ويحبذ أو يثور ويتألم» ولا تنشأ عن ارادة فرد ، وإنما يعبر عن عقل الجماعة مجتمعة .

ويكون لها من السلطان ما يمكنها من أن تفرض نفسها على الفرد ولا تتأثر به ، فهو يتلقى توجيهات المجتمع ويستجيب لها راضيا أو كارها وبهذا تكون المثل العليا وليدة المجتمع وليست من صنع الافراد ، أو فلاسفة الأخلاق ، وتمرد الافراد عليها يؤدى إلى الانحلال والفوضى ، إذ ليست المثل العليا إلا تعبيرا عن رغبات الأفراد فى ارضاء المجتمعات التى ينتمون إليها ، ووظيفة علم الاخلاق أن يقوم بدراستها كما هى موجودة بالفعل عند جماعة بشرية مرتبطة بزمانها ومكانها .

وكثيرا ما تصطدم الواجبات الاجتماعية بعواطف الفرد ومشاعره الحقيقية ، ولكن التجربة تشهد بأن الفرد يتغاضى فى هذه الحال عن مشاعره الخاصة ، وينصاع لمعايير المجتمع ومثله العليا ، وهذا هو حال الفرد إزاء الظواهر كلها ، خلقية ودينية وسياسية واقتصادية واجتماعية ، وحضارية بوجه عام وكل من حاول التمرد على قيم المجتمع أو عرفه الاجتماعى عرض نفسه لسخط الجماهير واستهجانها ، واستهدف للعقوبات — مادية نفرضها القوانين الوضعية ، أو أدبية تقتضيها سلطة الرأى العام .. بل أن الفرد حين يستجيب للمبادىء التى نفرضها الجماعة عن رضا واختيار ، لا يكون هذا دليلا على أن سلوكه يصدر عن ذاته بمحض حريته واختياره ، بل إن هذا يشهد باذعانه لسلطان المجتمع عن غير تفكير فى مقاومته ، أو تمرد على تعاليمه ... وبهذا المعنى ذهب « دوركايم » إلى أن الضمير يعكس بيئة المجتمع وتلتقى فيه تعاليمها ، فالإنسان ابن عصره ووليد بيئته ، ومن هنا كان خضوعه لمعايير المجتمع الذى ينتمى إليه ، وبهذا تنشأ الأخلاق عن حياة الأفراد مجتمعين وهم فى صراعهم المتصل ابتغاء السيطرة على قوى الطبيعة .

وربما قيل أن صفة الإلزام أو القهر الذى تتصف به هذه الظواهر الاجتماعية لا تمنع من أن يتصدى لتعديلها أو رفضها ، أو قد يقبلها عن حرية واختيار ، بل قد يقال أن بعضها كالقوانين الوضعية يعزى إلى فرد يقوم بوضعها هو المشرع .. ولكن « دوركايم » يرى أن هذا كله يقتضى أن يكون الفكر الجماعى بحيث يمهد له ويتطلبه ، ثم أن القوانين التى يضعها أفراد ، تنعدم قيمتها إذا لم تقبلها الجماعة وترضى عنها ، أى حينما تفقد طابعها الفردى ، وتصبح فى عداد الظواهر الاجتماعية .. إلى آخر ما يراه « دوركايم » ومن ذهب مذهبه من علماء الاجتماع .

وفى ظل هذا الاتجاه الذى يرد كل الظواهر إلى الاعراف الاجتماعية التى تسود حياة أية جماعة بشرية ، ماذا يكون الحال فى قيام الحضارة ... ؟ للحضارة ـــ عند أصحاب هذا الاتجاه ـــ ظاهرة إنسانية لا تشذعن غيرها من الظواهر ، ليست وليدة ارادة فردية ، ولا هى من صنع أفراد مهما كانت الخصائص التى تميزهم ، فهى تنشأ فى أى مجتمع فى ظل الظروف التى تسوده ، والعرف الاجتماعى الذى يحكمه ، ولا قيمة فى هذا الشأن للافراد الذين سلبهم أصحاب هذا الاتجاه ارادتهم وفاعليتهم وتفكيرهم ... كما قلنا فى كتاب سابق لنا أصدرناه منذ نحو ربع قرن .

دور الفرد فى نشأة الحضارة ونموها :

لكن هذا الاتجاه الاجتماعى الذى جسم دور المجتمع فى توجيه التاريخ على حساب الفـــرد قد ماد وتداعى أمام نظرية جسمت دور الفرد (البطل) على حساب المجموع ، ويبدو أن رائدها الأول كان «توماس كارلايل» + ١٩٨١ *T. Carlyle* فقد ألقى سلسلة محاضرات جمعت فى كتاب تحت عنوان : الابطال وعبادة البطولة : *Heroes and Hero Worship* عرض فيها نماذج لابطال (أفراد) وجه كل منهم تاريخ أمته ، إستنادا إلى القول بأن من أراد أن يعرف تاريخ أمة ، فحسبه أن يعرف تاريخ أبطالها[1] .

وفى مطلع القرن العشرين أكد المفكرون النزعة الفردية ***individualism*** ونشأ المذهب التاريخى ***Historicism*** وكان أمامه «بندتو كروتشه» + ١٩٥٢ ***B. Croce*** وبهذا المذهب أصبح نشاط الذات مركزا يدور حوله كل شئ ، فإذا كان «كونت» وأتباعه قد زعموا أن المجتمع يوجه الفرد ، فإن أصحاب المذهب التاريخى يقولون أن الفرد هو الذى يحدد معنى التاريخ ، وفى غمرة هذا الرأى يحدد معنى التاريخ ، وفى غمرة هذا الرأى اشتدت صيحات الاحتجاج على طغيان المجتمع على حرية الفرد ، وتجلى هذا عند القصاصين والفنانيين والاقتصاديين ممن رفضوا سيطرة الحكومة والهيئات على

(١) اختار فى ثانية محاضراته نبينا محمداً ليبين دوره فى توجيه لأمم الاسلامية طوال القرون إلى وقت كارلايل ـــ وما بعده ـــ وفى ثالثة محاضراته اختار نموذجين من الشعراء ، هما دانتى وشكسبير ، وفى رابعتها اختار «مارتن لوثر» .. وفى خامستها اختار من الأدباء : جان جاك روسو .. وفى سادستها اختار قائدا ملكا هو «أوليفر كروميل» ونابليون ـــ وصرح بأن هؤلاء الأفراد قد وجهوا تاريخ أممهم ، وسيطروا على مسيرة مستقبلها .

النشاط الإجتماعى أو الاقتصادى ، ورأوا أن حرية الفرد فى تصرفاته تأتى بالاعاجيب ... وجرى فى التيار طلاب الحرية السياسية ، والداعون إلى حقوق الإنسان ...

مشاركة الفرد والمجتمع فى بناء الحضارة :

إذا كانت النظرية الاجتماعية التى جسمت سلطان المجتمع على حساب الفرد قد ضلت سبيلا ، فإن النظرية التى عكست هذا الوضع فجسمت سلطة الفرد على حساب مجتمعه ، لا تقل عنها ضلالا .

حقيقة أن المعاصرين من علماء الاجتماع أنفسهم قد تبينوا تعسف « دوركايم » وأتباعه فى الفصل القاطع بين الفرد والمجتمع ، ورد الظاهرة الاجتماعية إلى الجماعة وحدها ، وجعلها ملزمة قاهرة للافراد ، ففى غمرة هذا التعسف افتقد الإنسان حريته وكرامته وفاعليته وقدراته العقلية ، وضاعت حقيقة يؤكدها اليوم جميع الاجتماعيين ، هى قيام تأثير متبادل بين الفرد والمجتمع ، أى أنهم رفضوا الفردية التى قامت على انقاض النظرية الإجتماعية ، يقول اميل بربيه *E. Brhier* معقبا على النظريتين السالفتى الذكر : اننا إذا أخذنا بوجهة النظر التى قال بها « جورج جوريفتش » *Gurivtch* فى كتابه الاتجاه الحالى لعلم الاجتماع ، قلنا أن المناقشة فى موضوع العلاقة بين الفرد والمجتمع قد أصبحت اليوم غير ذات موضوع ، فمن المستحيل أن ننظر اليوم إلى الفرد والمجتمع كما لو كان منهما منعزلا عن الآخر ، ومستقلا بذاته ... وقد انتهى « جون ديوى » + ١٩٥٢ *J.Dewey* بعد البحث فى آراء الكثيرين من علماء الاجتماع المعاصرين ، إلى أن لفظى الفرد والمجتمع غامضان غموضا شديدا ، وأن هذا الغموض سيستمر قائما طالما اعتبرنا الفرد والمجتمع لفظين متضادين .

ويمضى « اميل بربيه » فيقول أن المعاصرين من علماء الاجتماع — فرنسيين وأمريكيين يرفضون رأى « دور كايم » الذى اعتبر الفرد « دمية يحرك المجتمع خيوطها بأصابعه ، وتخضع لنظام لا دخل لها فى وضعه على الاطلاق ، وقد ذهب « مارسيل موس » *M.* Mouss إلى أن الإنسان (الفرد) يتصف بجميع الصفات التى يتصف بها المجتمع بأكمله ، وصرح « كيفلييه » *Cuvllier* فى كتاب وضعه حديثا تحت عنوان : محصل

علم الاجتماع ـــ صرح بأن الفضل فى إيضاح العلاقة بين الفرد والمجتمع ، مرده إلى علماء النفس الذين عالجوا البحث فى المشكلة الخاصة بمعرفة الاخرين ، فرفضوا الرأى الذى ذهب فيه علم النفس التقليدى إلى أن معرفة الاخرين تتم نتيجة استدلال يقوم على المقارنة ,واعتبر شعورنا عالما صغيرا مغلقا ، فذهب المعاصرون من علماء النفس إلى أن الطبيعة البشرية لاتوجد كاملة منذ ولادة الإنسان ، بل يكسب الإنسان وجودها بالتدريج أثناء حياته فى المجتمع ...

وصفوة القول أن الفرد فى نظر المعاصرين من الاجتماعيين والسيكولوجيين مركب تركيبا اجتماعيا يتعذر الفصل بين أجزائه .

وهكذا تبدد المشاركة بين الفرد والمجتمع فى توجيه التاريخ ، ومسئولية كل منهما عن نشأة الحضارة وتعهدها بالنمو ، أما القول بابعاد احدهما عن هذا المجال اكتفاء بثانيهما فهو ضلال مبين .

فلننظر الان فى مدى تأثير البيئة الطبيعية والجنس الذى ينتمى إليه صناع الحضارة ، فى نشأة الحضارة ونموها .

ب ـ نشأة الحضارة ونموها بين بيئة صناعها والجنس الذى ينحدرون عنه .

من الباحثين الغربيين من رد الفضل فى نشأة الحضارة ونموها إلى البيئة الجغرافية التى نشأت فيها، ومنهم من أرجع الفضل فى ذلك إلى الجنس (الأبيض) الذى إنحدر منه صناعها، لنا وقفة مع هاتين الوجهتين من النظر :

(١) رد الحضارة إلى البيئة الجغرافية ومناقشته :

كثيرون هم الذين يعتنقون الرأى الاول ، ومن روادهم هنتنجتون ***Huntington*** فى كتابه : المنابع الرئيسية للحضارة ***the main Springs of the civilization*** وفيه رد الحضارة والتقدم إلى المناخ المعتدل البارد ، وقال ان جميع المناطق الحارة والمدارية سكانها متخلفون متأخرون ... !! وقد جاراه فى هذا الرأى كثيرون ، بل سبق إليه من مفكرى العرب المسلمين «ابن خلدون» + ١٤٠٦ م .

والرأى عندنا أنه إذا كان من الحق أن يقال أن للبيئة والظروف الجغرافية أثرها فى دفع الناس إلى العمل ، أو إلى الاحباط أو التوقف عن النشاط اليدنى والذهنى ، فإن من الحق

كذلك أن يقال أن الظروف الطبيعية أو الأحوال الجغرافية ليست العامل الوحيد أو الاهم فى قيام الحضارة واستمرار مسيرتها ، أن فى العالم شعوبا تميل إلى التكاسل والاسترخاء طلبا للراحة .. ! وتلتمس لذلك عذرا فى الجو الذى لايرونه فى بلادهم ملائما للعمل مغريا بالنشاط ، فإذا كان جو بلادهم حارا قالوا ـــ حتى مع انتشار أجهزة التكييف فى بلادهم : كيف يمكن العمل فى هذا القيظ القاتل .. ؟؟ وقد قدر لى أن أعيش عدة سنين فى بلد من هذه البلاد ، وعرفت أنهم فى الاغلب والاعم يستأجرون من بلاد أخرى من يقوم عنهم بأعمالهم .. ! بل إن الأمم المتحدة ذكرت فى تقرير لها أن المواطن فى هذا البلد يعمل طوال يومه اثنتى عشرة دقيقة ..[1] ومن هذا الصنف من الناس من إذا كان جو بلاده باردا لاذ بالنوم متدثرا ملتحفا بما يقيه البرد .. ! وهؤلاء جميعا يستريحون للتكاسل والاسترخاء ، بينما نجد شعوبا أخرى لايمنعها عن العمل المتصل جو قائظ رطب ، فيواصلون العمل دون أن يستخدموا لتخفيف حدته أجهزة للتكييف .. أو يعيشون عاملين نشيطين فى جو قارس البرودة دون أن يتقوا برده بأساليب التدفئة .. !

يبدو أن مرد العمل المتواصل إلى مدى استعداد الإنسان لذلك ، ومبلغ تهيئه النفسى للحركة والنشاط والتطلع إلى الرقى ، فليست ظروف البيئة الجغرافية هى العامل الأول ـــ أو الأهم فى نشأة الحضارة أو نموها ، وإن كان من الضرورى لمن يكد ويعمل وينتج أن يجد فى وطنه جزاء ملائما لمعرفة ، ومكافئا لنشاطه .

(٢) رد الحضارة إلى الجنس الأبيض :

أما القائلون برد الحضارة إلى الجنس الأبيض دون غيره من أجناس البشر ، فهم بدورهم كثيرون ، يعلقون كل اهتمامهم على لون البشرة عند بنى الإنسان .. ! مع أن مرجع اللون فيما يبدو إلى طبيعة الجو ، وقد زخرفوا لهذا الزعم ثوبا علميا ، واقنعوا بذلك مفكرين أشاعوا هذه النظرة المزعومة ، فكانت حروب دويلات قد نشير إليها بعد .

---

(١) لأن العمل الذى يتطلب من فرد واحد أن يؤديه فى ساعات العمل اليومى ، يؤديه ذلك المواطن لو كان وحده فى اثنى عشر يوما .. ولله فى خلقه شئون .

ذلك أن نظرية نبتت فى القرن التاسع عشر ـــ وإن قال بمضمونها القدماء تفرق بين شعب «آرى» هو الأصل الذى تنتمى إليه الأمم الأوربية وبعض الأمم الاسيوية ، ممن إنحدرت لغاتهم عن أصل واحد هو لغة " ... ك يتية أو غيرها[1] ، وكان إمام الداعين إليها أرستقراطيا فرنسيا هو جوزيف آرثر جوبينو ١٩٨٢ *De Gobineau* وقد زعم أن الشعوب الارية وحدها دون غيرها هى التى خلفت كل ماله قيمة فى الحضارة ، وقامت بالحفاظ عليه ، وقيل أن السلالةالارية هى منبع جميع الحضارات العالمية من قديم الزمان إلى حديثة ، وقيل أن النورديين هم سلالة الاريين الذين توطنوا شمالى أوربا قديما ، ومنهم الشعوب التيوتونية والانجلوسكسونية ، إلى غيرها من السلالات والاجناس البشرية ، وكان «أدولف هتلر» يرى فى كتابه «كفاحى» أن الجنس الارى وحده أهل لإنشاء الحضارة ، وأن الجنس اليهودى أشد الاجناس هدما للحضارة[2] بل ان كل الاجناس غير الارية أجناس منحطة (كشعوب البحر الأبيض الجنوبية والشعوب السامية والشرقية بوجه عام ... !)

وكان لتفوق الجنس الآرى اتصالا وثيقا بفلسفة القوة والسيادة الألمانية التى قد ذاعت فى المانيا فى القرن الماضى ، وكان من أئمتها «فردريك نيتشه + ١٩٠٠ *Nietzsche* وهو الذى زعم أن البشر قسمان : سيد وعبد ، وصفوة ودهماء ، ومن خير البشرية أن تعمل على خلق جنس من الناس يمتاز بالقوة والتفوق والسيادة ، ويتمثل هذا فى السوبرمان أو الإنسان الأعلى ، وقال زعماء النازية إن الشعوب المنحطة حاجتها إلى الغذاء والملابس والثقافة أقل من حاجة الشعوب الارقى .. !!

---

(١) آريا منسوب أصلا إلى اسم شعب فى بلاد الأفغان وما إليها ، وانحدر قبل المسيح بقرنين إلى الهند ومعه دين الفيديين ، وهو اليوم دين البراهمة ودين الهندوسيين لم يدخله إلا تغير يسير ، وقد كان لهذا الدين أثر كبير فى حياة آسيا الفعلية ، ووصل صدى ذلك إلى أوربا منذ القدم ، أما الجنس السامى فنسبة إلى سام وقد جاء فى التوراة أنه كان لنوح ثلاثة أبناءهم سام وحام ويافث ، سام أبو الإسرائيليين وإخوانهم . وحام أبو الزنوج ، ويافث أبو بقية البشر . وقد انحدر عن الجنس السامى العرب (والكلدانيون والأشوريون والعبرانيون) .

(٢) لأن اليهود فى نظر هتلر جنس يضطرم بالانانية ، وهو ذكى ولكنه مقلد ، مجرد من القدرة على الابتكار .. واليهودى يتقدم كتاجر ، ويشتغل بالوساطة والرباء .. يتملق أصحاب السلطة ، ويسيطر على البورصة والانتاج ..

٣) تفنيد نظرية الاجناس :

ولتفنيد هذه النظرية المزعومة نقول بداية أنها ظهرت فى عصر ينوء بتعصب دينى بغيض ، وتحزب جنسى مقيت ، وإن كـان المتتبع لابحاث المعنيين بتلك النظرية يلاحظ أن فكرة إقحام السامية والارية على نشأة الحضارات كادت تتلاشى فى القرن العشرين ، وذلك بسبب أن نظرية السامية والارية قد تضاءلت ، وظهر للباحثين ضعف سندها العلمى . وليس أدل على الخطأ الذى تورط فيه أصحاب هذه النظرية من أن الشعوب الارية لم تنشيء حضارات قديمة كالتى أنشأها الساميون فى الشرق ، كالحضارة المصرية والصينية والهندية ومع ذلك لم يستطع أحد من العلماء أن يأتى بسند علمى واحد على أن السلالة الارية كانت موجودة بالفعل ، إذ ليس ثمة علاقة حتمية بين اللغة والسلالة ، فالارية لغة ، واستعمالها للدلالة على سلالة معينة كما يستعملها الالمان ليس له مسوغ علمى واحد . وأما الشعوب النوردية فأصلهم غير معروف ، وليس من المؤكد أنهم ينتمون إلى سلالة صريحة النسب .

ومكن لهذه النظرية أرنست رينان + ١٨٩٢ ***E.Renan*** فى كتابيه : «تاريخ اللغات السامية» و «ابن رشد وفلسفته» وفيها أكد أن الجنس السامى دون الجنس الارى فى قدراته العقلية ، وقد تأثر به بعض معاصريه وخلفائه ، وصرح فى كتابه الأول بأن «خواص النفس السامية تتجلى فى إنسياق فطرتها إلى التوحيد من جهة الدين وإلى البساطة فى اللغة والصناعة والفن والمدنية ، وأخلص أنواع الجنس السامى هم العرب ، أما النفس الارية ، فتتميز بميل فطرى إلى التعدد وانسجام التأليف» .

ويقول فى كتابه الثانى «ابن رشد وفلسفته» : «ما يكون لنا أن نلتمس عند الجنس السامى دروسا فلسفية ، ومن عجائب القدر أن هذا الجنس الذى استطاع أن يطبع ما ابتدعه من الاديان بطابع القوة فى أسمى درجاتها ، لم يثمر أدنى بحث فلسفى خاص ، وما كانت الفلسفة قط عند الساميين إلا اقتباسا صرفا جديبا وتقليدا للفلسفة اليونانية» وبذلك ادخل فى المباحث المتعلقة بتاريخ الفلسفة عند العرب المسلمين دعوى الطبيعة السامية وجعلها أساسا للحكم على الفلسفة[1] ... وساير هذا الزعم المتعصب المستشرق

---

(١) عرض النظرية عند رينان فى مجال الفلسفة ــ وفندها بدقته المنطقية المعروفة فى كتابه : «تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية أستاذنا الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق ط ٢ ص ١٠ وما بعدها .

الالمانى كرستيان لاسن + ١٨٧٦ *Ch.Lassen* والفيلسوف الفرنسى فيكتور كوزان ١٨٤٧ *V. Cosin* وغيرهما .

وفى مقدمة برنامج النازيين فى أوربا كانت نظرية تفوق السلالة الآرية إلى جانب أن أوربا ليس منها أجناس نقية من ناحية الجنس بوجه عام .

وقد أصدر جورج بواسون *G.Poisson* كتابا تحت عنوان : « الآريون » وفيه يقول : «إذا كان الالمان قد أوغلوا فى الدراسات الارية ايغالا بعيدا ، فإنهم انتحوا نحوا يجعل صحة نتائجهم موضع إنكار من علماء البلاد الأخرى ، ويرى المؤلف أن مسألة الارية لا يجوز أن تترك دراستها لعلماء اللغات وحدهم ، وإنما ينبغى أن يشاركهم فى البحث علماء أصول الشعوب ، وعلماء ما قبل التاريخ ، وفى كتاب بواسون نجد أن كل الأمم التى نشأت عن الاسرة الارية قد صيغت من خليط من عناصر الاجناس الأولى ، وما يكون لامة أن تعتز بأن لها من النقاء حظا أكبر من حظ غيرها ، إلى جانب أن المدنية الأرية أثر مشترك لجميع العناصر الجنسية التى شملتها هذه المدنية ، إذ أن كل عنصر قد ساهم فيها بشمائله ومعارفه على نسب متعادلة»[1] .

ومن أسف أننا نلاحظ — مع ذلك — أن بعض البلاد قد هبت بها نزعات كانت قد ركدت ريحها ، وليس من شأنها أن تخلص نفوس الناس من عوامل العصبية والهوى ، مثل نظرية تفوق السلالة النوردية الشاملة لشعوب أوربا الشمالية (المانيا) ومثل فكرة تفوق البيض على السود المنتشرة فى أمريكا الشمالية وفكرة تفوق الجنس الأبيض على الهندى .. وهذه نزوات لا يسندها علم ولا حق .

وصفوة القول أن البيئة الاجتماعية — أى ما يكون فى المجتمع من نظم اجتماعية — كنظام حكومة ودين وأسرة وتعليم ونحو ذلك أهم فى قيام الحضارات ونموها من غيره من عوامل البيئة التى يعيش فيها صناع الحضارة أو الجنس الذى ينتمون إليه .

---

(١) من ترجمة أستاذنا الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق .

(ج) مواثيق السلام ومصيرها[1] بين أوربا فى الغرب والمسلمين فى الشرق

تمهيد فى طبيعة الإنسان ـــ ميثاق عصبة الأمم ـــ ميثاق هيئة الأمم المتحدة ـــ المواثيق فى اتفاقيات السلام مع المسلمين .

تمهيد فى طبيعة الإنسان :

أقضت الحروب مضاجع المفكرين ، وأحرجت ويلاتها صدورهم ، فنزعوا إلى التفكير فى تفاديها ووقاية الناس من أهوالها ، وحل المشاكل الدولية بالتفاهم والتفاوض والتحكيم ، توصلا إلى إقرار السلام ، واستباب الأمن ، وبث الاطمئنان فى نفوس الناس .

وإذا كان الإنسان بطبيعته يجمع بين القدرات العقلية ـــ التى ينفرد بها دون سائر الكائنات والميول الفطرية الموروثة التى يشارك فيها الحيوان ، فالمعروف أن العقل طارئ على حياة الإنسان المديدة التى تقدر بملايين السنين ، وأن غرائزه الحيوانية قديمة تمد جذورها فى أعماق طبيعته البشرية ، ولعل توماس هوبز ١٦٧٩ ***TH, Hobbes*** لم يكن مغاليا حـين قال : إن المدنية لم تفعل شيئا أكثر من أنها حجبت العدوان فى طبائع البشر بستار من الأدب وأحلت النميمة والقصاص فى ظل القانون مكان استخدام العنف ومعالجة الأمور بالفظاظة ، فمازال الإنسان ذئبا لأخيه الإنسان ، لا يتردد القوى فى الاعتداء على الضعيف واغتصاب ملكه ، وأن أعوزته القوة التمس الحيلة والدهاء حتى يبلغ مأربه ، هكذا كان حاله همجيا ولم يزل هذا حاله متمدينا .. !

وحسبنا من شواهد ذلك ما قرره أعلام السياسة الدولية من مواثيق السلام

(١) اقتبسنا بحثنا عن الحضارة وقائع تاريخية وعناصر حضارية من كتب وضعها مؤرخون منهم مصريون فى مقدمتهم: الأساتذة والدكاترة: محمد عبد الرحيم مصطفى وكامل جرجس ومحمد قاسم وحسين حسنى ومحمد رفعت ومحمد أحمد حسونة ومحمد عبد الله عنان... وغيرهم .

ومعاهدات الصلح ، فلم يكد يجف المداد الذى كتبت به حتى نقضوا بأفعالهم عمليا ما أجمعوا على التسليم به نظريا ... والتدليل على هذا تكفى الإشارة إلى ما حدث عقب الحربين العالميتين فى القرن العشرين :

ميثاق عصبة الأمم :

فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ــ ١٩١٨)[١] انتصر الحلفاء على ألمانيا وحلفائها ، وعقدت معاهدة الصلح فرساى (يونيو ١٩١٩) تقدم الرئيس ولسون *Wilson* رئيس الولايات المتحدة بدستور للتسوية يتألف من أربعة عشر بنداً ، أهمها الجلاء عن الأراضى المحتلة ، واستقلال بولندا ، وتقليل التسليح ، وحرية التجارة والبحار ، والبت فى أمر المستعمرات الألمانية ، وشعوب الامبراطورية العثمانية ، والمساواة طبقا لقاعدة «الحق فى تقرير المصير» وإنشاء عصبة الأمم .

وتقبل الأصدقاء والأعداء هذه المبادئ الإنسانية بالترحيب ، وباركها فى بداية الاجتماع الاعضاء الحاضرون جميعا ، وواصلوا اجتماعهم الذى أصدروا فيه تسوية تناقض المبادئ الإنسانية التى أجمعوا على الموافقة عليها فى بدء الاجتماع .. ! كان من شروط الصلح التى أقروها بصدد ألمانيا : حرمان ألمانيا من جميع مستعمراتها ، وفرض تعويضات مالية باهظة عليها ، وتحديد جيشها وقطع أسطولها البحرى ، ووضع مصانع ذخيرتها والتعليم العسكرى بها تحت إشراف الحلفاء ، وتسليم معظم سفنها التجارية مع مقدار كبير من مواردها الأولية كجزء من التعويضات الباهظة .. وفوق هذا كله فرضوا على ألمانيا أن تعلن أنها المسئولة عن إشعال نيران الحرب ، وبالتالى مسئوليتها عن جميع ما ترتب على هذه الحرب من محن وأهوال ... !

بهذا تمت التسوية على نقيض المبادئ الإنسانية التى باركها الأعضاء بالإجماع فى بدء الاجتماع .. ! وكان أساس التسوية إشفاء الأحقاد وليس العمل على إزالتها ، وإيثار المصالح الخاصة على المصلحة العامة ، وإقرار مبدأ الاستعمار دون رعاية للحق والعدل

---

(١) اشتركت فى الحرب روسيا بتسعة ملايين جندى ، وفرنسا بستة ملايين ، وبريطانيا بخمسة ملايين ، واليابان بمليون وأربعمائة ألف ، والولايات المتحدة بمليون جندى .. وبلغ مجموع جنود المعسكرين المشتركين فى الحرب ثمانية وثلاثين مليونا وثلاثة وسبعين ألفا وأربعمائة جندى !! ..

والحرية .. لكن الولايات المتحدة قد كفرت عن خطأ رئيسها الذى أخفق فى فرض مبادئه ، برفض المصادقة على أعمال المؤتمر .

هكذا أنشب الغالب أنيابه فى فريسته الضعيفة المغلوبة على أمرها ، ومزق جسدها إربا إربا .. ومتى غابت القيم واختفت المبادئ تحول الإنسان إلى وحش ضارٍ وكان الويل للمغلوب ...

كانت معاهدة فرساى «عاملاً بعيد الأثر فى إثارة الأحقاد القومية، وتغذية الدعايات السياسية والعسكرية الخطرة، وتكدير السلام العالمى» وكانت المحن والآلام الطاحنة التى عانتها ألمانيا من جراء هزيمتها ، والشروط الفادحة التى فرضت عليها ، كانت عوامل قوية لبعث ثورة انتفاضة جديدة ، وجدت سبيلها فى قيام الحركة النازية .

ولهذا ألغت ألمانيا معاهدة فرساى بالقوة ، وكان هذا استمرارا فى الاستخفاف بالمبادئ التى تقضى بالمسالمة والالتزام بالمفاوضة والتحكيم لحل المشاكل ، وذلك أن النازيين (الاشتراكيين الوطنيين) فى ألمانيا برياسة «أدولف هتلر» جعلوا فى رأس برنامج حزبهم إلغاء معاهدة فرساى .

بقى أن نقول كلمة موجزة عن عصبة الأمم التى كانت من مقترحات الرئيس ولسون فى التسوية بعد الحرب فى مؤتمر فرساى :

قد رحب الحلفاء بعصبة الأمم فى ١٩١٩/٤/١٠ ويقضى ميثاقها بإقامة التعاون بين الدول الأعضاء ، وكفالة السلام وتفادى الحروب ، وتوثيق العلاقات الشريفة بين الأمم ، وكفالة العدل واحترام المعاهدات ، والوفاء بالتزاماتها ، وإزالة العوائق الاقتصادية ، مع توقى الأمراض ، وضمان المواصلات ، وتحديد التسليح وتسوية المشاكل سلميا ... وهى قيم تتطلب طاقات روحية أخلاقية لا تخفى .

هذه هى المبادئ الإنسانية التى تضمنها ميثاق عصبة الأمم ، ورحب بها الحلفاء فى ١٩١٩/٤/١٠ وفى يونيو من العام نفسه ، أى بعد نحو شهرين ، كانت معاهدة فرساى التى مزق فيها الغالب جسد المغلوب على النحو السالف الذكر .

حقيقة إن إنشاء عصبة الأمم كان مرده إلى الرغبة فى العمل على تسوية المنازعات بين الدول بالطرق السلمية ، ولكن عصبة الأمم منذ بدايتها كانت تخضع لسيطرة الدول الظافرة ، وكان لهذه الدول ولاسيما انجلترا وفرنسا الكلمة لأولى فى تسيير أمورها ، فلم تكن العصبة إلا أداة يحركها الأقوياء من وراء ستار ، ولم توفق العصبة إلى تحقيق أهدافها ، ولهذا وقفت جامدة إزاء اعتداء الدول القوية على الدول الضعيفة ، وشهدت تباعا غزو الصين وسقوط الحبشة والنمسا وتشيكوسلوفاكيا والبانيا ، وكلها من أعضاء العصبة .. ! دون أن تحرك ساكنا لغوثها ، مكتفية فى كل الأحوال بالاحتجاجات والقرارات النظرية .. !

ميثاق هيئة الأمم المتحدة :

ومن أسف أن ما يشبه هذا كله قد تكرر وقوعه بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ــ ١٩٤٥) فقد أنشئت بعد الحرب هيئة الأمم المتحدة[1] ووقع الاعضاء على ميثاقها فى ١٩٤٥/٦/٢٥ وقوامه اقرار السلام وتوكيد الحرية واحترام حقوق الأمم ومحاربة الظلم والاستبداد ، وكفالة كرامة الفرد وحقوقه الإنسانية مع توخى التسامح وكفالة الأمن الدولى ، والعمل على ترقية الشئون الاقتصادية والاجتماعية لكافة الشعوب حتى يستتب الأمن ، وينتفى العدوان ، وتنمو علاقات الود بين الأمم على أساس من المساواة فى الحقوق والتعاون ، تحقيقا للرخاء الاقتصادى والتقدم الاجتماعى .. إلى آخر هذه القيم الإنسانية التى لاتستقيم بغير طاقاتها الخلقية والروحية .

ومن طريف المفارقات أن الساسة الذين ارتكبوا جريمتهم فى معاملة ألمانيا المهزومة ، هم الذين وافقوا بعد ذلك بعشرين يوما على ميثاق هيئة الأمم المتحدة .. ! ولا يزالون حتى اليوم ــ بعد أكثر من أربعين عاما يحتل كل منهم منطقته فى ألمانيا[2] .

---

(١) أنشئت فى ١٩٤٥/١٠/٢٤ وكانت تتألف من خمسين دولة فارتفع عددها بعد ثمانية وعشرين عاما إلى مائة وست وثلاثين دولة ــ معظم الدول الحديثة آسيوية وافريقية تحررت من نير الاستعمار أو سيطرة الوصاية وأصبحت دولا حرة مستقلة .

(٢) تقرر فى مؤتمر القرم (١٩٤٥/٦/٥) أن تتولى روسيا احتلال شرق ألمانيا ، وتحتل انجلترا المنطقة الشمالية الغربية ، وتحتل فرنسا منطقة ضيقة تمتد من غربى الرين حتى حدود بلجيكا ، وجنوبا حتى الحدود السويسرية وتحتل الولايات المتحدة منطقة شاسعة تشمل القسم الجنوبى الغربى من ألمانيا وتمتد من حدود تشيكوسلوفاكيا شرقا حتى المنطقة=

لكن ألمانيا قد أفاقت من محنتها بعد الحرب العالمية الأولى ، فما عقدت معاهدة فرساى السالفة الذكر حتى تصدت الرعاية الألمانية لاقناع الشعب الألمانى بأن ألمانيا لا تحمل من مسئولية الحرب وكوارثها أكثر مما يحمله منها أعداؤها وأن هزيمة ألمانيا كانت سياسية وليست عسكرية ، وقد تولت الحركة النازية فيما بعد الدعاية العنيفة لهذه النظرية ، وبأن ألمانيا سوف تستأنف انتصاراتها فى الحرب العالمية الثانية ، لتزيل وصمة الهزيمة التى نزلت بها .

وأصرت الأمم المتحدة بعد ذلك ألا توقف الحرب إلا بعد أن تسلم ألمانيا بلا قيد.أو شرط ، حتى ينسى الألمان أحلام النازية فى الفتح والسيادة العالمية ، وتعاقب ألمانيا التى استطاعت خلال خمسة وعشرين عاما أن تزج بالعالم فى أتون حربين عالميتين هذه هى المبررات التى سوغت للحلفاء أن يدمجوا فى المؤتمر المنعقد فى فبراير ١٩٤٥ شروط الأمم المتحدة لمعاملة ألمانيا المهزومة ، ومنها تجريد ألمانيا تجريدا تاما من قواعدها العسكرية ، والقضاء على الروح النازية واستئصال شأفتها ، والقضاء على الصناعات الحربية الألمانية ، أو الاشراف عليها ، ومعاقبة مجرمى الحرب من الألمان ، وفرض تعويض عينى على ألمانيا ...

وبعد استسلام ألمانيا أصدرت الأمم المتحدة فى ٤٥/٦/٥ أول وثيقة مفصلة عن معاملة ألمانيا المهزومة ، وقد نصت على أن حكومات روسيا وبريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا تتولى السلطة العليا فى ألمانيا ، للمحافظة على النظام وإدارة شئون البلاد وتنفيذ مطالب الدول المنتصرة .. ! وتسليم جميع الزعماء النازيين وأتباعهم إلى ممثلى الحلفاء .. بل قررت الوثيقة أن تحتل الدول الأربع المنتصرة ألمانيا كلها .. !!

ولم تكن شروط فرساى بعد الحرب العالمية الأولى شيئا مذكورا بالنسبة للمصير المحزن الذى آلت إليه ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية .. !! وكان من دلالة الظلم فى معاملة المنتصر للمهزوم أن يقرر مؤتمر بوتسدام بين ٧/١٧ و ١٩٤٥/٨/٢) القبض

الفرنسية غربا ، وشمالا حتى المنطقة الروسية ، وجنوبا حتى النمسا .

ولم يحدد الحلفاء زمنا لانهاء هذا الاحتلال !! .. ولهذا بقى قائما حتى اليوم ــ بعد أكثر من أربعين عاما !!!

على مجرمى الحرب من الألمان وحلفائهم وتقديمهم للمحاكمة ، وفصل جميع أعضاء الحزب النازى وأتباعهم ، وبمقتضى اتفاق بين الدول المنتصرة الأربعة أنشئت المحكمة العليا لجرائم الحرب ، وبدأت المحكمة نشاطها منذ سنة ١٩٤٦ .

ولم يخجل الساسة الذين أصدروا قراراتهم بإعدام ألمانيا بوحشية ضارية من أن يوقعوا بعد عشرين يوما على ميثاق هيئة الأمم المتحدة فى ١٩٤٥/٦/٢٥ بكل ما تضمنه من مبادىء إنسانية سامية !

وقريب مما عاق عصبة الأمم من تأدية وظيفتها قد حدث للأمم المتحدة ، إذ كان المفروض من وجودها السهر على صون السلام والأمن الدولى ، ومقاومة ما يهدد السلم ، والقضاء على أعمال العدوان أو غيرها مما يكدر السلم ، مع الاعتصام بالوسائل السلمية فى تسوية المنازعات الدولية ، لكن مجلس الأمن وهو هيئتها التنفيذية قد كان منذ البداية مسرحا لصراع الدول الكبرى فى سبيل تدعيم سياستها وتحقيق أهدافها الدولية ، وربما قيل إن هيئة الأمم قد وفقت إلى إيجاد قوات دولية لفض الاشتباكات الحربية المتوقعة بين شعبين أعصاب كل منهما فى توتر ، ولكنها أخفقت فى مسائل أخرى كمسألة كشمير فى القارة الهندية ، بل جاءت قراراتها تأييدا للعدوان كما حدث فى المسألة الفلسطينية واقرارها مشروع التقسيم الذى ترتب عليه قيام إسرائيل المعتدية الغاصبة ، وتشريد الشعب الفلسطينى حتى اليوم ، وموقف مجلس الأمن من المسألة المصرية عام ١٩٤٨ حتى قام المصريون بحلها وتتويج الحل بمعاهدة الجلاء فى يوليو ١٩٥٤ ، وموقف الأمم المتحدة من الأمم المغربية الثلاث موقفا سلبيا مع أن الدول العربية قد وفقت فى إدراجها فى جدول أعمالها أكثر من مرة ، بل ان الأمم المتحدة لم توفق إلى حل مشكلة الفيتو (حق الاعتراض أو النقض) وهو مدرج فى ميثاقها ، فأية دولة من الدول الخمس الكبرى المؤسسة لها الحق فى أن تعترض على أى قرار تصدره الأغلبية متى تعارض مع مصالحها وكثير مثل هذا يقال عن عجز الأمم المتحدة عن تحقيق أهدافها التى نص عليها ميثاقها الإنسانى الذى أسلفنا ذكره[1] ...

(١) وإن كان من الانصاف أن نقول إن هيئة الأمم قد حققت نجاحا فى بعض القضايا والمشكلات ظهر هذا لأول مرة عقب الاعتداء الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦/١١/٢٢ إذا أصدرت الجمعية العامة قرارها التاريخى بأغلبية ساحقة بوجوب وقف إطلاق النار فورا ، وسحب القوات الأجنبية من الأراضى المصرية .. وبعد خمسة أيام أصدرت قرارها =

هذا ما كان من أمر مواثيق السلام فى أوربا المتحضرة ، فماذا كان من أمره فى الدول الإسلامية المتهمة بالتخلف .. ؟

المواثيق فى اتفاقية السلام مع المسلمين :

وضع الإسلام آدابا ألزم بها أتباعه من المسلمين عند فتح البلاد ومعاملة المغلوبين على أمرهم، فإذا أراد المسلمون غزو بلد دعوا أهله إلى اعتناق الإسلام أو دفع الجزية ، فإن فعلوا كانوا وسائر المسلمين سواء ، وقد جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوا عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله ، وإن لم يسلموا دعوهم إلى أن يسلموا بلادهم للمسلمين يحكمونها ويُبقوا على دينهم إن شاؤا ويدفعوا الجزية ، فإن قبلوا ذلك كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وكانوا فى ذمة المسلمين يحمونهم ويدافعون عنهم ، ومن أجل هذا يسمون أهل الذمة وإن لم يقبلوا الإسلام ولا الدخول تحت حكمه أو دفع الجزية ، أعلنت عليهم الحرب**» ، وأما المرأة والطفل والشيخ الفانى والأعمى والمقعد ونحوهم فلا يجوز قتلهم ، وأن طلب المحاربون صلحا أجيبوا إليه ، متى رأى الإمام ذلك ، ﴿**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها**﴾ ووجب إذ ذاك ـــ على المسلمين ـــ تنفيذ الشروط حسب ما تعاقدوا بأمانة ودقة .

فالإسلام أوجب على المسلمين من أتباعه معاملة المغلوبين من أعدائه بالحسنى ، وأن يكفلوا لهم حرية العبادة متى دفعوا الجزية ، وأن يتكفلوا بصيانة نفوسهم وأموالهم ومن يعولون ، وألا يحملوا لهم حقدا أو كراهية أو رغبة فى انتقام ، فإذا وقع المسلمون مع أعدائهم على اتفاقية سلام أو معاهدة صلح أو هدنة ، ألزم الإسلام أتباعه بتنفيذ كل بند من بنودها بأمانة وصدق واخلاص لأن الإسلام لا يجيز لأتباعه المراوغة أو الغش أو الخداع أو نكث العهود أو غيره من أساليب ملتوية كثيرا ما يتبعها الساسة من غير المسلمين كما رأينا من قبل .

= التاريخى بإنشاء قوة بوليسية دولية ترابط بين مصر واسرائيل ، وفى ١٩٥٧/١/١٩ أصدرت الجمعية العمومية قرارا جديدا تؤيده ٧٤ دولة بوجوب امتثال اسرائيل لقرار الانسحاب إلى ما وراء خطوط الهدنة .. وتدخلت كذلك بنجاح فى مشكلة الكونغو (١٩٦٠) وقبرص (١٩٦٤) ووقف القتال فى كشمير بين الهند وباكستان عام ١٩٦٥ .

ورب قائل يقول إن هذه هى المبادئ السامية التى فرضها الإسلام على أتباعه ، ولكن المهم هو تنفيذهم لها ، والتاريخ يشهد بأن المسلمين كانوا دائما أوفياء لعهودهم ، أمناء فى حياتهم مع أعدائهم قولا وفعلا .

وهل يريد القارئ شاهدا على صدق ما نقول أعظم من وثيقة يوقع عليها « الفاروق » « عمر بن الخطاب » وهو من القلائل فى تاريخ البشرية ممن يصدق فيهم القول بأن أقوالهم هى أفعالهم ، أى ليس ثمة هوة تفصل بين تفكيرهم النظرى وسلوكهم العملى ، ولعله بإيمانه العميق بتعاليم دينه يفوق هؤلاء جميعا فى هذا الصدد ، وبالرغم من أنه معروف فى التاريخ بأنه « الفاروق » أى الذى يفرق بين الحق والباطل ، أو العدل والظلم فإنه أشهد على نفسه فى وثيقة أربعة شهود عدول ، أما الوثيقة فكانت اتفاقية صلح عقدها مع رسل صفرنيوس أسقف بيت المقدس ونصها فى رواية الطبرى :

﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان : أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، أنه لاتسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من غيرها ، ولا من صليبهم ولا من شئ من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود ، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منهم الروم واللصوص ، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيتهم وصلبهم فإنهم على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض ، ومن شاء قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله ، وأنه لا يؤخذ منهم شئ حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله ، وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية وختم عمر الكتاب بتوقيعه وشهد عليه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان .

وهكذا كان عمر بن الخطاب مع قبط مصر ، أقرهم وأمنهم على أموالهم وأنفسهم وعقائدهم ، فلا يُضارّ أحد بسبب دينه ، ولا يكره على شئ فى أمره ، من شاء منهم أن يرحل مع الروم كان له ما أراد ، ومن شاء من الروم والأجانب المقيمين فى المدينة أن يظل بها بقى آمنا ، وليس على أهل المدينة إلا أداء الجزية لقاء منعهم وكفالة أمنهم ..

ولم يكن هذا كله غريبا على دين ورد فى قرآنه الكريم : حين قال : ﴿**لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى**﴾ ، أو حين قال : ﴿**وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**﴾ وفى المساواة بين المسلم والنصرانى واليهودى قال تعالى : ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا**﴾ (أى الذين اعتنقوا اليهودية والنصارى والصائبين) من لا دين لهم أو من يعبدون الملائكة أو يدينون بالتوحيد وليس لهم كتاب ولا نبى) **من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ البقرة ٦٢ .

هكذا كانت مواثيق السلام واتفاقيات الصلح التى يعقدها المسلمون مع أعدائهم ممن غلبوا على أمرهم ، فأين هذا بالله مما كان يقع من ساسة أوربا فى مثل هذه المواثيق .. ؟ ويبدو أن مرد هذا التفاوت العجيب إلى أن المسلمين قد التزموا بتعاليم دينهم ، بينما إنصرف ساسة أوربا عن دينهم الذى يتضمن مقومات روحية وأخلاقبة لا تخفى .

الباب الثانى

مسيرة الحضارة الأوربية الحديثة

مقدمة فى حضارة العصور الوسطى فى أوربا ــ النهضة الأوربية الحديثة: ممهدات النهضة ومميزاتها ــ الإصلاح الدينى فى عصر النهضة ــ الفلسفة ــ عصر الكشوف الجغراقية ــ فضل العرب المسلمين فى الريادة والكشف ــ العلم فى عصر النهضة ــ عودة إلى الفن فى عصر النهضة ــ تقييم عصر النهضة ــ امتداد النهضة إلى القرن السابع عشر ــ الحضارة الأوربية فى القرن الثامن عشر ــ الحضارة الأوربية فى القرن التاسع عشر. الحضارة الأوربية فى القرن العشرين .

ليس من هدفنا ان نؤرخ الحضارة فى كل عصور التاريخ ، إنما يعنينا فى هذا الحديث أن نكشف عن أهم الخصائص التى تميز الحضارة وهى فى قمة ازدهارها ، ولما كانت أوربا قد عاشت قبل نهضتها الحديثة نحو ألف عام فى جهالة وتخلف بالقياس إلى ازدهار حضارتها بعد نهضتها الحديثة فقد آثرنا أن نبدأ حديثنا بمسيرة التقدم الحضارى الحديث منذ بدء النهضة الاوربية الحديثة .

ومع هذا فإن من المؤرخين من يرون أن العصور الوسطى لم تخل من معالم الحضارة وممهداتها ، ولهذا وجب أن نمهد بكلمة عن :

مقدمة فى حضارة العصور الوسطى فى أوربا :

يتخذ المؤرخون فى العادة حادثة تاريخية معروفة نهاية لعصر وبداية لعصر جديد ، وقد رأوا أن استيلاء القبائل الجرمانية المتوحشة على روما عاصمة الامبراطورية الرومانية الغربية فى عام ٤٧٦ بداية للعصور الوسطى فى أوربا ، مع أن التدهور الحضارى فى أوربا كان قد بدأ قبل ذلك بقرون .

وامتدت العصور الوسطى حتى عصر النهضة الاوربية الحديثة فقيل أنها استغرقت نحو عشرة قرون من الزمان ، سمى نصفها الأول بعصر الآباء وكان عصر ظلام وجهالة وتخلف ، علما وفنا وفلسفة وأدبا .. وسميت القرون الخمسة التالية بالعصر المدرسى ،

وفيه بدت بوادر نهضة فى تكوين المدن وسطوة الملوك ونشأة القوميات الأوربية بعد ، بعد اضمحلال قوة الاقطاع وضعف البابوية ، لم تخل العصور الوسطى من مفكرين أشربوا روح البحث العلمى الصحيح ، كان منهم «روجر بيكون» + ١٢٩٢ ***Roger Bacon*** وليوناردو دافنشى + ١٥١٩ ***L.de Vinci*** وقد عرف أولهما بنزعته التجريبية التى استمدها من علماء العرب ، فاهتدى إلى الروح العلمية وطبقها فى بحوثه ، وجاهر بالدعوة إلى الملاحظة والتجربة دون الاعتماد على الكتب ، ولكن الكنيسة التى كانت تعتبر نفسها مصدر الحقائق كلها قد حرقت كتبه فماتت دعوته وهى وليدة . وكان ليوناردو دافنشى عالما مرموقا وإن غلبت شهرته كفنان حتى كادت تطمس نزعته العلمية .

وكانت الكنيسة ترى أن الكتاب المقدس يضم الحقائق كلها ، وأنها تحتكر تأويل آياته ، وبالتالى فهى وحدها مصدر الحقائق كلها ، وكل من ادعى بأن للحقائق مصدرا آخر اعتبرته الكنيسة مارقا ، وقد تسلمه إلى ديوان التحقيق ـــ أو محكمة التفتيش ***Inquisition*** ومن عمله أن يقوم باحراق المارقين والهراطقة أحياء .. ! ومع ذلك فقد عرف القرن الثانى عشر مفكراً استمسك بالعقل وآثر حكمه على نص القوانين الإلهية حكما فى كل شيء ، ذلك هو بطرس أبيلارد + ١١٤٢ ***Peter Abelard*** وقد قامت مناظرة بينه وبين الاب برنارد الذى انتصر للكنيسة وتعاليمها من غير مناقشة ، وطال أمد المناظرة واشتهر أمرها حتى شغلت المفكرين فى أوربا زمنا طويلا ، وكان طبيعيا أن تنتصر الكنيسة للاب برنارد وتهاجم ابيلارد وتحرم تعاليمه ... ونشأ عن ذلك الجدل قيام جامعات باريس وسالرنو وبولونيا فى ايطاليا ، واكسفورد وكمبردج فى انجلترا ... وجامعات أخرى فى فرنسا وايطاليا وأسبانيا ، أثناء القرن الثالث عشر ، أما فى ألمانيا فقد تأخرت نشأة جامعاتها حتى القرن الرابع عشر والخامس عشر ، وكانت الدراسة فى هذه الجامعات تسير على نمط الدراسة فى الأزهر الشريف فى مصر ، يجلس الطلبة على الأرض ملتفين حول أستاذهم وفى يد كل منهم نسخة من الكتاب الذى يفسره لهم جملة جملة ... وبامتحان الطلبة يعطى الناجح منهم درجة تخول له القيام بالتدريس . ثم ظهر من الفلاسفة توما الاكوينى + ١٢٧٤ ***Th,AQuinas*** وقد مثل مذهب أرسطو تمثيلا كاملاً ووفق بينه وبين العقيدة المسيحية ، وجاء مذهبه فى الفلسفة واللاهوت بين العمق

والسعة والأحكام بحيث اتخذته الكنيسة الكاثوليكية حتى اليوم مذهبا رسميا لها ...

بدأت هذه النهضة تزدهر فى أوربا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر بعد أقبال أوربا على الحضارة العربية الإسلامية ونقل تراثها إلى لغة العلم فى أوربا وكان ذلك فى صقلية وفى بلاد الاندلس وكان تحت حكم العرب — كما سنعرف ذلك تفصيلا فيما بعد .

وإن كان الباحثون الغربيون فى القرن التاسع عشر يردون بداية النهضة الحديثة إلى القرن الخامس عشر تقديرا منهم لفضل الادبيات اليونانية الرومانية القديمة ، وقد بدأت النهضة فى ايطاليا لأنها كانت مركزا مهما للتجارة بين الشرق والغرب ، ولاسيما بعد بدء الحروب الصليبية حينما ازداد اقبال اوربا على طلب نفائس الشرق ، مما زاد فى ثروة الايطاليين واستنارة أفكارهم ، فساعد ذلك على ازدهار الحركات العلمية والفنية والادبية .

وبعد هذه المقدمة نستطيع أن نتحدث عن مسيرة التقدم الحضارى فى أوربا مبتدئين بعصر النهضة الأوربية الحديثة .

الفصل الأول

أوربا فى عصر النهضة

تمهيد :

فى وسعنا أن نقسم هذه المسيرة إلى أربع مراحل ، تبدأ أولاها بالنهضة الاوربية التى قضت على الروح الدينية التى سادت العصور الوسطى ، ومهد لها القرن الرابع عشر وشغلت القرنين الخامس عشر والسادس عشر وامتدت مسيرتها إلى القرن الرابع عشر وشغلت القرنين الخامس عشر والسادس عشر وامتدت مسيرتها إلى القرن السابع عشر ، بكل ما حفل به من وضع المناهج التجريبية التى مهدت لقيام العلوم الفيزيائية أما المرحلة الثانية فقد شغلت القرن الثامن عشر الذى تميز بالانقلاب الصناعى العجيب ، وظهور أعلام عصر التنوير ، وقيام الثورة الفرنسية ، وأما المرحلة الثالثة فتشمل القرن التاسع عشر فى أوربا وأمريكا بما ضم من انقلابات صناعية وسياسية وإجتماعية واقتصادية وما حقق من تقدم علمى تكنولوجى أدى إلى مخترعات حديثة ضخمة ، وبلغ من قمة ازدهار الحضارة وما جعله الباحثون الغربيون فى عصره المثل الأعلى للتقدم الحضارى ، أما آخر مراحل تلك المسيرة الحضارية فتتمثل فيما نراه فى القرن العشرين من فتوحات العلم الفيزيائى والرياضى ، وما أدت إليه التكنولوجيا الحديثة من مخترعات يسرت حياة الناس فى مختلف قطاعاتها من ناحية ، وأثارت ذعر البشرية من ناحية أخرى بما توصلت إليه من آلات التخريب والتدمير وانذار البشرية وحضارتها بالفناء .. !! فلنقف عند هذه المراحل قليلا :

النهضة الأوربية الحديث : ممهدات النهضة ومميزاتها

كانت النهضة الأوربية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر بعثاً أو ميلاداً جديدا لم تقتصر معالمه على إحياء التراث اليونانى القديم ــ إذ مهدت لازدهار العصر ثورة أدبية جديدة بعثت الآداب القديمة من مرقدها ، وقد مثلها أول الأمر دانتى + ١٣٢١ *Dante* وبيترارك + ١٣٧٤ *Petraque* وبوكاشيو + ١٣٧٥ *J,Boceaccio* ممن مهدوا لكل الحركات الفكرية فى أوربا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وللنهضة الفنية التى صاحبت النهضة الادبية وأصبح فيها النقش والتصوير أداة مخاطبة

علمى، وكان يمثل هذه النهضة فى القرن السادس عشر، ليوناردو دافنشى+ ١٥١٩ وميكائيل أنجلو + ١٥٦٤ ورافائيل + ١٥٢٠ *Raphael* وكان من أهم ما ميز عصر النهضة إحياء النزعة الإنسانية *Humanism* التى تدعو إلى الاعتداد بالعقل ورفض الجمود والتقليد وتهدف خاصة إلى التخلص من سلطان الكنيسة وقيود العصور الوسطى مع إنكار الجسد والتعلق بالعالم الآخر ، وكان فى مقدمة روادها بترارك وارزم ، والاهتمام بالطبيعة التى أعقل شأنها مفكرو العصور الوسطى لفرط اهتمامهم بالعالم الآخر وما فيه من جنة ونار ، وهى نظرية صوفية تباعد بيننا وبين العلم بمعناه الدقيق كما يقول الاوربيون ، وبهاتين الميزتين اللتين أتسم بهما عصر النهضة نفر مفكرو العصر من زهد العصر السابق ، وردوا للعالم الطبيعى الواقعى اعتباره ، واتجهوا إلى الانتفاع بثروات الطبيعة والحرص على المكاسب الدنيوية .

واقترن هذا كله بالرغبة الملحة فى ارتياد الآفاق المجهولة من العالم وثرواتها الحقة ومن ثم كانت الكشوف الجغرافية التى بدأتها البرتغال وأسبانيا والتطلع إلى استعمار المناطق التى تتميز بالثراء ، وامتداد تأثير الحضارة الأوربية بخيرها وشرها إلى العالم بأجمعه ، وكان من أثر هذا أن أصبحت الأمريكتان ــ فيما بعد ــ ملحقتين بأوربا ، وأصبحت آسيا وافريقيا مناطق نفوذ واستغلال اقتصادى لأوربا ، وعانت هذه الشعوب من سيطرة أوربا أكثر من أربعة قرون ... وقبل أن ينتصف القرن السادس عشر أنشئت فى مدينتى بيزا وبادوا بايطاليا مدينتان نباتيتان الحقتا بالجامعات لأغراض علمية وتربوية ، وأدى انشاؤهما إلى تقدم ملموس فى تعليم الطب .

ولم يتضح مرض الزهرى جليا إلا فى عام ١٤٩٣ أو ١٤٩٥ ولم يصبح مرضا جماعيا وإجتماعيا قبل نهاية القرن الخامس عشر .

لكن أسوأ الأمراض كان مرضا ذهنيا ، هو الاعتقاد فى السحر والخوف منه ، وقد زاد اضطهاد السحرة من قوتهم الوهمية ، وقد أصدر البابا «إنوسنت» الثامن ١٤٨٤ منشورا حظر فيه رسميا ممارسة السحر ، لكن العلاج الحقيقى للغيبيات والسحر كان فى المعرفة والعلم التجريبى .

الإصلاح الدينى فى عصر النهضة :

كما تكشف عصر النهضة عن حركات للإصلاح الدينى ، وكان من المصلحين قساوسة شعروا بأن رجال الدين قد أساءوا بسلوكهم إلى الدين نفسه ، لانشغالهم بجمع المال وتدخلهم فى شئون السياسة ، وكان فى مقدمة المصلحين الراهب الألمانى «مارتن لوثر» + ١٥٤٦ *Martin Luther* الذى هاجم الكنيسة علانية لأنها تبيع صكوكاً مبكوكاً للغفران ، وطالب بتحرير الفرد وقدرته على الاتصال بربه دون وسيط من رجال الدين .. وامتدت حركته فى الإصلاح إلى كثير من الدول الاوربية .

وقد بلغت البابوية ذروة سلطانها فى عهد جريجورى السابع وانوسنت الثالث ، حتى قال ثانيهما أنه لا خلاص لإنسان فى العالم ما لم يخضع للبابا فأنا قيصر وأنا الامبراطور الحقيقى صاحب السيادة على جميع أمراء الأرض .. !!

ولكن ثورة مارتن لوثر قد هزت أرجاء أوربا وأدت إلى حروب طاحنة أكثر من قرنين .. !

ومن أسبق من عملوا على إصلاح الكنيسة «ارزم» + ١٥٣٦ إذ ادرك ما فى نسخة الإنجيل اللاتينية المتداولة من أخطاء فعمد إلى نشر النسخة اليونانية وعلق عليها بتفسيرات جديدة وشجع على تثقيف الناس بالادبيات القديمة ليتمسكوا بلب الدين دون ظواهره ... وفى سويسرا ظهر من المصلحين زونجلى + ١٥٣١ *Zwingli* وطعن فى صكوك الغفران ، ودعا إلى زواج القسس وإلى التعويل على الإنجيل دون تعاليم الكنيسة .. وفى فرنسا ظهر «كلفن» + ١٥٦٤ وآمن بالقضاء والقدر ، وقال إن الخلاص يكون بفضل الله ورحمته ولا دخل لعمل العبد فيه ، ودعا إلى ادماج السلطة الدينية فى السلطة المدنية وإشراك غير القسس معهم فى إدارة شئون الكنيسة ، وتخويل الشعب حق اختيار القائمين بها .

وعندئذ اتجه الكاثوليك أنفسهم إلى إصلاح الكنيسة الكاثوليكية وتطهيرها مما علق بها من ضروب الفساد وبدأت هذه الحركة فى منتصف القرن السادس عشر ، وساعد على هذا ظهور جمعية الجزويت أو اليسوعيين وإن بدأوا بمحاربة البروتستانتية ، وسرعان ما سيطروا على عقول الشباب بفضل مدارسهم المنظمة ولكنهم إتجهوا إلى الكسب

المادى وانشغل أعضاؤها بالتجارة فأصدر البابا قرارا بالغاء الجمعية سنة ١٧٧٣ م وقد عادت وتكونت من جديد عام ١٨١٤ ولها الآن معاهد فى بلاد كثيرة .

وفكرت الكنيسة فى طريقة سريعة لاستئصال شأفة البروتستانتية ، فأعادت تنظيم محاكم التفتيش *Inquisition* وكانت تستمد سلطتها من البابا مباشرة وكان قضاتها من رجال الدين المتعصبين للكاثوليكية ، وكانت تراقب المطبوعات والمدارس والكتب وحرق ما لا يتفق منها مع المذهب الكاثوليكى والتجسس على من يشتبه فى عقيدته والقبض عليه ومحاكمته فى جلسات سرية وتعذيبه بمختلف الطرق ، ويكون عقابه بإحراقه أو سجنه مؤبدا .. وقد جرت على الشعوب بويلات وأهوال .. ومارست أعمالها باسم المسيحية دين المحبة والتسامح .. !!

الفلسـفه :

أما فى الفلسفة فقد تميز عصر النهضة بفلسفة فلورنسا الأفلاطونية ، وهى خليط سطحى من أفكار غامضة لا قيمة لها إذا قورنت بفلسفة العصور الوسطى التى تتسم بالجمود ولكن بالأمانة ، وكان المشتغلون بالفلسفة فى الأغلب والأعم مقلدين يرددون الفلسفات القديمة ويتعصب كل فريق لمذهب من مذاهبها . ومن هنا كان بينهم افلاطونيون ومشاءون ارسطيون ورواقيون وشكاك .. لم يضيفوا إلى الفكر الفلسفى جديدا .

وارتد عصر النهضة إلى العقل الذى كان يعتز بمنطقه اليونان قديما ، ومهدت فلسفة رواد الفكر الجديد لقيام العلوم الفيزيائية الحديثة ، فبإستثناء الحركة التى استهدفت إحياء الآداب والمذاهب اليونانية القديمة ، كانت ممهدات للعلم كما أشرنا من قبل .

عصر الكشوف الجغرافية :

وصف مؤرخ فرنسى عصر النهضة بقوله : أنه كشف للعالم وللإنسان ، وأراد بهذا ان يقول ان العقل فى عصر النهضة لم يحصر تفكيره فى الاهتمام بأمور الفردوس والجحيم ــ شأن الناس فى عصر الإيمان ــ العصور الوسطى ــ وإنما أخذ الناس فى ذلك العصر يهتمون متحمسين بالعالم المباشر من حولهم ، إلى جانب أنهم تحولوا إلى

التفكير فى الشئون الدنيوية ، أما اللاهوت وفلسفة العصور الوسطى فقد أصررنا على الاستمرار ابتغاء الحفاظ على السيادة ، لكن الرجل العادى فى عصر النهضة كان مستغرقا بتجربته الشخصية وأساليبه التجريبية دون أن يأبه بالعالم الآخر الذى لا يعنيه أمره .

ويوحى كلام ذلك المؤرخ بأن عصر النهضة هو عصر استكشاف لأراضٍ وشعوب جديدة كانت إلى ذلك العهد مجهولة للناس ، لكن عصر النهضة قد ميزته روح الجرأة والمخاطرة مما شجع على التعرف على بلاد مجهولة تتوق أوربا إلى معرفة أحوالها ، وفيما بين عامى ١٢٥٠ و ١٥٠٠ اتسع نطاق المعرفة بتلك البلاد حتى تجاوز كل ما أنجزه الإنسان قبل عصر الاستكشاف وبعده ، ومن المحقق أن تقدم الكشف والريادة وما صاحبه من اتساع أفق الفكر يشكلان إحدى الظواهر العامة لعصر النهضة ، فكانت بداية حركة الكشف والريادة فى الحملات الصليبية — كما سنعرف عند الحديث عن الحرب الصليبية .

وفى القرن الثالث عشر لم تأت حركة الريادة والكشف من جانب التجار أو الغزاة أو حتى المغامرين ، بل من جانب الاخوان الفرنشسكان ، وقد بدأت الحركة «فردنسزاسترى» + ١٦٢٦ وهو مؤسس جماعة رهبان الفرنسيسكان وقد برز شأنه فى عهد الصليبيين وكان يحب البشر جميعا حتى الكفار والمارقين من تلاميذه من المبشرين ١٠٠ وأمد هؤلاء أوربا بمعلومات قيمة عن البلاد والشعوب التى تقوم وراء الحظيرة المسيحية .

وتوالت بعد ذلك بعثات استكشافية وتبشيريه إلى الشرق الأقصى وغيره ، وزادت كثيرا معرفة أوربا بآسيا وافريقيا خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

واذا كان القرنان الثالث عشر والرابع عشر عصر الريادة والكشف بطريق البر ، فقد كان القرن الخامس عشر عصر الكشف البحرى الذى يعزى مجده فى المحيط الاطلسى إلى البرتغال فى شخص الأمير هنرى الملاح + ١٤٦٠ أول من جعل معارف أوربا العلمية تعود إلى حركة الإستكشاف الحقيقى ، مع أن المحيط الاطلسى كانت الرحلة فيه هولا وعناء لا يدانى ، وذلك بسبب ديدان البحر الصغيرة التى تثقب الواح السفن فى اسفل خط الماء ، إلى جانب مرض الاسخربوط الرهيب ، وغير ذلك من مخاطر، أهمها العائق

الروحى وهو إيمان الملاحين بالغيبيات وما تملأ عقولهم من مخاوف غامضة مردها إلى الجهل والسذاجة .

وكان من كبار الملاحين خرستوفر كولمبس الذى كشف أمريكا ١٤٩م .

فضل العرب المسلمين فى الريادة والكشف :

ويؤكد المؤرخون الغربيون إن الريادة والكشف الاوربيين فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر يدينان دينا لا يقدر إلى أعمال الريادة العربية الإسلامية ، والخرائط التى رسمها العرب المسلمون ، وإلى العلوم العربية الإسلامية فى العصور الوسطى ، ويقولون أنه كان من المستحيل إنجاز الرحلات السالفة الذكر بغير تقدم أوربا فى الرياضيات إبان تلك القرون ، لأن هذا مكن الملاحين من الاستعانة بأدوات ملاحية دقيقة ، إلى جانب براعة العرب المسلمين فى بناء السفن ، وقد أمر الخليفة المأمون بترجمة مؤلفات بطليموس الجغرافية وقاس بنفسه خط الزوال ، ووصف هذه العملية أبو الفداء ـــ ١٣٣١ فى المختصر فى تاريخ البشر وتقويم البلدان ، وأشار فى مقدمته إلى الجغرافية الرياضية ، وترجم كتابه إلى اللاتينية كما ذكر ابن المصرى ـــ ١٠٠٩ م وهو من مشاهير الرياضيين والفلكيين ، بل ربما كان أعظم فلكى ظهر فى مصر ، وكان من مؤلفاته الكريح الحاكمى ، إلى جانب أنه برع فى المثلثات وحل فيها مسائلٌ غاية فى الصعوبة ، وبرز أبو الحسن الفلكى ، وصنع الساعات الشمسية ، بل وفق فى تعيين خطوط الطول والعرض لمائة وخمسة وثلاثين موقعا فى الأندلس وشمالى أفريقيا ، وتفوق كثيرا على بطليموسٍ فى دقة تقديراته ، وكان أكبر خطأ له فى تقدير خط الطول هو أربع درجات واثنتا عشرة دقيقة فى حين أن خطأ بطليموس يقدربثمان عشرة درجة . ولكن تقديره لطول البحر المتوسط كان صحيحا لا يتجاوز الخطأ فيه اثنتين وقد شيد نصر الدين الفلكى ت ١٢٧٤ مرصد مراغة وأنشأ مكتبة نادرة وكتب كثيرا فى المثلثات والهيئة والجبر ، وانشأ الاسطرلاب وابان عن كيفية إستعماله ، وكانت خطوط عرضه غاية فى الدقة فى عصر لا توجد فيه اداة لقياس الوقت بالدقة وفى كل هذا كان من مراجع الاوربيين .

وبلغ المسلمون فى العصور الوسطى من السيادة فى هذه المجالات مالم تبلغه دولة من دول الأرض ، واعتمد الاوربيون كثيرا على مراجع عربية إسلامية منها سجلات التجارة

ومدونات الرحلات ومذكرات المغازى وما كتبه التجار والحجاج . كما استمدوا كثير من معلوماتهم من المصادر المصرية والقبطية والفارسية واليونانية ، يقول الادريسى أنهم كانوا يستعينون بأدوات عربية منها الاسطرلاب والسماع والبوصلة .

وثمة ثروة من الكتب ألفها المسلمون الرحالة والجغرافيون بفضل بحارة العرب مع الهنود والافريقيين والصينيين ، فقصة السندباد البحرى استمدت أصلها من أصل عربى إسلامى ، وتعد رحلة التاجر سليمان السيرافى من أهم الاثار العربية فى الرحلات العربية فى المحيط الهندى وبحر الصين فى القرن التاسع كما يروى شاعرنا الأستاذ محمد بهجه الاثرى فى الجغرافيا عن المسلمين .

وقد عرفت أوربا كتب ابن خرداذيه (ت حوالى ٩١٣ م) وابن حوقل الذى عاش فى القرن العاشر وقد ألف كتابه «المسالك والممالك» ٩٧٧ بعد أن جاب العالم الإسلامى من مشرقه إلى مغربه نحو ثلاثين عاما ونشر كتابه فى ليدن (هولنده) ١٨٧٠ — ١٨٩٣ واعيد طبعه مرتين وكان المسعودى ت ٩٥٧ من أشهر جغرافى العرب ، وله مروج الذهب ، ومعادن الجوهر عن أحوال العالم الإسلامى ، والتنبيه والاشراف وذخائر العلوم وما كان فى سالف الدهور ... ثم الشريف الادريسى وقد تكلمنا عنه فى بلاط روجار النورماندى فى صقليه .

ويقول طومسون فى الفصل الذى عقده على الريادة والكشف فى حضارة عصر النهضة : أما القول بأن رسامى الخرائط من الاوربيين قد تعلموا فى مدرسة الرسامين المسلمين فواضح جدا فى خرائط اليد الملاحية التى كان يستعين بها الملاحون ... ويذكر خرائط لرسامين عالميين تأثروا فيها برسامى العرب المسلمين ..

وقد عرف البوصلة عند العرب منذ القرن التاسع ، ولكن أوربا لم تعرفها فى الملاحة إلا فى عصر النهضة ، وكان من المستحيل على سفينة أن تجتاز الأطلسى بغيرها ، وقد كانت آلة رقيقة جدا للاستعمال فى المناطق المعتدلة الاستوائية .

إن حركة الكشف فى عصر النهضة تمتد جذورها إلى اليقظة التى أدركت أوربا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر بعد إتصالها بالعرب المسلمين وكانت هذه حركة دينية تجارية سياسية علمية فى آن واحد ، ومن دلالات أهميتها أنها أحدثت فى أوربا إنقلاباً فى

أحوالها وأفكارها .. فطوبى لاولئك الذين اقتحموا أراضى غريبة فى ظل صعاب مادية ومعنوية بالغة ، أولئك الذين عانوا الحرمان والجوع ووهج الصحراء اللافح وفقر الهضاب الشاقة التى يقيم فيها المتوحشون ، وعصف الرياح الثلجية فى أعلى جبال هذه الأرض .. طوبى للذين راح الكثيرون منهم ضحية المغامرة القاتلة .. إلى اخر ما يقوله *James Westfall Thomson 1841* أستاذ التاريخ الأوربى فى جامعة كاليفورينا فى بحثه القيم عن الريادة والكشف فى عصر النهضة[1] .

العلم فى عصر النهضة :

كما صاحب ذلك نهضة عملية بدت فى الاتجاه إلى الطبيعة التى كان يعبر عنها الاديب والفنان والعالم ، واتجه العلماء إلى الاعتماد على الملاحظة والتجربة أداة للحقائق العلمية ، فألموا بكثير من أصول المنهج التجريبى الذى وضع أصوله بعد «فرنسيس بيكون» + ١٦٢٦ *Francis Bacon* فأعلن ليوناردو دافنشى أن التجربة هى ترجمان الطبيعة الوحيدة ، وأداة التوصل إلى القوانين العلمية وجاهر كمبانيلا + ١٦٣٩ *Campanella* أن العالم هو الكتاب الذى نقرأ فيه الحقائق بوضوح ، أما الكتب فمملؤة بالأخطاء والأكاذيب ، وأعظم من يمثل الروح العلمية كان مؤرخا وسياسيا هو نيكولا ماكيا فيللى + ١٥٢٧ *Machiavelli* الفلورنسى وكان ارهاصا لأكبر علماء القرن السابع عشر وهو جاليليو + ١٦٤٢ *Galileo* بل ان بارسلسوس + ١٥٤١ *Paracelsus* قد استهجن السلطة الدينية — الكنيسة — والسلطة العلمية — أرسطو — مصدرا للحقيقة ، كما بدت الروح الجديدة فى مجامع علمية منها مجمع اقامة فى نابلى تيلزيو + ١٥٨٨ *Telesius* للدراسات التجريبية ، وفى نشأة علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) على يد فيساليوس + ١٥٦٤ *Vesalius* وكشف هارفى + ١٦٥٨ للدوزة الدموية وفى رأى كوبرنيكوس + ١٥٤٣ *Copernicus* فى أن الشمس وليست الأرض كما زعم بذليموس — هى مركز الكون ، فلما أصبحت الأرض مجرد سيارة من سيارات الشمس أصبح من المستحيل على الناس أن يعتبروا الإنسان تاج الخليقة وبطل

(١) ترجم البحث مع غيره من بحوث الدكتور عبد الرحمن زكى وقد نشرها فى كتابه حضارة عصر النهضة (١٩٦١) .

الرواية الكونية كما كان الظن من قبل وغير هذا من اتجاهات علمية أدى إليها الانصراف عن التفكير فى الحياة الأخرى كما كان الحال عند مفكرى العصور الوسطى ، وعن الحياة العقلية النظرية الخالصة التى شغلت جمهرة فلاسفة اليونان ، وتوجيه التفكير إلى خدمة الإنسان فى حياة الدنيا كما ظهر هذا جليا فى القرن التالى خاصة عند « فرنسيس بيكون » واضع أصول المنهج التجريبى الحديث .

ومع ذلك فإن مؤرخ العلم « جورج سارتون » + ١٩٥٦ *G. Sarton* يقول أن عصر النهضة كان عصرا ذهبيا فى الفنون والآداب ولكنه كان عصرا مخيبا لآمال مؤرخ العلم ، أى أن مؤرخ العلم لا يجد فيه علما يستطيع أن يؤرخه .. ! ومحنته أن ممثلى الروح العلمية من أربابه كانوا من أرباب الحرف ولم يكونوا متفرغين للانشغال بالعلم ، ويقول ان هذا العصر وإن كان قد زعزع سلطان العقيدة إلا أنه استكان لسلطان القدماء ، وأن رجاله كان يقاومون كل ضروب الاستنارة العلمية .. ! وحسبهم أنهم استقبلوا بفتور وبرود أعظم كشفين علميين فى عصرهم ، وهما ، اختراع المطبعة ، والكشوف الجغرافية بل قال بعض المؤرخين أن من رجال القرن الخامس عشر من كان يتوجس من الطباعة .. ومن كان يخجل من أن يمتلك كتابا مطبوعا .. وإن إنتهى هذا الموقف بنهاية القرن الخامس عشر .

ولكن النهضة فى رأى سارتون قد اسهمت رغم هذا فى تقدم العلم ، وإن كان أهم ما أنجزته خارج الرياضيات قد تم على ايدى أرباب حرف أخرى ، فتأثرت كثيرا معارفنا فى الكيمياء والفيزياء ، وفى رسم المنظور وعلم التشريح تأثرا بالنماذج الكلاسيكية فى إعادتهم لاستكشاف جمال الجسم البشرى ، وحاولوا أن يفهموا بنية الجنس البشرى أو أن يعرفوا أوضاع العضلات السطحية والمفاصل، وكان أكثر هؤلاء ليوناردو دافنشى وهو أيضاً من أرباب الحرف وقد أصدر كوبرنيكوس مؤسس علم الفلك الحديث رسالة فى علم الفلك ١٥٤٣ ـ وهو وليوناردو وفيسالوس على عظمتهم لم يفتحوا باب العلم على مصراعيه، لكنهم تركوه مواربا ليزحف العلم الحديث منه وئيداً .

وكان « باراسلوس » مؤسس المدرسة الطبية الكيميائية الحديثة قد أصدر كتابا عن الأعشاب أولا عام ١٥٨٤ ، وفيه وصف باللاتينية مائة وخمسين عشبا وقد طبع منه

قبل أنتهاء القرن الخامس عشر ما لا يقل عن ست عشرة طبعة ... ومهد بذلك لعلماء من الالمان كانوا آباء علم النبات .

عودة إلى الفن فى عصر النهضة :

قلنا أن أهم الخصائص التى تميز عصر النهضة احياء النزعة الإنسانية ، والاهتمام بالطبيعة المحسوسة وفى هذا كان الفن فى ذلك العصر ، برز الاهتمام بالإنسان فى حياته اليومية دون أخرى بما ضمت من نعيم وجحيم وكانت العصور الوسطى توحد بين الطبيعة وما فوق الطبيعة ، ورفض ذلك عصر النهضة ولم يقبل إلا التفسير العلمى التجريبى للظواهر الطبيعية ، محاولا فهمها ووضع قوانين لتفسيرها توطئه للانتفاع بثرواتها ، فاصبح العالم المادى فى عصر النهضة لأول مرة الملهم الفريد لفنى النحت والتصوير .

وفى عصر النهضة أصبحت الفنون محظية الامراء الذين شيدوا القصور لأنفسهم وكانت هذه أكثر من الحصون ، وطلبوا الصور تلبية لاذواقهم وهيامهم النامى بحب الفنون والمنحوتات من أجل حدائقهم ، ثم أقبلوا اخيرا على صورهم الشخصية لتخليد أسمائهم وأشخاصهم للاجيال التالية ومن هنا استغل التصوير عن العمارة وكان هذا تغيرا عظيما واصبح التصوير الفنى السائد لأنه كان أدق الفنون فى التعبير عن عناية عصر النهاضة بالإنسان وبيئته .

وانجزت ايطاليا شيئين فى هذا العصر : حققت أسس الطبيعة وقواعد الفن ، وكان هذا أكبر منجزاتها الفنية وقد فسرت النهضة كل شئ لمصلحة الإنسان العادى والطبيعة المحسوسة .

تقييم عصر النهضة :

أثار تقييم الخلاف بين الباحثين من الغربيين والمحدثين والمعاصرين ، وبدأ الخلاف بين اعجاب مفرط واستخفاف سافر ، ومن أنصار الاتجاه الثانى «جورج سارتون الذى يقول : «ومن المهم أن نعرف أن رواد الفكر الجديد فى عصر النهضة قد ناقشوا سلطان العقيدة ، ولكنهم قبلوا سلطان القدماء ، ومزقوا القيود الثقيلة ولكنهم أبدلوا بها ما كان

أسوأ منها بكثير ، وهو الفوضى الروحية ، أخمدوا الفلسفة الاسكولائية لكنهم أحلوا مكانها مثلا أدبية غامضة ليس فيها غناء ، نظروا إلى الخلف وليس إلى الإمام ، أبا عوا شيئا كثيرا من الجمال ، وليس من الصدق الذى بدونه يستحيل كل شيء ، أستبدادا لا أمن فيه ، ومهما يكن هناك من الحرية فهو لا يتجاوز التمويه الكاذب ، وكان العلاج الوحيد الذى يكفل شفائهم هو الاستجابة المباشرة للطبيعة والعلم التجريدى ، الذى لم يفهم تماما إلا فى القرن التالى (١٧ م) ولهذا السبب الجوهرى لم يكن فى عصر النهضة نهضة علمية ، ولكن فترة تحلل وانتقال ، وان كان مرحلة ضرورية فى تطورنا ... كان عصر النهضة فترة تحلل كما كان فترة اعداد وتجهيز ، وهذا يصدق على أى عصر ، فتلك هى الحياة نفسها — هذا ما رآه «سارتون» بنظرته الضيقة لعصر النهضة .

وقد كان البابا والامبراطور قبل عصر النهضة — يقتسمان السيادة الدينية والسياسية فى العالم المسيحى ، ثم ظهرت روح قومية أيدت الملوك فى تخلصهم من سلطان الكنيسة ، وبدأ تقدم على يد ليوناردو دافنشى وميشيل انجلو ورافائيل كما أشرنا ،وبدأ تقدم اجتماعى بظهور الطبقة الوسطى بجانب الاشراف ورجال الدين ، وظهر التشيع لفضل الأدبيات اليونانية والرومانية ، ومن ثم الاتجاه إلى تعلم اليونانية وآدابها ، وساعد على هذا هرب علماء بيزنطة من اضطهاد العثمانيين إلى إيطاليا ومعهم نفائس مقتنياتهم اليونانية ، ومن هنا عرفوا أشعار هومير وفلسفة سقراط وافلاطون وأرسطو ، وروايات سوفوكليس وهندسة اقليدس وفلك بطليموس ، فكان هذا كله إيذانا بنهضة جديدة ، وساعد على هذا اختراع المطبعة فى منتصف القرن الخامس عشر على يد جويتنبرج ، فأحدث هذا الاختراع انقلابا حضاريا عظيما .

وتجاوزت النهضة حدود ايطاليا إلى سائر أوروبا ، وكان من أكبر آثار ذلك القضاء على الماضى والاستخفاف بالكنيسة واعلاء سلطان العقل ، بل أدت الروح الجديدة فى ايطاليا إلى نبذ الدين والاستخفاف بتعاليمه فكان التهتك والإباحة .

إن أغلب المحدثين من مؤرخى الفن يرون أن مفهوم عصر النهضة هو عصر الإنسانية تميزه روح جديدة تفيض بالحرية ، وشعور جديد بالفرد ، وواقعية جديدة فى تصور الطبيعة المحسوسة أى إحياء الاهتمام بالإنسان فى حياته اليومية بعد أن كان عصر الإيمان —

العصر الوسيط ــ يتوجه بالاهتمام إلى الجنة ، والجحيم والخلود ، ومن ثم كان الاهتمام بالزهد فى لذات الحياة ومباهجها ، فأصبح الاهتمام بالإنسان منكرا للزهد الذى ساد العصر الوسيط ، ومن هنا نشأ الاهتمام بطرق التفكير اللاهوتى والسلوك الدينى ، بل نشأ بالنزوع إلى التحرر من السلطة الكنسية واعتبار النزعة الإنسانية أساسا للنهضة الفكرية والعلمية .

ومن خصائص النهضة البارزة الاهتمام ، بالطبيعة المحسوسة وواقعها ، مما أغفلته العصور الوسطى لاهتمامها بالآخرة وما فيها من جنة وجحيم واعتبار الظواهر الطبيعية تجليات للنظام الآلهى ، فما كان من رواد العلم الجديد فى عصر النهضة هذا التصور .

وفى غمرة هذه الروح الجديدة نشأت الرغبة فى القيام بكشوف جغرافية سعيا وراء الثروات الخفية ، وسبق إلى هذا الاسبان والبلغاريون ، وتبعهم الانجليز والفرنسيون ، وانتشرت بذلك الحضارة الاوروبية فى الدول الجديدة فى العالم كله .

وكان من أهم نتائج النهضة منذ أواخر القرن الخامس عشر الكشوف الجغرافية شجع على هذا تقدم علم الفلك وتشبع العلماء بروح البحث والتنقيب واتصالهم بتراث العرب المسلمين ، وظهور مخترعات كالبوصلة والاسطولاب .. ومن هنا كانت رحلات ماركوبولو ، وهنرى الملاح + ١٤٦٠ وبرثلميوديار الذى بلغ رأس الرجاء الصالح عام ١٤٨٧ وفاسكودى جاما الذى طاف حوله عام ١٤٩٨ وتلت ذلك كشوف الأسبان وغيرهم من أمثال خرستوف كولمبس وماجلان .. وكان من آثار هذه الكشوف أن قضت الحروب والأمراض على أصحاب البلاد الأصليين .

ولا يمنع هذا من أن نقول ان كثير من الباحثين المحدثين والمعاصرين يرون ان عصر النهضة هو الذى امد عالمنا الجديد بأكثر مقومات حضارته الراهنة ، وكان مصدرا هاما من مصادر ثقافتنا ومدنيتنا فى عصرنا الحديث ، وأصحاب هذا الرأى اغتنقوه بعد دراسة واعية متبصرة ، ولعل فيما ذكرناه عن العصر ما يبرر ذلك .

امتداد النهضة إلى القرن السابع عشر :

إذا سايرنا البناء الحضارى فى إظهار معالمه بعد عصر النهضة الأوروبية الذى امتد إلى نهاية القرن السادس عشر ، كان علينا أن نتابعه منذ بدء العصور الحديثة فى مستهل القرن

السابع عشر ، حين أخذ يتسم بالروح العلمية والاعتماد على مناهجها التجريبية مع الرغبة فى توجيه البحث العلمى إلى خدمة الإنسان فى حياته الدنيا ، وقد تأدى هذا بالباحثين إلى وضع قوانين علمية وتطبيقها مما انتهى بما نسميه اليوم بالتقنية أى التكنولوجيا ، التى سيطرت بمخترعاتها الحديثة على حياة الإنسان وحضارته الراهنة .

وإذا كان البحث العلمى اساس التقدم الحضارى ، فإن التكنولوجيا هى السبيل إلى تحويل نتائج البحث العلمى إلى مواد وأجهزة ومعدات لاستخدامها فى الحياة العملية ، ونحن نعيش اليوم فى عصر التكنولوجيا ، وقد مضى العصر الذى ذهب فيه الاوربيون فى القرن التاسع عشر إلى أن التكنولوجيا لا توجد إلا فى أوربا الغربية ، ولهذا كانت هذه عندهم هى وحدها المتحضرة ، وعدل الباحثون الغربيون فى القرن العشرين هذا المفهوم فجعلوا التكنولوجيا تطبيقا للمعرفة المتاحة لأى شعب وبذلك أصبح لكل شعب حضارته وسيادته أن يكون متطورا إن لم يبلغ العصر الصناعى بمفهومه الضيق كما قلنا مر قبل .

ومسايرة للنزعة العلمية التطبيقية التى عرفت فى عصر النهضة ، أ ـ القرن ،سابع منذ أيام فرنسيس بيكون + ١٦٢٦ أن العلم لا يكون للزينة والابهة وإنم يجب أن يسخر لخدمة الإنسان فى حياته الدنيا ، وهكذا وضحت النزعة إلى ربط الفكر الحياة العملية .

وكان القرن السابع عشر بمناهجه التجريبية بداية موفقة لتقدم العلوم الطبيعية والفيزيائية وتطبيقاتها لتيسير الحياة عند الإنسان ، ومن دلالات هذا أن يتجه العلماء إلى كشف النظام الذى يقوم وراء الظواهر الطبيعية دون التجاء إلى الغيبيات والخوارق ، وتقدم الفلك من كوبرنيكوس إلى نيوتن + ١٧٢٧ صاحب قانون الجاذبية ، وكان جاليليو + ١٦٤٢ الذى كشف بمرقابة (تلسكوبه) المنظر الأرضى للقمر بجباله ووديانه ، وتوصل إلى قوانين سقوط الاجسام ، وبرهن على دوران الأرض بأدلة علمية ، واهتدى كبلر + ١٦٣٠ *Kepler* إلى قوانين حركة الكواكب ، وقد وضح كثير من قوانين الهندسة والجبر ، ومال مفكرو ذلك العصر إلى تحديد مناهج البحث العلمى ودعوا إلى إستخدام الملاحظة مع الاستعانة بالأجهزة والالات ، وآثروا الا ستقرار على القياس الصورى طريقا إلى معرفة الحقائق ، وقد قام تيخوا براهى + ١٦٠ *Tycho-Brahe* بأرصاد علمية عظيمة ، واستخدم الأجهزة العلمية فى ملاحظة الظواهر بكل دقة ،

واقترح امكان أن يكون الشمس والقمر يدوران حول الأرض ، بينما تدور سائر السيارات حول الشمس ، واهتدى كبلر ــ خليفة نيوتن ــ إلى قانون الجاذبية ، ومؤداه أن كل جزء فى المادة يجذب كل جزء آخر فيها بقوة تتناسب طرديا مع الكتلة ، وعكسيا مع مربع المسافة بينهما ، وكان هذا القانون نصرا مبينا : للمذهب الطبيعى ، وفى علم الحياة (البيولوجيا) كشف «هارفى» + ١٦٥٨ *W. Harvey* الدورة الدموية[1] .

وأما أهم المكتشفات فى الفيزيقا فكانت فى البصريات .. وقد سبق إليها من المسلمين الحسن بن الهيثم

وكان أكبر ما اداه القرن السابع عشر للعلم قد بدا فى تقدم الرياضيات واختراع الجداول الخوارزية[2] وقد كشف ديكارت الهندسة التحليليلة واخترع ليبنتز + ١٧١٦ *Leibnitz* و نيوتن حساب التفاضل والتكامل ، الذى كان أساسا لكل الكشوفات الرياضية التالية ، وفى ذلك العهد اخترع المرقاب (التلكسوب) والجهاز (الميكروسكوب) واختراع «جاليليو» الترمومتر ، واخترت تورشيلى + ١٧٤٧ *Toricelli* البارومتر سنة ١٦٤٣ واخترع «هيوجنيز» بندور الساعة .. وكل هذا مع تأسيس مجامع علمية لترقية العلوم الفيزيقية كان فى مقدمتها الجمعية الملكية بلندن ١٦٤٥ وأكاديمية العلوم الفرنسية ١٦٦٦ .. وبهذا وبغيره كان تقدم العلوم فى القرن السابع عشر ، وبداية تطبيقاتها لمصلحة الإنسان فى حياة الدنيا ، وهذه هى تكنولوجيا العصر ، التى تدين لها حاضرتنا الحديثة .

(١) أول من كشف الدورة الدموية هو العالم العربى ابن النفيس ت ١٢٨٨ م وترجم كتابه إلى اللاتينية عام ١٥٤٧ ونقلها عنه دون إشارة الجيه سرفينوس الأسبانى وكولومبو الايطالى وألبينو الايطالى ثم وليم هارفى الانجليزى وكشف الحقيقة طبيب مصرى هو د . محيى الدين التطاوى فى رسالة للدكتوراه فى ألمانيا وكان عمله كشفا علميا جديداً .

(٢) سموه خطأ باللوغارتمات .

الفصـــل الثـــانى

مسيرة الحضارة الاوربية
فى القرن الثامن عشر

أ ــ الانقلاب الصناعى العظيم ــ ب ــ عصر التنوير ــ جـ ــ الثورة الفرنسية .

يتميز القرن الثامن عشر فى أوربا بأنه شهد فى منتصفه مولد الانقلاب الصناعى العظيم الذى واصل سيره فى القرن التالى وفى القرن ١٨ كانت فى فرنسا فلسفة التنوير التى تمثلت فى حكرة فكرية أدت إلى ثورات إجتماعية وإقتصادية وسياسية ، وكان من ثمراتها فى أواخر القرن قيام الثورة الفرنسية التى كانت حدثاً فريداً فى أوربا كلها ...

وعلينا أن نتتبع هذه الأحداث العظيمة لأنها علامات بارزة على طريق التقدم الحضارى بشئ من التفصيل .

ا ــ الانقلاب الصناعى العظيم : ***(Industrial revolution)***

بدأ الانقلاب فى أوربا ثم شاع فى العالم المتمدين كله ، وكان إنقلابا لم يسبق له نظير فى تاريخ البشرية لأنه فاق كل ما أدرك العالم من تطورات منذ عهد قدماء المصريين حتى انفجار الثورة الفرنسية .

وكان من معالم هذا الانقلاب تقدم العلوم لإستخدام الآلات والأجهزة وظهور المخترعات الحديثة التى غزت المصانع والمزارع والمتاجر ودخلت حياة الناس فى بيوتهم وخارجها .

بدأ الناس حياة جديدة ، يصنعون بالآلات ما كانوا يضعـونه بأيديهم وأكتظت المدن بالمهاجرين وامتدت تجارتهم إلى البلاد الأجنبية وأصبحت مصانعهم تدار بالقوى الطبيعية بعد أن كان يديرها الإنسان بعضلاته ، كانت إنجلترا أول من نهض بهذا الانقلاب منذ منتصف القرن الثامن عشر ولمدة قرن كامل ، ولم تظهر عظمة الولايات المتحدة إلا فى الجيل الأخير من هذا القرن بمواردها الضخمة ، وسرعان ما أصبحت أعظم دول الأرض ثراء ، وأن ناهضتها الامبراطورية البريطانية .

بدأ الانقلاب الصناعى فى انجلترا ــ ومنها إلى الأمم الأوربية فسائر أنحاء العالم ــ وكان هذا فى منتصف القرن الثامن عشر ، وتمثل بدء الانقلاب فى ثورة على أرسطو ــ الذى كان يسيطر على الفكر الأوربى منذ القرن الثالث عشر حين وفق القديس توما الأكوينى + ١٢٧٤ ــ أعظم المشائين فى العصر المدرسى ــ فى التوفيق بين فلسفة أرسطو وقواعد العقيدة المسيحية فاتخذته الكنيسة الكاثوليكية ــ فى صورته التوماوية ــ مذهبها الرسمى حتى اليوم .. ! إلى أن ضاق بهذه السلطة التى شلت انطلاق الفكر الحر رواد الفكر الحديث فى عصر النهضة .

كانت الصناعات تؤدى باليد (*manufacture*) ويقوم الصانع مع أولاده فى بيته بصنع سلع يبيعها لأهل قريته أو مدينته ولكن فى منتصف القرن الثامن عشر أخذ أصحاب الأموال يستثمرون أموالهم فى الصناعة ، فيجمعون العمال فى مصنع فكان ذلك بداية لنظام المصانع الحديثة ونشأة الانقلاب الصناعى العظيم .

وكان الانتقال من الصناعة اليدوية المنزلية إلى نظام المصانع الحديثة فجائيا وسريعا فيما يقول أكثر الباحثين .

وكان أكبر مايميز ذلك الانقلاب إستخدام الآلة ــ ولا سيما الآلة التجارية (ـ) فى الصناعة والزراعة والتجارة ، لأنها أمدت الإنسان بقدرة مكنته من أن يتحكم فى الطبيعة ويزيد من إنتاجه الصناعى والزراعى ويمد مجال تجارة إلى الآفاق البعيدة ، وبعد أن كانت الزراعة هى المورد الرئيسى لثروة الأمم الأوربية ، أخذت الصناعة تحتل المكان الأول فى حياة تلك الأمم ، ومن هنا كان تحول بالغ الخطورة فى عالم الاقتصاد وكان مرجع الفضل فى نشأة هذا الانقلاب إلى ظهور مخترعات ــ بدأت فى انجلترا فى صناعة المنسوجات مع الانتفاع بقوة الماء ــ حتى اخترع جيمس وات عام ١٨٦٩ آلة تدار بالبخار وكانت لها آثارها البالغة فى معامل الغزل وكثر بذلك انتاج صناعة القطن ومنسوجاته من الصوف والتيل، وامتد هذا إلى صناعة التعدين وأشغال المناجم ــ وغيرها من الصناعات .

والمخترعات عامة تنشأ عن تطبيق القوانين العلمية مما يتمثل فيما نسمية بالتقنية ــ أى التكنولوجيا .

وقد نشأ التقدم العلمى فى حقيقته حين أتجهت البحوث العلمية الحديثة إلى إصطناع منهج تجريبى قوامه الملاحظة الحسية والتجربة العلمية ، مع حرص الباحثين على التزام موضوعية البحث *Objectivity* ــ بمعنى أن يدرسوا الشيء كما هو فى الواقع وليس كما يشتهون ــ ونزاهة الباحث *disinterestedness* التى تبدو فى تجرده عن الأهواء والميول والرغبات والمصالح والمعتقدات ، أى أنها تبدو فى إماتة الذات ***Self mortification*** ليتحرر من ضغط عواطفه وأنفعالاته ، وأهم ما فى هذا المنهج العلمى استخدام الآلات والأجهزة التى تعوض قصور الحواس ، وتمكن الباحث من أن يحول الكيفيات ــ الصفات التى لا تقاس ــ إلى كميات عددية ، توخيا للدقة والضبط ، إذ أصبحت اللغة الوحيدة التى يستخدمها العلم هو لغة الرياضة ــ أى التعبير عن نتائج دراساته وقوانينه تعبيرا كميا عدديا ، وقد سبق علماء العرب فى عصورهم الوسطى إلى هذه الظاهرة ، ومهد عصر النهضة الأوربية لهذه الروح العلمية ، وامتنع أن تنتهى الدراسات العلمية إلى نتائج ــ قوانين ــ تكون مجرد صفات كيفية يتعذر قياسها ، لأن العلم لا يعتد إلا بالقياس والوزن مما يعبر عنه بأرقام ، وبذلك تختفى من البحث العلمى العواطف والانفعالات والتحيزات مما هو مساغ فى الفنون والآداب .

ومن هنا تميز الانقلاب الصناعى «بالتوسع» فى إستخدام الآلة فى الصناعة والزراعة والتجارة منذ منتصف القرن الثانى عشر بوجه أخص .

وهكذا كانت أبرز خصائص الانقلاب الصناعى :

١ ــ أن أخذت الآلة مكان قوة الإنسان العضلية .

٢ ــ أن اخترعت سيارات زهيدة الثمن مع تحسن وسائل النقل وتمهيد الطرق .

٣ ــ أن انتشر استخدام التليفون ــ والسينما (التى لم تكن معروفة حتى عام ١٨٩٠ م) .

(وبدأ الاتجاه إلى اختراع الاذاعة فى القرن ٢٠)

٤ ــ أن ظهرت المرأة فى النشاط الاجتماعى وزاحمت الرجل فى مجالاته .

٥ ــ بدأ الاهتمام بالتربية والتعليم ونشر الثقافة العامة .

٦ ــ ازدياد اتصال الامم بعضها ببعض ولا سيما وأن الاذاعة اللاسلكية زادت من التعاون فى تبادل الأفكار .

ب ــ عصر التنوير : *The Age of Enlightenment*

بدأت فى القرن الثامن عشر حركة فلسفة تتميز بفكرة التقدم ورفض الثقة بالتقاليد والإيمان بالعقل والتفاؤل بالمستقبل ، والدعوة إلى التفكير الذاتى والحكم على الأمور إستنادا إلى التجربة الشخصية ، وتقابل هذه الحركة نزعة تتعارض مع نشر المعارف والأخذ بالمبادئ العقلية ، وتسمى هذه بنزعة التعمية ***Glsenrantion*** ، وكان رواد حركة التنوير يؤمنون بأن العلوم الطبيعية والرياضية تنمو وتتقدم ، وأن تطبيق دراستها عمليا يؤدى إلى ما نسميه بالتكنولوجيا التى تعد قوام الحضارة حتى أيامنا الحاضرة .

وكان رواد التنوير يستخفون بالماضى ويجاهدون لتقويض الحكم المطلق ويحاربون إنعدام المساواة بين الناس وعدم التسامح فى الشئون الدينية ، ويقاومون نظام الحماية فى عالم الاقتصاد ، فطالب الاقتصاديون بالحرية وتقويض القيود الصناعية والتجارية ، وهاجم السياسيون نظام الامتياز والحكم المطلق الذى يتعارض مع مبادئ الإخاء الإنسانى، ودعوا إلى الحرية والمساواة، وآمنوا بالعلم وجدوا فى استبدال الكنيسة بالمفكرين فى سعيهم لتحقيق السعادة للناس .

وكان أكبر الاقتصاديين كسناى + ١٧٧٤ ***Quesnay*** وأكبر السياسيين مونتسكيو + ١٧٥٥ وفولتير + ١٧٧٨ ***Voltaire*** وجان جاك روسو + ١٧٧٨ ***Rousseau*** فأما أولهم فقد هاجم الضرائب الجمركية والقوانين التعاونية التى لا تحمى البلاد من المنافسة الخارجية ، ولا ترشد العمال والصناع إلى واجباتهم .

وأما مونتسكيو فقد ضمن كتابه الرئيسى عن «روح القوانين» نظريته التى توجب الفصل بين سلطات الحكومة بهيئاتها الثلاث : التشريعية والتنفيذية والقضائية ضمانا للعدل ، وفيه أوجب أن تكون القوانين السياسية والمدنية ملائمة لجو البلد ونوع تربته وحقيقة موقعه ... ومتمشية مع الحرية التى يتمتع بها المواطنون وعقيدتهم الدينية ...

وأما فولتير أكبر أدباء فرنسا فى القرن الثامن عشر ، فإنه بأسلوبه الساحر قد

هاجم الملكية ونظمها لأنها لا تخدم مصالح الشعب ، وحارب بعنف مركز الاستبداد ، ونعنى به الكنيسة ـ إلى جانب الملكية الفاسدة ـ لأن الكنيسة كانت تهيمن على الحركة العلمية والتعليمية والدينية على السواء ، وقد تأثر فولتير كثيرا بالفلسفة السياسية عند جون لوك + ١٧٠٤ *J.Locke* الذى كان متفائلا بالحياة ومستقبل الإنسان ، ويدعو إلى حكم دستورى يختار فيه المواطنون حكامهم الذين أوجب عليهم العمل من أجل المصلحة العامة ، وإلا فقدت الحكومة شرعيتها أمام المواطنين ، وزاد فطالب بحرية المواطن فى القول والفعل مع ضرورة أن تكون السيادة للشعب ، وبقلمه الساخر كان أكبر رواد عصر التنوير وأعظم من أحدثوا التغيير الفكرى فى عصره ، وكان كغيره من مفكرى عصره معجبا بالتقنية (التكنولوجيا) التى حققت السعادة لمعاصريه ، وهكذا قضى فولتير حياته الطويلة فى الدعوة إلى الاستنارة بضوء العلم والعرفان ، والتنديد بالعقائد الدينية السائدة فى عصره ، إلى جانب أنه كان أكبر أنصار التسامح الدينى فى عصره .

وأما جان جاك روسو + ١٧٧٨ فقد كان بدوره أعظم الفلاسفة تأثيرا فى الثورة الفرنسية ، وكان مع إيمانه بالله ينكر المسيحية ، وفى كتابه «العقد الاجتماعى» وضع إنجيل الثورة حين قال إن الإنسان خلق حرا ومساويا لغيره فى الحقوق ، ولضمان هذه الحرية والمساواة انضم الأفراد بعضهم إلى بعض وأقاموا الحكومات لتعمل بإرادتهم ومن أجل مصالحهم ، مستمدة السلطة منهم ، فإن أخلت الحكومة بواجباتها فقدت شرعيتها ، وعندئذ يتعين على الشعب أن يعزل الحكومة وأن يقيم حكومة أخرى ، وكانت كتاباته تتميز بقوة العاطفة وحرارة الاسلوب وسلامة العبارة ومتانة الحجة ، مع أن الكثير من نظرياته كانت لا تساير وقائع التاريخ ولا تتمشى مع الطبائع البشرية .

وفى القرن الثامن عشر تصدت طائفة من العلماء الفرنسيين على رأسهم ديدرو لإصدار موسوعة من أربعة وعشرين مجلدا صدرت بين عامى ١٧٥٥ و ١٧٧٢ وكانوا يؤمنون بالعقل والعلم والحرية والتقدم ، تلك هى دائرة المعارف الفرنسية ، وشارك فى كتابة هذه الموسوعة فلاسفة التنوير فى التمهيد للثورة الفرنسية وقيادة المسيرة الحضارية ،

وكانوا ينظرون إلى انجلترا وما حققته فى مجال التقدم والحرية باعجاب ، فمنذ القرن السابع عشر حارب الشعب حق الملك المقدس فى خلافة الله على أرضه ، ودكت الثروة عرش الملكية وأقامت مكانها جمهورية يرأسها أوليفر كروميل ، وفر الكثيرون من أتباع الملك وبينهم توماس هوبز + ١٦٧٩ *Th.Hobbes* الذى أنتصر فى كتابه التنين *Levrathan* للملكية المطلقة وسلب أفراد الشعب حريتهم ، فعارضه خلفه الفيلسوف الإنجليزى جون لوك + ١٧٠٤ *J.Locke* فحارب دكتاتورية الملك وحقه فى التفويض الإلهى وانتصر لحرية الشعب وحقه فى الثورة حتى قصروا فى خدمته أو أوقعوا به ضررا .. ورفضت انجلترا فلسفة هوبز وشايعت فلسفة جون لوك ، ولا سيما فى الدعوة إلى قيام حكومة دستورية تكفل للإنسان حريته وتؤمنه على نفسه وماله ... ومن هنا كانت أفكاره المتحررة حلم فلاسفة التنوير فى فرنسا ـــ وفى مقدمتهم فولتير ـــ وتأثرت به ثورة الإنجليز عام ١٦٨٨ وانتفعت بفلسفته ثورة الامريكان فى مواجهة مستعمريهم من الإنجليز .

وفى انجلترا شارك لوك فلاسفة آخرون فى حركة التنوير التى نحن بصددها ، ولسنا فى وضع يتيح لنا أن نطيل فى الموضوع أكثر من ذلك ، فحسبنا ما أسلفنا من إشارات موجزة تبيانا للتقدم الذى مثله رواد التنوير ، والنور الذى ضاءوا به الطريق أمام المتطلعين للتقدم الحضارى .

جـ ـــ الثورة الفرنسية :

قامت فى صيف عام ١٧٨٩ وهزت أركان أوربا ، وأمتد أثرها إلى مشارق الأرض ومغاربها ، فاعتبرت أكبر حادث فى تاريخ العصور الحديثة ، وقد مهد لها فلاسفة التنوير فى فرنسا ـــ وقد أشرنا إلى كبارهم من مونتسكيو إلى فولتير وروسو ، وكانت أكبر معالم الثوره اقتلاع الأنظمة والمبادئ القديمة السائدة والتمهيد لإقامتها على مبادئ الحرية والاخاء والمساواة ، بالرغم من أن الثورة كثورة قد اقترنت بالتخريب والفوضى والظلم وسفك الدماء ، وكان ما ارتكبه روبسيير ودانتون ومارا كافيا لتقويض الآمال التى علقها الناس على الثورة ، وكثيرا ماأضيرت الحرية ممن كانوا يعملون لنصرتها ، وإنتهت الثورة ، بثورة أخرى فى ألمانيا أعلنها كارل ماركس ١٨٨٣ **Karl Marx** وفردريك

انجلز + ١٨٩٥ *Engels* فى بيان (مانيفستو) الحزب الشيوعى واحتلت القيادة طبقة العمال (البروليتاريا *Proletarians*) — وسار فى الركب لينين + ١٩٦٤ *Lenin* وستالين + ١٩٥٣ *Stalin* ثم ماوتسى تونج + ١٩ *Maotse tung* فى الصين الشعبية وغيرهم .

واستندت الثورة الفرنسية إلى نظرية صحيحة مؤداها أن كل مجتمع سياسى يدعى الحق فى حكم نفسه ، ومقاومة أى عدوان يقع عليه ، يستمد هذا الحق من نفسه وليس من حاكمه ، ومنذ النهضة الأوربية الحديثة أقتنع الناس بحريتهم فى أمور دينهم ، ورفض أستبداد الكنيسة بهم ، ثم تدرجوا من ذلك إلى الاقتناع بحريتهم السياسية التى بصرهم بها أمثال فولتير الذى دعا إلى تحكيم العقل ومحاربة الاستبداد الذى يقع من الكنيسة والحكام — كما قلنا من قبل ، ولا نغالى إذا قلنا ان انجلترا لم يكن لها منافس فى الصناعة منذ عام ١٧٦٠ م حتى القرن التاسع عشر ، وتلتها فرنسا وبلجيكا فى وقت واحد ، وإن كانت الأخيرة هى الدولة الوحيدة التى سايرت انجلترا صناعيا فى النصف الأول من ذلك القرن ، وأصبحت ألمانيا دولة صناعية فى الربع الأخير من القرن لافتقارها إلى الوحدة السياسية وقيام الحواجز الجمركية وتعرضها لكل الحروب الاوربية ، وقد ساعد على نهضتها الصناعية ولا سيما الكهربائية والكيميائية تقدم العلوم الفيزيائية ، ولهذا سيطرت ألمانيا على الاسواق العالمية فلم ينته القرن التاسع عشر حتى كانت فى مقدمة الدول الصناعية .

وفى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ظهرت الولايات المتحدة كقوة صناعية كبرى ، بعد أن كانت قبل الحرب الأهلية دولة زراعية ، وبعد كشف المواد الطبيعية الهائلة — كالحديد والفحم والبترول — ساد نظام الانتاج الضخم ، فتغير التوازن الاقتصادى بين مختلف الدول ، على هذا انتهت حضارة القرن الثامن عشر فى أوربا ، وتمثلت فى انقلاب صناعى بدأ بالثورة على الماضى — ممثلا فى أرسطو علميا ، وفى الكنيسة دينيا ، ومهد للانقلاب العظيم تقدم العلم وتطبيقه قوانينه ، ومن ثم كانت التقنية — التكنولوجيا — التى بدت فى مخترعات متتالية ، وكانت الآلة التى استخدمت فى المصانع والمزارع والمتاجر ، فأحدث انقلابا فى عالم الاقتصاد . وغيرت حياة الناس

وأحوالهم المعيشية . ثم اقترن هذا كله بحركة فكرية كان أكبر روادها فلاسفة التنوير ، وفى مقدمتهم مونتسكيو وفولتير وروسو وغيرهم ممن استخفوا بالتقاليد وآمنوا بالعقل وتفاءلوا بمستقبل البشرية ، وجاهدوا لتقويض الاستبداد ممثلا فى الكنيسة من ناحية ودكتاتورية الحكام السياسيين من ناحية أخرى .

وفى أواخر ذلك القرن انفجرت الثورة الفرنسية التى اقتلعت الأنظمة والمبادىء القديمة وأقرت مبادىء الحرية والاخاء والمساواة — مع ما صاحبها من ظلم وتخريب وفوضى وسفك دماء ... وفوق هذا بعثت النزعة الإنسانية التى أحيت الآداب اليونانية والرومانية القديمة ومهدت لكل الحركات العلمية والفنية الحديثة .

الفصـل الثـالث

مسيرة الحضارة الأوربية فى القرن التاسع عشر

أظهر معالم الانقلاب فى ذلك القرن وأسبابها ـ اظهر التغيرات فى ذلك القرن ـ أثر المخترعات الحديثة فى الصناعة ـ إزدهار الحركة الفكرية والفنية ـ من سؤات الانقلاب الصناعى ـ حركة الاستعمار .

اظهر معالم الانقلاب فى ذلك القرن وأسبابها

وللحديث عن القرن التاسع عشر نقول إن الإنقلاب الصناعى الذى أشرنا إلى أنه قد بدأ فى منتصف القرن الثامن عشر ، قد واصل مسيرته حتى إذا كان منتصف القرن التاسع عشر ظهرت طاقات جديدة فى الصناعة مع تقدم فى وسائل الاتصال ووفرة فى الانتاج تطلبت البحث عن أسواق جديدة لتوزيعه ، وكان من أظهر هذه الطاقات الجديدة ظهور الكهرباء والبترول ، ومن متغيرات الأولى إمكان أتساع نطاقها وسهولة استعمالها ونظافتها ــ بالقياس إلى الفحم ــ وتقدمت مع هذا طرق المواصلات من سكك حديدية إلى سفن بخارية ، فنشأت بذلك السوق العالمية ، وارتبطت بلاد العالم بعضها ببعض ، وتمثل هذا الإنقلاب فى انجلترا أولا ، مع أن انجلترا كانت من أكثر الأمم الأوربية تخلفا فى العصور الوسطى ، لكنها خرجت من حرب السنين السبع عام ١٧٦٣ وكل أحوالها تساعدها على تنمية صناعاتها ، إذ انتزعت من فرنسا مستعمراتها الهندية والأمريكية ، وكانت أسبانيا وهولنده وألمانيا لاتقوى على منافسة الإنجليز ولا سيما وأن أسطولهم البحرى قد كفل لهم السيادة على البحارة فى المحيطات ، وكان جوها ممهدا للرأسمالية الاقتصادية ، وكان أعظمها اختراع «جيمس وات» للآلة البخارية التى استخدمت وسيلة آلية للإتصال ، وتوالت مخترعاتها التى كانت نتـ[illegible]ـة للتقدم العلمى وتطبيقا لقوانينه أى التكنولوجيا ، وزاد من هذا بعد أنجلترا حن مشاكل الحروب الأوربية ، وإرتفاع أحوالها الاقتصادية ، ولهذا ظهرت فى أواخر القرن الثامن عشر مخترعات لآلات يسرت الصناعة ، بدت أولا فى غزل القطن باختراع جهاز عام ١٧٧٠ يدير عدة مغازل فى آن واحد ، وفى العام التالى اخترع جهاز جديد يدار بالماء ، ثم تحسنت

المخترعات حتى أصبح العامل الواحد يدير وحده اثنى عشر ألف مغزل ، وبذلك تراكمت الخيوط عند النساجين فاخترعوا آلة للنسيج عام ١٧٨٥ تدار باليد ثم أديرت بالماء ، ثم أخترع «وات» آلته البخارية التى تدار بالماء فاستخدمت فى الصناعة عام ١٧٨٥ وشاع استعمال البخار فى صناعة القطن والصوف والتيل ، وسرعان ما اخترع الصلب ورخص ثمنه ، فكثر صنع الحديد والصلب ، وتقدمت صناعة التعدين وتضاعفت مقادير المستخرج منه .

وكان مرجع الفضل فى قيام الانقلاب الصناعى إلى تقدم العلوم الفيزيقية والرياضية ، فأضاف القرن الثامن عشر إضافات فى دراسة الحرارة والصوت والمغناطيسية والكهرباء ، وكانت مفخرة القرن فى عالم الكيمياء أنه نظمْ العلم لأول مرة ، وتوصل إلى عدة كشوف إيجابية وفقد كثيرا من أخطاء الماضى ، وكان «لافوازييه» + ١٧٩٤ *Lavoigier* الذى وسع ونظم كل ما وصلت إليه الكيمياء إلى عهده ، ومهدت البيولوجيا (علم الحياة) لنظرية النشوء والارتقاء ، وكشف «بوفون» عن أدق بيان ، معروف إلى أيامه ، عن حياة الحيوانات وعاداتها وتوزيعها الجغرافى ، وإلى جانب ذلك كانت دراسة الحفريات والجيولوجيا عامة ، وكشف التطعيم الذى وضع أساس الطب الوقائى ، وأدت تطبيقات نتائج هذه الدراسات العلمية إلى ما نسميه اليوم بتكنولوجيا العصر . ومن انجلترا سار الانقلاب الصناعى إلى فرنسا وبلجيكا وألمانيا والولايات المتحدة ، وتحكمت أنجلترا بمصنوعاتها فى السوق العالمية حتى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، وأحدث هذا كله إنقلابا فى حياة الناس وأحوالهم المعيشية ، وعالمهم الاقتصادى بوجه أخص .

ويشهد التاريخ بأن القرن التاسع عشر يتميز بانقلابات خطيرة ، وقد قيل إذا اعتبرنا القرنين الرابع عشر والخامس عشر هو عصر النهضة الأوربية الحديثة ، والسادس عشر والسابع عشر هو عصر الإصلاح الدينى ، والثامن عشر هو عصر الإنقلاب الصناعى والنزاع الاستعمارى فإن القرن التاسع عشر هو عصر الإنقلاب السياسى والاجتماعى والاقتصادى وهو انقلاب خلق أوربا خلقا جديدا ، وبعث فيها القوة والحيوية ، ففى هذا القرن انتصر مبدأ الديمقراطية وسيادة الشعوب ، وزادت قوة الرأى العام ...

وصاحب ذلك استمرار الانقلاب العظيم فى الصناعة والزراعة والتجارة باستخدام الآلات البخارية ، ثم الكهربائية مكان الأيدى العاملة ، والاستعانة بالمخترعات الحديثة لتحسين الانتاج الصناعى والزراعى مما أدى إلى انقلابات إجتماعية واقتصادية غيرت معالم العصر ، ومن أعظم هذه التغيرات اتساع نطاق التجارة وازدياد حركة البيوت المالية ، وأزدهار الآداب والفنون والعلوم ، واهتمام الحكومات بالصحة والتعليم والمساكن ، وتحول السلطة من أصحاب الأراضى إلى أيدى ممولى الصناعات ، مع بدء الصراع بين العمال وأصحاب الأعمال ، وازدياد الفوارق الاجتماعية والاقتصادية ، بعد تكدس الأموال فى أيدى بعض الأفراد مما ولد الأحقاد والضغائن وأدى إلى أنتشار مبادىء الاشتراكية فى كثير من دول الأرض ، وفى هذا القرن أشتدت الرغبة فى الاستعمار لفتح أسواق جديدة والإستئثار بمناطق المواد الأولية فى الصناعة ، وشمل التعليم كل الطبقات ، وانتفع بهذا أصحاب المواهب والكفاءات من الفقراء . وكان من نتائج التقدم الصناعى وأزدياد المنافسة التجارية أن تغيرت آلات القتال وازدادت قوتها فى التدمير والتخريب . وشاهد القرن تقدما عظيما فى وسائل الإتصالات من البرق والبريد والتليفون السلكى واللاسلكى ، مع تقدم فى وسائل المواصلات البرية والبحرية .

وكان مرجع الفضل فى هذا التقدم الحضارى إلى تقدم العلم وتطبيقاته ، إذ واصل الفلك تقدمه بعد القرن الثامن عشر مستعينا بالتصوير الشمسى الطبيعى ، واكتشف السبارتيون عام ١٨٤٦ فتأيدت بذلك أصول الفلك النيوتونى ، وعرف هذا القرن بالدقة بعد الشمس عن الأرض ، ثم كان الكشف الطبيعى للتركيب الكيماوى للأجرام السماوية ، وأكتشفت فى مجال الرياضة الهندسية غير الاقليدية ، وكان من رواد هذا الفرع جاوس ***Gaus*** وبولياى ***Bolyai*** ولوبانشفسكى ***Lobatchvsky*** وريمان ***Riemann*** ، وبدأ تقدم ملموس فى الفيزيقا عند ماكسويل ***C.Maxwell*** وهرتز ***Hertz*** واينشتاين ***Einstein*** . ومثل هذا كان فى تقدم الدراسات الكيميائية عند ديفى ***Davy*** وفاراداى ***Faraday*** ودالتون ***Dalton*** وغيرهم ، وكان التقدم الرائع فى علم الحياة (البيولوجيا) وهذا بالضرورة هو عصر النشوء والارتقاء ، ونشير مع هذا إلى جهود باستير ***Pasteur*** فى مجال الجراثيم والبكتريا مما ساعد فى فن العلاج والجراحة ،

وامتد أثره إلى مجال الزراعة العملية ، ثم كانت نظرية التطور ـــ بعد بدايات علمية على يد روادها ، فظهرت فى وقت واحد على يد عالمين بارزين يعمل كل منهما على أنفراد ، أحدهما هو تشارلس داروين + ١٨٨٢ *Ch. Darwin* الذى قضى اثنين وعشرين عاما فى دراسة نشوء أنواع الحيوان بالانتخاب الطبيعى (من عام ١٨٣٧ حتى عام ١٨٥٩) حين أرسل إليه الفريد رسل والاس + ١٩١٣ *A.R. Wallace* دراسة للموضوع نفسه استغرقت عشر سنوات فى نشأة الكائنات الحية وتطورها فى ضوء قانون الانتخاب الطبيعى ، فقرأ داروين ملخص نتائج بحثه وذهل لأنها هى نفس النتائج التى توصل إليها بعد اثنين وعشرين عاما ... !!

أظهر التغيرات فى ذلك القرن :

وفى القرن التاسع عشر نشأت فى أوربا ـــ ولا سيما فى انجلترا وفرنسا ـــ الحركة الإنسانية التى تمثلت فى إلغاء الرق وتخفيف قانون العقوبات وانتشار مبدأ التسامح الدينى ، والاهتمام بالمعدمين والضعفاء ... فأما الرق فكان أول من دعا إلى إلغائه جماعة الكويكرس البرتستانتية فى انجلترا ، وأيدها من المفكرين وليرفورس *Welberfore* حتى حمل البرلمان الإنجليزى على منع الاتجار فى الرقيق عام ١٨٠٧ ـــ وأيدت ذلك الدول المنعقدة فى مؤتمر فينا عام ١٨١٥ لأن الرق يتنافى مع قوانين الدين ونواميس الطبيعة .. وأما قانون العقوبات الصارمة فقد جاء فى اعلان حقوق الإنسان بعد الثورة الفرنسية ، إذ قيل أن العقوبات يتعين أن تتناسب مع الجريمة ، وقلت عقوبة الاعدام ، وأختفت فى كثير من دول العالم ، وأطلقت مع هذا الحرية الدينية كحق من حقوق الإنسان .

وفى هذا القرن تقلص نفوذ الملكية ، وسادت الدساتير نظام الأمم المتدينة ، والنظام النيابى يقوم على مبدأ أساسه إشراك الشعب فى الحكم عن طريق نوابه الذين يستمدون سلطتهم من الشعب وحده ، وأصبح التعليم العام من ضرورات الحكم البرلمانى ، وأختفى عدم المساواة سياسيا فى الديمقراطيات الحديثة ، ولكن بقيت مع ذلك عدم المساواة فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، بل اشتدت عقب التقدم الصناعى فى القرن التاسع عشر ، إذ وجدت فيه ارستقراطية المال ، وطبقة العمال التى كانت أكثر طبقات الشعب تعرضا لأزمات الضنك والبؤس .

وفى النصف الأول من القرن التاسع عشر نشأ النظام الرأسمالى ودعا الاقتصاديون إلى اطلاق حرية الصناعة والتجارة ، وبظهور مخترعات الصناعة تجمعت وسائل الانتاج فى أيد قليلة وأرهق أصحابها العمال وخفضوا أجورهم ، بينما كان المبمولون ينعمون بثراء ضخم .

ونشأت المبادىء الاشتراكية ، لأن الحكومة — مسايرةً لمبدأ الحرية — قد نفضت يدها من الشئون الصناعية ، وتولت الاشتراكية بالنقد مبادىء الاقتصاديين فى الحرية ، بدعوى أنها تسببت فى تدهور الانتاج ، وفوضى الحالة الاقتصادية والاجتماعية ، وتطرق الاشتراكيون إإى نقد الرأسمالية التى تمنح الثراء لقلة من الممولين ، والفقر والبؤس لملايين الصناع المنتجين .. ومثل الاشتراكية فى فرنسا سان سيمون +أ ١٨٢٥ وفى انجلترا روبرت أوين + ١٨٥٨ ، وكان يعيب هذا التفكير أنه خيالى وليس عمليا ، ولكن الاشتراكية قد اصطبغت بصبغة عملية بعد ذلك على يد لويس بلان + ١٨٨٢ فى فرنسا وكارل ماركس + ١٨٨٣ فى ألمانيا ، فقال أولهما إن لكل إنسان الحق فى أن يعمل ، ومن واجب الحكومة أن تهب العمال المال الذى يتطلبه إنشاء مصانع أهلية يجنى منها العامل فوق أجره نصيبا من الأرباح ، وأما ماركس فقد دعا إلى امتلاك الأمة (الحكومة) لموارد الثروة (وسائل الإنتاج) **والتصريف** من أراض ومصانع ومناجم وسكك حديدية وبنوك ... حتى ينعدم النظام الرأسمالى ، وتوزع الأرباح على العمال بقدر نصيبهم فى العمل .

وتميز النصف الأول من القرن التاسع عشر بازدهار ملحوظ فى الآداب والفنون والعلوم ، فاهتمت الآداب بالتعبير عن الحياة فى كل مظاهرها ، وانصرفت عن الآداب اليونانية القديمة ، إلى أدبيات شكسبير وشيلر ، ووجهت عنايتها إلى القصص والنوارد التاريخية ، وخلجات القلوب وأحاسيسها ، وتخلصت الفنون من فن ونحت من القيود وارتقت الموسيقى ... أما تقدم العلوم فى ذلك العصر فكان أعظم وأجل شأنا ، إذ واصل تقدمه الذى كان عليه فى القرن الثامن عشر ، وازداد كثيرا بتطبيق قوانينه وازدهار التكنولوجيا التى أسفرت عن كثير من المخترعات الحديثة ، إذ تقدم العلم تقدما جاوز الآمال التى علقتها عليه الناس ، فزاد تطبيق الكشوف العلمية فى ذلك القرن ،

وتقدمت الصناعة وزاد الرخاء ... وأثر هذا فى ازدهار الحياة العقلية والأدبية ، وأصبحت العلوم الرياضية أداة للعلوم الفلكية والميكانيكية والفيزيائية ، وساعدت العلوم الفيزيائية على تكوين ميكانيكيين فى مختلف الصناعات ، ومتخصصين فى كل العلوم ، وظهرت كشوف عظيمة فى مجال الحرارة والكهرباء ، وأصبحت العلوم الكيماوية عاملا له خطره فى تقدم الصناعات الحديثة فوق تأثيرها البالغ فى العلوم الطبية ، وبدا التقدم كذلك فى علوم الحيوان والنبات والبكتيريا ، وبهذا كله تحققت حضارة مزدهرة تستند إلى مناهج البحث العلمى التى تقوم على الملاحظة الحسية والتجربة العلمية .

وقد كان تطور المجتمع الأوربى علميا وتكنولوجيا ذا أثر بالغ فى المجال الثقافى والاخلاقى لأن تقدم العلم وشيوع التكنولوجيا صرف الكثيرين من الناس عن التعويل على السحر ، والشعوذة وواكب ذلك الازدهار تقدم فى المبادىء التى تقوم عليها حضارة العصر ، فنشأ اتجاه إنسانى بدا فى الغاء استرقاق الإنسان مع تخفيف قانون العقوبات والتمكين لمبدأ التسامح لدينى ونشأة النظام النيابى كما أشرنا من قبل . ففى مطلع هذا القرن استخدم جورج ستينسون البخار فى تسيير قاطرات السكك الحديدية ، وفى سنة ١٨٠٨ سارت أول سفينة بخارية فى نهر هدسون عام ١٨٤٠ ، وبتقدم العلم ودقة قوانينه تقدمت الصناعة والزراعة ، وارتقت وسائل المواصلات ، فأحدث ذلك إنقلابا فى حياة الإنسان لم يسبق له مثيل ، وأخذ أصحاب المصانع والمزارعون يسعون إلى الانتفاع بالعلم ، وزاد من هذا اختراع التلغراف والتليفون والطيارات والغواصات والتصوير الشمسى وحفر المعادن وطلاؤها .

أثر المخترعات الحديثة فى الصناعة :

والملاحظ أن التقدم الذى أحدثته المخترعات الحديثة فى النصف الأخير من ذلك القرن فى سرعة إنجاز المصنوعات وتخفيض أسعارها بلغ مبلغا لم يكن يخطر لاحد على بال ، فأصبح متوسط ما تنجزه فتاة واحدة من قماش الشيت فى مصانع لنكشير بانجلترا يقدر بنحو ثلاثين ياردة يرميا ، وفى صناعة الأحذية صار الصانع الواحد فى مصانع أمريكا ينجز يوميا نحو ستمائة حذاء .. !! وبلغ ما صنع من آلات الخياطه فى الولايات المتحدة سنة ١٨٨٨ نحو ستمائة ألف اله ... ! ومع هذا قلت نفقات الإنتاج فى كثير من

الصناعات ، وبتقدم الآلات البخارية نقص مقدار ما تحرقه البواخر من الفحم إلى ربع ما كانت تحرقه فى منتصف القرن .. ومثل هذا كثير يشهد بالتقدم الرائع الذى حققته الآلة الصناعية فى ذلك القرن .. وأجتذبت المصانع فى المدن العمال والفلاحين من القرى ، فأهملوا الزراعة طلبا للمال المتوافر فى المصانع .

أزدهار الحركة الفكرية والفنية ودلالاتها :

كان من أعظم دلالات التقدم الحضارى منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر ، أزدهار الحركة الفكرية والفنية فى أوربا ، وتمثل هذا النشاط فى تقدم العلوم وأنتعاش الاداب والفنون ، وكان من أسباب ذلك تخصص العلماء فى فروع العلوم المختلفة ، مع ازدياد عددهم وأنقطاعهم للبحث وخدمة العلم ، وكانت الحكومات تقف وراءهم وتشجع نشاطهم ، من هنا ظهر فى فرنسا من الادباء شاتوبريان وفكتور هوجو والفريددى مسيو جورج ساند وبلزاك، وكان من علماء العصر لابلاس والكسندر توماس لامارك ، ومن شعراء الإنجليز ولترسكوت وتشارلز دكنز وفى فن المقالة تميز توماس كارلايك وماكولى ... ومن العلماء العلميين هرشل ومراد لاى ودالتون، وفى المانيا كان من الأدباء شيلر وجينى ومن الفلاسفه فشنه وهيجل ، وفى الموسيقى بيتهوفن ، ونضجت العلوم الفيزيقية والرياضية مع كشوف خطيرة فى الحرارة والكهرباء وفى العلوم الكيميائية والطبية وعلمى الحيوان والنبات .. وبهذا التقدم العلمى الباهر تميز القرن التاسع عشر .

وكان من أزدهار الحضارة الأوربية فى هذا العصر أن طبقت قوانين العلوم فكانت التكنولوجيا بمخترعاتها التى تمثلت فى الآلات والأجهزة التى دخلت المصانع والمزارع والمتاجر ، وغزت البيوت ، وأخترع الكهرباء وازداد الانتاج الصناعى والزراعى وفرة ، ورخصت الأسعار ، وبدأ التقدم العلمى خاصة فى العلوم الفيزيائية (من فيزيقا وكيمياء وطب وفلك وجيولوجيا) وعلوم رياضية .

ومنذ أوائل القرن التاسع عشر بدأ علم الكهرباء والمغناطيسية ، وتمكن العلماء من أعداد آلات دقيقة الصنع ساعدت على تقدم التصوير الشمسى والتليفون اللاسلكى ، وظهر علم الحرارة الذى مكن جيمس وات من أختراع الآلة البخارية ، ووضعت أسس

الكيمياء التصويرية ، واكتشفت أشعة أكس ، وكانت ثورة فكرية ننعم اليوم وغدا بأثارها .

من سؤات الانقلاب الصناعي فى ذلك القرن :

وهكذا كان الإنقلاب الصناعى الذى شهدته أوربا فى ذلك القرن انقلابا لم يسبق له مثيل فى تاريخ البشرية . ومع هذا نقول إن هذا الإنقلاب لم يكن كله خيرا وبركة فإن إستخدام الآلة الصناعية قد أدى إلى وفرة الإنتاج وبالتالى إلى انخفاض أسعاره ، وازدياد الطلب عليه ، واستغناء أصحاب المصانع عن كثير من العمال ، وتخفيض أجورهم وزيادة ساعات عملهم اليومى ، فتجمهروا وهجموا على الآلات والمصانع وحطموها ــ كما حدث فى انجلترا فى أوائل القرن التاسع عشر ، وهجر الفلاحون الأرياف واهملوا الزراعة وخفوا إلى المدن ومصانعها التى تدر المال والثراء .

وبتجمع العمال فى المدن نشأ لديهم التفكير فى حفظ حقوقهم ، ومن هنا نشأت نقابات العمال وفطن العمال إلى أن ثروات أصحاب المصانع قد نشأت عن كد العمال وعرقهم ، فطالبوا بحقهم فى الارباح ، ومن ثم نشأت فكرة المساواة بين الناس ، والغاء الرق ودخول المرأة ميدان العمل واتجه الاشتراكيون إلى هدم نظام التملك ، ثم شرع العمال فى المطالبة بحق الانتخاب ودخول المجالس النيابية .

وكانت الحكومات تشجع التصدير مع تقليل الاستيراد ، فتدخلت فى سير الصناعة تدخلا سيئا ، فقامت جماعة الفيزيوكانت ــ الطبيعيين ــ منذ منتصف القرن الثامن عشر ــ وطالبوا بحرية الصناعة والتجارة ، وعنهم أخذ هذا الاتجاه آدم سميث + ١٧٩٠ *A.Smith* فى كتابه عن «ثروة الأمم» فظهر مبدأ حرية التجارة أساسا للسياسة الاقتصادية .

وعانى العمال ــ وهم الكثرة الغالبة ــ الامرين فى عملهم المرهق فى المصانع ، إذ كانت ساعات العمل اليومى تتراوح بين ست عشرة وثمان عشرة ساعة يوميا .. !! دون عطلة أسبوعية غالبا ــ وان صدر عام ١٨٠٢ قانون يحدد ساعات العمال اليومى باثنتى عشرة ساعة ، وساءت أحوال العمال مع قلة أجورهم وسوء تغذيتهم وأرهاقهم

عصبيا ونفسيا ، وأهدر الممولون أدميتهم وإنسانيتهم حتى أصبح العامل فى نظرهم مجرد آلة تحتفظ بها طالما أمكن الانتفاع بها وإلا كان مصيرها المحتوم أن تلقى فى سلة المهملات .. ؟؟

هذه لمحة إلى حضارة أوربا الغربية فى القرن التاسع عشر، وكانت التكنولوجيا قوامها وفى غمرتها افتقدت الحضارة عناصرها الروحية والأخلاقية كما سنعرف بعد .

حركة الاستعمار :

قلنا أن عصر النهضة الأوربية بانصرفه عن الاخرة بجنتها ونارها ، قد اتجه إلى كشوف جغرافية لبلاد مجهولة كانت أوربا تتوق إلى معرفتها ومن هنا كان من المعالم المميزة للعصر تقدم الريادة والكشف الجغرافى وإن بدأت هذه الروح منذ الحروب الصليبية .

أما حركة الاستعمار فقد بدأت فى أواخر القرن التاسع عشر ، وتمثلت خاصة فى القرن العشرين كان الانقلاب الصناعى الذى عرفنا أنه بدأ فى منتصف القرن الثامن عشر باستخدام الآلة مكان عضلات الإنسان قد زاد الإنتاج وفرة ، فمست إلى إيجاد أسواق لتوزيعه بها ، ومنذ أواخر القرن التاسع عشر استندت رغبة أوربا فى استعمار البلاد الضعيفة رغبة فى نهب أموالها واستغلال ثرواتها وإذلال أهلها والإفادة من إنخفاض أجور عمالها واتجهت الاطماع إلى أفريقيا قبل الحرب العالمية الاولى واسيا ، منذ أن احتلت البرتغال مدنا كثيرة فى الهند واستعمرت هولندا ثغورا فى شاطىء اسيا وساعدت فى هذا المبشرون من الكاثوليك والبروتستانت لنشر تعاليم دينهم ومبادىء حضارتهم ، وشجع الاوربين على استعمار البلاد الضعيفة المتخلفة رغبة ملحة فى أوربا فى الحصول على المواد الخام المتوفرة عند الشعوب التى استعمروها .. وراء حركة الاستعمار كان أصحاب رؤوس الأموال ورجال الحرب وأعلام السياسة من القرنيين .

ولما كان الأوربيون يسعون إلى الحصول على المال وكنوز الذهب والفضة ، فقد اتجهوا إلى بيرو والمكسيك والهند وانصرفوا أول الأمر عن أفريقيا مع قربها منهم ، ولكن حركة الاستكشافات قد بدأت فى أواسط أفريقيا فى القرن التاسع عشر ، وقد أخذ فى الكشف عن منابع النيل لفيجستون + ١٨٧٣ (بعد ثلاثة وثلاثين عاما من جهود

اسكشافية فى أفريقيا) واستانلى الذى بلغ المحيط الاطلنطى عام ١٨٧٧ فتنبهت أوربا بعد ذلك إلى القارة المظلمة ، واتجه المبشرون إلى غزوها لنشر مذاهبهم الدينية وانصرف عنها أخرون ممن كانوا يسعون إلى نشر المدنية فى ربوع الأمم المتخلفة ، ومنع تجارة الرقيق من أبنائها ، وزاد الملوك ودهاقين السياسة فوجدوا فى أفريقيا مجالا لاستعمار أممها ، وسرعان ما تحولت حركة الاستكشاف إلى تنافس بين الدول الأوربية للاستيلاء على البقاع الافريقية بالمفاوضات وعقد المعاهدات .. وتزايدت مطامع الدول فى أفريقيا من انجلترا وألمانيا وإيطاليا وفرنسا والبرتغال ..

الفصل الرابع

مسيرة الحضارة الاوربية فى القرن العشرين

تمهيد فى دلالات التقدم الحاضر ـ شرور الحضارة الراهنة ـ رأى مفكرين غربيين معاصرين فى إنهيار الحضارة الأوربية الحديثة .

تمهيد فى دلالات التقدم الحاضر :

نقبل الآن على ذروة التقدم فى قرننا الحاضر ، لنرى أروع معالم التقدم العلمى والازدهار التكنولوجى ، مصحوبا بكل ما ضمت حضارته المزدهرة من نقائص ومعايب ، لنرى كيف خربت الضمائر وانهارت الذمم فى حضارة خلت من مقوماتها الروحية والاخلاقية .

تحررت أمريكا من الاستعمار الإنجليزى عام ١٧٨٢ م وظهرت كقوة صناعية عظيمة فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، وتزعمت مع ألمانيا الانقلاب الصناعى الاقتصادى فى القرن العشرين[1] ، وكان ذلك مرده إلى التقدم العلمى الباهر فيها وتطبيقاته التى بدت فى ازدهار التكنولوجيا ومخترعاتها الحديثة الرائعة ، واستعانت كلتاهما بمعاهد متخصصة فى متابعة البحث العلمى بأجهزتها وآلاتها الدقيقة ، إذ أسست الحكومة الألمانية أواخر القرن التاسع عشر المعهد الامبراطورى للابحاث الطبيعية والفنية ، وحذت حذوها الولايات المتحدة فأسست عدة معاهد لتطبيق قوانين العلم لمصلحة الصناعة وفى ظل هذا التقدم توصل القرن العشرين إلى اختراع الكهرباء ، وتقدمت منذ النصف الأخير من القرن الماضى صناعة الصلب وطرق المواصلات وصناعة الآلات البخارية واخترعت السيارات ، واستخدم البترول بدل الفحم ، كما اخترع المنظار والطائرة ، وانشئت خطوط جوية ربطت دول العالم بعضها ببعض ، واخترع الراديو والتليفزيون والسينما وتقدمت آلات الطباعة ...

وقد وفق إنسان القرن التاسع عشر والعشرين بفضل التقدم العلمى إلى أختراع الكهرباء بأجهزتها المختلفة واستخدام البخار بآلاته الحديثة ومن مخترعاته الرائعة

(١) وتبعتها اليابان والصين ، ثم تفوقنا عليهما فى بعض مجالات التقدم الحضارى .

كالتلغراف والراديو والتليفزيون والسينما والطيارات والمناظير والغواصات والتصوير الشمسى وحفر المعادن وطلائها وآلات الطباعة وغيرها من معجزات هذا العصر .

وبلغ من تقدم الطب فى الولايات المتحدة أن أعلنت أجهزة الأعلام فى أكتوبر ١٩٨٦ م أن الأطباء قد عرفوا بالأشعة أن طفلا عمره ثلاثة أشهر فى متانته خلل ينذر بموته كأخوة له من قبل ، فأخرجوا من رحم أمه ، وأجروا له جراحة فى المثانة وأعادوه إلى رحم أمه لتتم تنميته ، وولد الطفل فى موعده ولادة طبيعية ، وأنه الان حى يرزق .. !

بل كان فى مقدمة هذه المعجزات الكومبيوتر والإنسان الآلى ، وصواريخ غزو الفضاء وأطفال الأنابيب .. وصحب هذا كله خير كثير ، وشرور وويلات أكثر ، وتعقدت المسائل وعز التوصل إلى حلول لها ، وقد كثرت المؤتمرات العالمية التى تعقد المسائل وعز التوصل إلى حلول لها ، وقد كثرت المؤتمرات العالمية التى تعقد لحلها ، وينعقد كل مؤتمر وفى ذهن كل سياسى يحضره مصالح بلده ، دون مصالح البشرية فى مشارق الأرض ومغاربها ، ويتمثل إنجاز كل مؤتمر من هذه المؤتمرات فى تصريحات للمسئولين يعلنون فيها أنهم حققوا بعض الانجازات وسيواصلون جهودهم لحل باقيها .. ويتكرر مشاهد المسرحية وفصولها حتى يملها الناس ويفتقدون الثقة فى مستقبل البشرية التى تتعقد مشاكلها وتزداد ويلاتها سنة بعد أخرى ، ولهذا كله صداه فى كل دولة من دول الأرض على حده اليس هذا ما كان من مؤتمرات عقدتها الدولتان العظميان وهللت لها أجهزة الاعلام العالمية ، وبشرت الناس بما يستحق على يد ريجان رئيس الولايات المتحدة وميخائيل جورباتشوف زعيم الاتحاد السوفيتى توصلا إلى تحديد الأسلحة النووية ، ودفع أخطارها المتوقعة على البشرية كلها ...

وكشفت حضارة القرن العشرين عن وجهها الكالح وافتقارها إلى الحياء ، وانعدام القيم الاخلاقية من حياتها ، وزاد جرائمها فى إبادة الشعب المستعمرة وإذلال أهلها ، وعرفت تجارة الرقيق الذى جلبته من أفريقياوآسيا واستنزفت ثروات البلاد الضعيفة التى استعمرتها وقامت بالنهب والسرقة والقتل الجماعى . كما يحدث الآن فى بريتوريا جنوبى أفريقيا وكما حدث من قبل فى فلسطين ، واختفى الضمير وتلاشت القيم التى تعارفت عليها البشرية منذ أقدم العصور .

وأهل هذه الحضارة ماضون فى أختراع أشد الأسلحة فتكا بالإنسان وحضارته ويصحب هذا ما نراه اليوم من خراب الذمة وسقوط الهمة وموت الضمير واختفاء القيم الإنسانية العليا ، وحسبنا أن نذكر جرائم التفرقة العنصرية والصراعات الدينية فى الهند ، وفى ايرلندا الشمالية ولبنان ، وجرائم الاستعمار وغير هذا مما يكشف عن حضارة العصر فى صورتها البشعة الكالحة .

ولعل مما يتسق مع وجهة النظر التى تتبناها فى موضوع الحضارة الاوروبية الحديثة أن نعرض رأى ثلاثة من أبرز المفكرين الغربيين المعاصرين لهذه الحضارة .

رأى مفكرين غربيين معاصرين فى أنهيار الحضارة الأوربية الحديثة :

تمهيد ـ شهادة شبنجلر ـ شهادة شفيتسر ـ شهادة توينبى ـ طبيعة الإنسان المتحضر عند هوبز ـ إنسان العصر بين القوة والضعف ـ تعليق على حضارة العصر .

تمهيـد :

كان المفكرون الغربيون منذ عصر التنوير فى القرن الثامن عشر حتى أواخر القرن التاسع عشر يؤمنون بأن أوربا الغربية تواصل تقدمها العلمى وأزدهارها التكنولوجى ، ويسرفون فى التفاؤل بمستقبلها إلى حد أنهم كانوا يرون ــ حتى أوائل القرن العشرين ــ أن البشرية ــ ويقصدون أوربا الغربية بالذات ــ قد بلغت ذروة التقدم الحضارى الذى يمتنع إنتكاسه ، ويقولون أن العلم فى تقدمه المتصل كفيل بأن يقدم لمشكلات البشرية الحلول الملائمة ، وفى ضوء هذا التفاؤل المسرف أخذوا يرسمون صورا وردية للمستقبل الذى سينعم بالرخاء ، ويسعد بكل مظاهر التقدم الحضارى ... ذلك لأن التقدم المادى قد حجب عن عيونهم تدهور الحياة الأخلاقية وقيمها الروحية عند شعوب هذا العالم المتقدم .

ولكن من الفلاسفة والمؤرخين المعاصرين من فقد ثقته فى تقدم الغرب المتواصل ، ووجد من المبررات ما يسوغ له القول بأن الحضارة الغربية قد شاخت وفقدت مقومات حيويتها وأشرفت على مصيرها المحتوم ، بموت لايملك أحد أن يتصدى لمنعه أو ارجائه ...

لاحظ المفكرون منذ منتصف القرن التاسع عشر أن التقدم العلمى قد صاحبته الحروب بويلاتها وفظائعها التى استعانت بآلاته فى التدمير والتخريب ، وأنه لم يوفق إلى حل المشكلات التى يشكو منها الناس فأخذ التفاؤل يتضاءل منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وبدأ المفكرون يميلون إلى التشاؤم لأنهم افتقدوا الثقة فى التقدم العلمى ، وبدت بوادر هذا التشاؤم عند مالتوس + ١٨٣٤ فقد رأى أن البشر ينمو تعددوهم بأكثر مما تنمو موارد غذائهم ، وتوقع أن يسفر هذا عن أزمات اقتصادية تتمثل فى نقص الغذاء ، ومع أن نظريته قد تعرضت لنقد شديد إلا أن غيره من المعاصرين قد تابعوه فى تشاؤمه .

وحسبنا أن تتخير من هؤلاء ثلاثة أعلام : فيلسوفين ألمانيين ومؤرخ إنجليزى ، هم «أوزفالد شبنجلر» + ١٩٣٦ G.Spenglar والبيرشفينزر ***A.Schweilzer*** وأرنولد توينبى + ١٩٧٥ ***G.Toynbee*** :

(١) شهادة شبنجلر :

كان الرأى عند شبنجلر — كما بدأ فى كتابه : إنحدار الغرب (أى الحضارة الغربية) ***The Decline of the west*** — أن الحضارة — أية حضارة — تسير فى دورات مقفلة — وأنها تشبه الكائن الحى من حيث أنه يبدأ أولى مراحل حياته بالطفولة ، ثم مرحلة الشباب فمرحلة النضج فالكهولة فالشيخوخة التى تنتهى لا محالة بموت لا دافع له — أو تمر فى فصول أربعة ، ففى ربيعها تسود القيم الروحية المطلقة ويقتنع أهلها بالفلسفات المثالية ، ويهتمون بالتصوير والنحت ، ويلتمس مفكروها الإصالة ولا يتعلقون بالأخلاق النفعية ، ويرتبط أفراد الأسرة بروح الود والمحبة ، ويخضع الناس بمحض اختيارهم لأصحاب المواهب من الارستقراطين ، وفى شتاء الحضارة (أى فى شيخوختها) تسود الروح الدنيوية والمادية والنفعية ، وتصبح القيم التى يدينون بها نسبية وليست مطلقة ، وتضعف الروح الدينية وتشيع الفنون الحسية ، والقوانين الدينوية ، ولا يهتمون بالإصالة والإلهام ، وتتزايد الطبقية وتشيع روح القطيع وتسود الروح النفعية فى سلوك الناس ، ويأخذ الوصوليون مكان الارستقراطيين ويرتبط النفوذ بالثراء وبالتالى يظهر القياصرة والدكتاتورية والغوغاء .

وبتطبيق نظام الدورات على حضارة الغرب ، رأى شبنجلر أنها أخذت منذ القرن التاسع عشر تسير إلى الإنهيار ، وهو المصير المحتوم الذى لايملك أحد دفعه ، وكان شبنجلر يقدر عمر الحضارة ــ أية حضارة ــ بألف عام ويرى أن أخص ما يميز الحضارة الاوربية الحديثة هو ظاهرة القلق المقترن بالحركة التماسا لتحقيق غايات لاأمل فى تحقيقها ، إلى جانب إهتمامها البالغ بذاتها فى حاضرها ومستقبلها .

وكان شبنجلر يرى أن حضارة أوربا قد بلغت ذروة تقدمها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وكان الإيمان بسمو الحضارة فى ذلك العصر إلى ما حدث فيه من مكتشفات علمية وكشوف جغرافية ، وذلك مصحوب باستعمار وتخريب للحضارات الأخرى ، مع الإيمان بأن الأوروبين وحدهم هم البشر ... ومن عجب أن أعلام التنوير لم يستنكروا الفظائع التى ارتكبها معاصروهم .. !! والشعوب إذا نضجت حضارتها التمست المزيد من القوة والعلم والرخاء ، فإذا تحقق لها ذلك بدأت فى الانهيار .

وكان يضيق مع هذا بافتتان الاوربين فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بالعقل وتمجيد منجزاته ، ورجعا لهذا التيار رأى شبنجلر أن العقل هو الذى سيؤدى بحضارتهم إلى الدمار ... !

ويرى شبنجلر أننا نخطىء أن تصورنا أن هناك قيما أخلاقية تشترك فى اعتناقها كل الحضارات ، فلكل حضارة أخلاقياتها ، وفى الغرب تقوم الاخلاقيات على ارادة القوة ، بينما تتبع الاخلاقيات والحضارات الأخرى فكرة التعاطف والتطهير النفسى والتحرر من ضغوط الذات طلبا للنرفانا الهندية ــ ومؤدها ذهاب الحس والوعى وإنعدام الشعور بالنفس وبالعالم الخارجى مع فناء العبد ..[1] .

وقد تعرضت أراء شبنجلر لنقد شديد ، لأنه جاهر بأن انهيار الحضارة الأوربية يمكن أن يتأجل إذا تولى حكم البلاد رجل عسكرى يمتاز بالقوة .. وفى

---

(١) النرفانا الهندية تقابل فى التصوف الاسلامى الحلول ، والاتحاد ــ وان كان الفناء فى هذين فناء الذات وبقاء بالله .

غمرة كتاباته نجح موسولينى فى حكم ايطاليا ابان العشرينات ، فما كان من شبنجلر إلا أن بارك الحركة الفاشية وأثنى عليها ، وزاد فجاهر بأن الأمل معقود على الألمان الذين يستخلفون الانجلو ساكسون فى سيادة البشرية .

وبرغم هذا فإن الذى حدث هو أن هتلر والنازيين من ورائه قد نفروا من أفكاره ، فانصرفوا عنه ،.. بل إن بعض المؤرخين اتهموه بالسذاجة ، فمن ذلك أنه رأى أن الولايات المتحدة قد استهلكت وأنهكت قواها ، بينما الذى حدث أنها أصبحت بعد ذلك فى مقدمة أمم العالم قوة وعلما ورخاء ، وإن اعوزتها القيم العليا والمثل الإنسانية .

ومن غرائب أفكاره قوله أن الترف وانتشار التعليم والثقافة يقضى على الإصالة والابتكار ، ويضعف إرادة النضال فى الإنسان ، بل قد يؤدى إلى الفساد والإنحلال ، ثم هو فوق هذا لا يشعر قارئه بأى تقدير للاخلاقيات .

ومن مأخذ الافكار التى يبشر بها شبنجلر أنها أيدت الدكتاتورية و الطغيان ، وشجعت الناس على الاستلام للطغاه والمستعمرين والمستغلين ، ولا يستبعد أن يكون شبنجلر قد تأثر بفلسفة «نيتشة + ١٩٠٠ Nietzsche» الداعى إلى إردة القوة واحتقار الضعف واحترام القسوة ، والاستخفاف بالرحمة والدعة وانصاف الحلول ، وقهر المنافسين والسير على جثثهم فى غير رفق ولا رحمة .. إلى آخر ما إنتهى إليه بعد أن أعاد جدولة الفضائل والرذائل فهدم التصور التقليدى لمشكلة القيم الاخلاقية ، أملا فى أن يمضى بنا التطور إلى «السوبرمان» الذى تكون حياته خصاما لا هوادة فيه ، ومغامرة عنيفة لا تنقطع ، وآلما لا يثير فى نفسه ضيقا ... وليس الإنسان عنده إلا مواطنا عالميا يمثل صلابة الخلق وشجاعة الرأى ، ويمجد الالم والقسوة ، ويحتقر الدعة والصبر والتواضع والتعاطف ونحوه ... وقد أرجع القيم كلها إلى الإنسان فأكد الفردية ووطد الحرية ومكن للمسئولية وانتصر للذاتية .

وقد ظهرت نظرية التطور على يد تشارلس داروين والفرد رسل والاس سنة ١٨٥٩ كما قلنا من قبل وشدت النظرية أزر من قالوا بالتقدم الحضارى المستمر ، مع أن نظرية التطور فى صيغتها العلمية لا تقرر أن تطور الحياة يسير على الدوام إلى مزيد من

التقدم ، حتى لو كان هذا قانوناً تسير الطبيعية بمقتضاه ، فليس ثمة مبرر للقول بأن حياة البشر تجرى وفاقا له[1] ، ومع ذلك فقد قال بذلك «نيتشه» الذى أثرت أفكاره فى شبنجلر ، ذلك أن داروين قد إنتهى (فى أصل الأنواع ١٨٥٩) إلى أن أنواع الحيوان قد نشأت بالانتخاب الطبيعى آليا عن طريق التنازع على البقاء ، مع بقاء الاصلح منها ، وفى كتابه التالى عن «تسلسل الإنسان» (١٨٧١) أخضع الإنسان بدوره لقانون بقاء الاصلح ، بالتنازع على البقاء ، إلا أنه رأى أن يشفق من تطبيق الانتخاب الطبيعى على الإنسان ، خشية أن يقضى على أنبل جزء من طبيعته ، وهو الذى يقر التضحية والتشارك الوجدانى ونحوه ، ولكن نيتشه كان المفكر الوحيد الجرىء الذى طالب بتطبيق التنازع على البقاء فى مجال الأخلاق ، توصلا إلى الإنسان الأعلى فمكن بذلك لمبادىء القوة والكبرياء والأنانية .. لتأخذ مكان الطيبة والمسكنة وإنكار الذات ... فدعا إلى إرادة القوة واحترام القسوة واحتقار الضعف ، والاستخفاف بالرحمة والدعة وأنصاف الحلول إلى آخر ما أشرنا إليه من قبل .

هذه على أى حال هى شهادة شبنجلر على تدهور الحضارة الغربية وإنحدارها بعد أن بلغت شيخوختها ، وهذا هو بعض ما وجه إليها من نقد وتفنيد .. فلنعرض الان شهادة :

(٢) شهادة ألبير شفيتسر :

قيل إن الحضارة ـــ تتمثل فى الجهود التى يبذلها الإنسان لتحسين أحواله المعنوية والمادية فى حياته ، وقد رأى شفيتسر أن الحضارة تتمثل فى التقدم الروحى والمادى للأفراد والجماهير على السواء ، وقال شفيتسر فى كتابه عن فلسفة الحضارة «أن مقومات الحضارة فى جوهرها أخلاقية ، وهو قول يثير نفور أبناء هذا العصر الذين تعودوا على التعلق بالاعتبارات التاريخية والمادية والجمالية ، وهو مع تقريره للاعتبارات السالفة الذكر ، وما بلغه هذا العصر من تقدم فى النواحى الصناعية والمادية

---

(١) بدليل أن داروين نفسه قد قال ان الكائن الحى يمكن أن يبقى على حال دون تطور إذا لم تضطره ظروفه إلى الصراع من أجل البقاء ، مستشهدا بأن الدولة لا تكتسب أعضاء أكبر كما لا تقوم فى حياتها بصرع قوى تناهضها .

قد جاهر بأن جوهر الحضارة يتمثل فى مقوماتها الاخلاقية ، أما غير هذا فهو مجرد ظروف مصاحبة للحضارة ، 'لأن الأعمال المبتكرة فى المجالات الفنية والعقلية والمادية لا تكشف عن أهميتها إلا إذا استندت الحضارة فى بقائها ونمائها إلى استعداد نفسى يكون أخلاقيا .. وبتأثير المعتقدات الأخلاقية وحدها تتكون العلاقات فى المجتمع البشرى على نحو يسمح للأفراد والشعوب أن تنمو وتتطور بطريقة مثالية ، وإذا افتقدنا الأساس الأخلاقى تداعت الحضارة حتى لو تهيأت العوامل العقلية الخلاقة ... وهذه هى النظرة الأخلاقية التى سادت القرن الثامن عشر فى الصورة للحضارة .. ان حضارتنا تجتاز أزمة شديدة ليست الحرب العالمية سببها ، فإن الخاصية المروعة فى حضارة اليوم هى أن تقدمها المادى أكبر بكثير من تقدمها الروحى ، فالكشوف العلمية التى جعلت قوى الطبيعة تحت تصرفنا على نحو لم يسبق له مثيل ، قد أدت إلى تحسن أحوالنا المعيشية ، لكن حماستنا للتقدم فى المعركة ، جعلتنا نغالى فى تقدير الانجازات المادية مع اغفال العنصر الروحى فى الحياة ، والحضارة التى لا تنمو فيها إلا النواحى المادية دون أن يواكب ذلك نمو متكافىء فى المجال الروحى ، هى أشبه ما تكون بسفينة اختلت قيادتها ، ومضت بسرعة متزايدة نحو الكارثة التى سنقضى عليها لأن الطابع الجوهرى للحضارة لا تحدده إنجازاتها المادية ، تحدده تمسك الافراد بالمثل العليا التى تحقق كمال الإنسان وتحسين أحواله الاجتماعية والسياسية بوجه عام ، وليس العنصر الحاسم فى تقييم الحضارة هو ما إنجزته من منجزات مادية ، بل يتوقف مصيرها على كون الفكر يسيطر على الأحداث أو يعجز عن السيطرة عليها . .

ان شفيتسر يهاجم عصر الصناعة والآلية ، ويمجد العودة إلى الماضى حين كان الإنسان أوفر حرية واعمق شعورا بشخصيته ، مع أن شرور العصر الصناعى ليس سببها هو العصر الصناعى ، ولكن سببها هو اختلال نظام العلاقات التى نشأت عن العصر الصناعى ، فإن العصر الصناعى قد يمنح الإنسان مزيدا من القدرة على السيطرة على الطبيعة ، وبالتالى مزيدا من الحرية .

(٣) **شهادة أرنولد توينبى :**

رأى شبنجلر أن الحضارة قد بدأت تميل إلى الزوال منذ القرن العاشر أما تونيبى فهو يرد إنهيارها إلى عصر النهضة الأوربية.. ومرجع الأمر عند هذين المفكرين إلى أنها استنفدت إمكاناتها وقوتها الكامنة التى تتصدى بها لمواجهة التحديات ولم يكن توينبى يرد نشأة الحضارة إلى جنس من الاجناس ، أو إلى البيئة التى نشأ فيها صناعها ، فإن نصف حضاراتنا قد اشترك فى بنائها أكثر من جنس ، وكل حضارتنا قد اسهمت فى بنائها أجناس مختلفة ، ولا نرى باستقراء التاريخ حضارة واحدة قام ببنائها جنس واحد وان كان توينبى قد شارك شبنجلر ـــ فى إنكار القول بأن أوربا فى تقدم متصل ، ومرد إنحدارها إلى افتقادها الإيمان بالعقل الذى لا تستقيم بدونه حضارة .

أما كيف تنشأ الحضارة فقد رأى ان ردها إلى وجود تحديات تقابل باستجابات ، فقد تنطوى حياة المجتمع على صعوبات تتحدى مسيرته ، فإن كان به اقلية خلاقة تستجيب لهذا التحدى وتتصدى لمثله من تحديات متتالية باستجابات ناجحة موفقة نشأت حضارة ، وقد يواجه مجتمع آخر تحديات تتعثر الاستجابات المناسبة لها ، أو يفشل قادته فى مواجهة التحديات ، فإن حضارته تتدهور وتميل إلى الزوال ، وبذلك يرد توينبى تصدع الحضارة إلى فشل صناعها فى مواجهة التحدى ، وفتور الإيمان عند الأغلبية التى تتبعهم وعن هذين السببين ينشأ سبب ثالث هو فقدان وحدة المجتمع فتتصدع حضارته ويرى توينبى أن نمو الحضارة وازدهارها لايكون بالتقدم التكنولوجى ، كما هو الحال فى حضارتنا الراهنة ، ولكن مرد الأمر فى أزدهار الحضارات إلى اقلية من صفوة القادة الذين يتميزون بالطموح والروح الخلاقة .

ومن الطريف أن توينبى يبتهل إلى الله «أن يرجىء نهاية عالمنا ، ويرى أن دعاءه سوف يستجاب مادمنا نشعر بالندم حين تخطىء قلوبنا .

وفى الحق أن كثيرين من مفكرى اليوم يردون إنحلال الحضارة الغربية المعاصرة إلى تأخر التطور الثقافى والأخلاق عن التطور المادى الذى يبهر الكثيرين من المعاصرين وعن هذا نشأ ما نراه اليوم من إنحلال الأخلاق وشيوع الجرائم التى لم تكن مألوفة من قبل ، وقد اتجه المعاصرون من المفكرين إلى إنكار ما كان يردده السابقون عن مسيرة التقدم فى

عالمنا المتحضر ، يؤيدهم فى هذا ما يرونه من سلوك الإنسان اليوم من ضروب الوحشية .. وليس هذا كشفا جديدا فإن رأى توماس هوبز + ١٦٧٩ *Th.Hobbes* فى طبيعة الإنسان همجيا ومتمدينا ما يشهد بأن هذا الإتجاه معروف من قبل .

طبيعة الإنسان المتحضر عند هوبز :

ان هوبز يلخص رأيه فى قوله : ان كل ما فعلته حضارة اليوم أنها حجبت نزوع الإنسان الطبيعى إلى العدوان بستار من الادب الرقيق ، واستبدلت بالعنف المادى النميمة والافتراء والانتقام وفقا للقانون ، فإن جميع الدوافع عند الإنسان تهدف إلى حب ذاته وحفظ حياته ، ومرد سلوكه فى كل حالاته إلى هذين الدافعين ، وليست الغيرية عنده إلا أنانية مقنعة مستنكرة ، وكل ما يبدو فى سلوك الإنسان وكأنه مشاركه وجدانية للاخرين مرجعه فى حقيقة الأمر إلى الرغبة فى اقتناص منفعة أو كسب مجد ، فالإنسان أنانى بفطرته ، نافر بطبعه من الاجتماع بغيره ، سيىء الظن بأقرانه ، فهو «إذا هم برحلة سلح نفسه وإذا أسلم للنوم عينيه أغلق أبوابه ، وحتى إذا استقر فى بيته أقفل دواليبه ، وهو يفعل هذا كله مع علمه بأن هناك قوانين وضعت لحمايته ، وحراسا مزودين بالسلاح ليثأروا من كل من يريد إيذاءه .. » .

وهكذا يبدو الإنسان عند هوبز «ذئبا لاخيه الإنسان ، لايتردد القوى فى الاعتداء على الضعيف واغتصاب ملكه ، فإن أعوزته القوة اصطنع الحيلة والدهاء حتى يبلغ ماربه كان هذا هو حال الإنسان همجيا ، ولم يزل هذا حاله متحضرا متمدينا ، وإذا كان الإنسان ينفرد دون سائر الكائنات بالعقل ، فحسب العقل أن يرشد الإنسان إلى أحسن الطرق التى تؤدى تحقيق منافعه وحفظ حياته ، وإذا قيل ولماذا يقضى منطق العقل بأن يلتزم كل فرد بقواعد السلوك الاجتماعى الذى يعده الإنسان أخلاقيا ، أجاب « هوبز » بأن هذا السلوك يؤدى فى حكم العقل إلى حفظ حياته وتحقيق منافعه .. قد قال بهذا القورينائية والابيقورية من قبل ، ولكن الجديد فى مذهب « هوبز » هو أن قواعد الاخلاق

لا تتمشى مع حكم العقل إلا متى التزم بها جميع الناس ، وهم الذين تتحكم الانانية فى كل تصرفاتهم ، فكيف نطمئن إلى حرصهم على الالتزام بقواعد الاخلاق .. ؟ يرى هو لا مناص من تدخل الحكومة لكفالة النظام، وليس من العقل فى شيء أن أسبق إلى الوفاء بنصيبى فى عقد ما ، متى ساورنى الشك فى أن الطرف الآخر قد لا يقوم بتعهداته بعد ذلك .. وهذا الشك أو سوء الظن لا يتيسر استبعاده إلا فى مجتمع يعاقب فيه من ينكث بتعهداته أو يراوغ فى الوفاء بالتزاماته ، ويكون هذا عن طريق سلطة عامة قد تستخدم سلطة الافراد وقوتهم لتفرض عليهم جميعا مراعاة القواعد التى تكفل مصلحتهم العامة .

ولسنا نريد أن نعرض لنقده الان ، وحسبنا ان نقول أنه فلسف القول بحيوانية الإنسان ووحشيته ، ثم زاد — وهذا هو الأهم — فبرر سلوكه الوحشى لموسوغ له الاعتداء والعدوان على الآخرين تحقيقا لمنافعه .. ؟ وكان هذا يقال فى القرن السابع عشر ، وما أحرانا أن نذكره اليوم حين نذكر جرائم الحضارة الغربية الحديثة ، ونشفق على الشعوب الضعيفة من عدوان الشعوب القوية المتحضرة .. ؟

وبعد فالذى يعنينا الان من كل ما اسلفنا هو شهادة ثلاثة أعلام من المفكرين المعاصرين فى الغرب ، شهادتهم أنكروا فيها فكرة التقدم فى مسيرة الحضارة الغربية ، وتأكيدهم على أن هذه الحضارة قد شاخت وفقدت حيويتها وإمكاناتها ، واعوزتها الروح التى تمكنها من الصمود للتحديات ، ومواصلة السير فى طريقها ، لأنها اخذت تنهار وتميل إلى الزوال .

ولكن تيار التشاؤم من حاضر الحضارة الغربية ومستقبلها ، لا يمنع من القول بأن بين أئمة الفكر المعاصر ، من يشيدون بتلك الحضارة ، ويرفعونها فوق كل ما سبقها من حضارات ، وفى مقدمة هؤلاء الفيلسوف الإنجليزى الفريد نورث هوايتهيد + ١٩٤٧ *A.N. Whileheah* ومن ذهبوا مذهبه ، بل ان من المعاصرين من أوساط المثقفين وعليتهم من الأوربيين برغم علمهم بنقائضها من لا يزالون فخورين مزهوين بحضارتهم

التى يرونها المثل الأعلى لكل شعب يتطلع إلى التحضر .. ؟ وهو رأى كان شائعا فى القرن التاسع عشر — كما عرفنا من قبل .

إنسان العصر بين القوة والضعف :

هكذا واصل القرن العشرون تقدمه وقد اكتملت مقدمات مسيرته وأدوات ارتقائها التكنولوجية على النحو الذى أنبانا عنه ،فاحرز العلم فى كل مجالاته مزيدا من التقدم ، وحققت التكنولوجيا مزيدا من الازدهار . وكثرت مخترعاتها بما اسفرت عنه من آلات وأجهزة ومعدات ، غزت كل ميادين الصناعة والزراعة والتجارة ، واقتحمت حياة الناس فى بيوتهم وخارجها ، ومكنت الإنسان من السيطرة على ظواهر الطبيعة فى الأرض الذى يعيش على أديمها ، ويسرت له غزو الفضاء ليفرض عليه سلطانه ، وبدا الإنسان بهذا كله تاج الخليقة وبطل الرواية الكونية .. أجل بدا مارداً جبارا ، قهر الطبيعةوبسط عليها سلطانه ، واستغل مواردها لمصلحته ، وهاجم أقوى الحيوانات واشدها فتكا ، فصرع الأسود والنمور والدببة والفيلة .. وحبسها فى أقفاص وعرضها فى حدائق الحيوان ليتسلى بها الناس .. ؟ ولم يقنع الإنسان بهذا ، وإنما أخذ يغزو الفضاء بأجهزة جهنمية ، هى الصواريخ التى تسير بسرعة فاقت سرعة الصوت .. ؟ وأخذ يدور بها حول الأرض ، ويتحكم فى مسيرها وسرعتها وهو جالس فى مختبره على سطح الأرض . هكذا بدأ الإنسان مارداً جباراً .. ومن عجب حقا ان هذا المارد الجبار قد تقضى على حياته لسعة من بعوضه ، أو جرعة ماء ملوث ، أو غير ذلك من أسباب تافهة يعجز عن مقاومتها ليعدوا ضعيفاً هزيلا يثير العطف والاشفاق .. ؟؟ وقد عبر القرآن الكريم عن هذا اصدق وأبلغ تعبير حين قال : ﴿**يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب**﴾ [سورة الحج ٧٣] وفى آية أخرى (فى سورة النساء ٢٨) يقول تعالى : ﴿**وخلق الإنسان ضعيفا**﴾ .

تعليق على حضارة العصر :

ما من شك فى أن الحضارة الأوربية فى القرنين التاسع عشر والعشرين تعد معجزة لإنجازات الإنسان ، وقدرته على السيطرة على ظواهر الطبيعة التى تكتنف حياته ، وفرض سلطانه على عالم الفضاء الذى غزاه بصواريخه ، ولا يخالجنا الشك فى أن هذا قد ارتقى بحياة الإنسان فى كل مجالاتها فى الصناعة والتجارة والزراعة مع تغلغلها فى بيته بالأجهزة الكهربائية والالكترونية ، ولكن هذه الحضارة التكنولوجية قد حملت معها شرورا وويلات أشرنا إلى بعضها فيما سلف ، وشرحنا فى هذه الحضارة أنها ألهمت العلم بمناهجه التجريبية التى اسقطت من حسابها الاعتبارات الإنسانية والأخلاقية — كما سنبين هذا فى الفصل الختامى الذى سنوازن فيه بين الحضارتين : العربية الإسلامية والأوربية ، ولهذا وجد من كبار المفكرين الغربيين من يهاجمها اليوم فى أمتع معاقلها فيرى أن خلو مقوماتها من العناصر الروحية والأخلاقية قد تكفل بتحللها فهى عندهم قد شاخت ومالت إلى الإنحدار ، فى طريقها إلى الزوال ، وسنعرض ثلاثة من المعاصرين الذين يرون أن المجتمع الصناعى الحديث قد هبط بقيمة الإنسان وشخصيته ومكن الدهماء من أن يسيطروا على الجماهير ، واسقط الأخلاق من حسابه لأن الذى يعنيه هو الإنتاج ووفرة الأرباح ، ويقال أن العصر الصناعى هو الذى سيقضى على الحضارة البشرية بأسرها لأنه ضم اختراع أجهزة وآلات للتخريب والتدمير ، وذلك بالاضافة إلى أن التوسع فى الانتاج والحرص على إيجاد أسواق لتوزيعه قد ولد صراعا بين الدول الصناعية للسيطرة على الدول الضعيفة المتخلفة ومن هنا تنشأ الحروب واختراع آداوتها الكفيلة باهلاك البشر وإفناء حضارتهم . وليس أدل على هذا — فيما يقال من أن أكثر الآلات تقدمها واسبقها زمنا هى الآلات الحربية ، وقد ارتبط تقدم الصناعة باتساع نطاق الحروب .

ونظرا لافتقار حضارة العصر لمقومات روحية وأخلاقية ، كانت أصولها وكوارثها ، وفى مقدمتها استعمار الدول الصناعية للدول الضعيفة المتخلفة ، فتكونت أسواقا لمنتجاتها الصناعية ، ولإستغلالها مواردها ، ونهب أموالها ، وإذلال أهلها ، ومن عجب أن الدول السباقة إلى الاستعمار تكون موضع تقدير واعجاب من الدول التى لم تقو على استعمار

غيرها بعد ... ولا يمنع المعتدى من عدوانه إلا عجزه عن تحقيق عدوانه على الآخرين» .

وقد بلغ التنافس الدولى على اقتناص الغنائم ذروته باحتلال الألمان لاجزاء شرق أفريقيا ، واحتلال الفرنسيين لبلاد المغرب ، واحتلال الايطاليين للصومال وارتيريا ثم ليبيا وإحتلال أسبانيا والبرتغال مناطق معينة ، واحتلت بلجيكا ماسمى بالكونغو البلجيكية . البلجيكية .

ولما استطاعت الدول الضعيفة ان تزيح عنها المستعمر وتتخلص من شرورهم ابتكر هؤلاء نوعا جديدا من الاستعمار ، إذا دخلوا البلاد المتخلفة بحجة العمل على خدمتها وإزاحة تخلفها ، ومساعدتها على التحضر والرقى .. وذلك إلى جانب استعمار اقتصادى من غير الاحتلال العسكرى ، وذلك بادخال دعوى أموال فى صورة مؤسسات صناعية ، ومنح قروض تكفل لها السيطرة على البلاد المتخلفة ...

بل إن التقدم الحضارى فى أوربا كان قوامه تقدم العلم وتحويل قوانينه إلى تكنولوجيا اسفرت عن مخترعات تمثلت فى الآلة التى غزت الصناعة والزراعة والتجارة ، لكن كثرة الآلات مع غزارة الانتاج ، أدى إلى بطالة العمال ورخص أجورهم ، وازدياد ساعات عملهم وإساءة أحوالهم المعيشية واهانت كرامتهم واهدرت ادميتهم ، فعانوا ضنك العيش ومرارة الحرمان فى الوقت الذى نعم فيه أصحاب المصانع الضخمة والتاجر الكبير بثراء فاجش وكان من سؤات التقدم العلمى التكنولوجى ان امتدت اثاره إلى الفنون الحربية ، فأمد المقاتلين بأدوات القتل والتدمير والتخريب وازدادت الحروب الضارية فتكاً وعنفاً ، وتجاوزت الحروب أرض المقاتلين فى القرن التاسع عشر ، فحاربت آغلبها فى أفريقيا ، وحاربت روسيا فى منشورياً وحاربت امريكا فى أوربا فى الحرب العالمية الأولى وزادت المنافسة التجارية الحروب اشتعالا ، وثبت بذلك أن التقدم العلمى إذا اسئ إستخدامه كان ويلا على البشر ، لأنه وضع فى يد الإنسان آلات أشد فتكا وتدميرا .

وفى شهر مايو ١٩٨٦ كشف تقرير للجنة الرياسة الامريكية المكلفة بالبحث فى مستقبل برنامج الفضاء الامريكى ان الإنسان يستطيع أن يحيا على سطح القمر أو المريخ خلال الخمسين عاما القادمة ، وأنه سيكون بامكان الولايات المتحدة أن تدخل مجموعة من الإنسان الآلى إلى سطح القمر بعد عشرين عاما وإلى سطح المريخ بعد ثلاثين عاما

وسط عمليات لاطلاق محطات مدارية حول الأرض والقمر والمريخ لنقاط ارتكاز نحو غزو كواكب المجموعة الشمسية الأخرى ، وطالب التقرير ببناء مكوكى فضاء لنقل المسافرين والمعدات إلى الفضاء ، قبل عشرين عاما .. فبالله كم تنفق بلايين الدولارات من أجل شن هذا العبث فى وقت تشتد فيه المجاعات فى افريقيا وآسيا .. بل حسبنا شاهدا على كوارث حضارة العصر احتراق المفاعل النووى فى تشيرنوبيل فى الإتحاد السوفيتى فى ١٩٨٦ ويكفى أن الزعيم السوفيتى جورباتشوف قد صرح فى أول حديث تليفزيونى له بعد وقوع الكارثة بأن هذا الحادث نموذج مصغر للجحيم الذى ستعانى منه البشرية إذا وقعت حرب نووية .. وهو من آثار التكنولوجيا النووية العصرية باخطارها على البشرية فى الحرب والسلم .

وقد قيل بحق إن القانون الدولى يكفل سيادة كل دولة على أراضيها ، وإنتهاك هذا القانون تدينه الدول جميعا ، وقيل أن التكنولوجيا العصرية قدحققت للبشرية قدرات فائقة فى السيطرة على الطبيعة ، ولكنها أطلقت طاقات ــ ظاهرة أو كامنة ــ تسخر من القانون الدولى والرأى العام العالمى ، فالحدود الجغرافية للدول ذات السيادة ، لا تعوق انتشار التلوث ، فمن ذلك أن حادث تشيرنوبيل حمل التلوث فى سحب الاشعاعات النووية ، حملتها الرياح بطريقة عشوائية إلى دول مجاورة ، فأين هو مبدأ احترام السيادة الوطنية أمام التكنولوجيا النووية فى الدول المتقدمة ؟ وهكذا تنتهك سيادة الدول فى السلم وفى الحرب ، دون اهتمام بضوابط القانون الدولى والشرعية العصرية .

إن الانفجار النووى قد هدد البشرية ، وانذر بالقضاء على الاجنة فى بطون امهاتها ، وسيؤدى إلى ولادة أجيال من الاطفال المشوهين وقد كانت كثافة الاشعاع فى المنطقة المحيطة بالمفاعل النووى تعادل ألف مرة من كثافة الاشعاع الذى انبعث عن القنبلة الذرية التى ألقيت على هيروشيما ، واضطرت اليابان إلى الانسحاب فورا من الحرب ... !

وقد أثارت اشعاعات مفاعل تشيرنوبيل الذعر فى الدول المجاورة ، فأصدرت السويد والدانمارك والنرويج وألمانيا الغربية وغيرها قرارات تحظر استيراد المواد الغذائية من الاتحاد

السوفيتى ودول شرقى أوربا ، مخافة أن تصاب النساء بالعقم ، والتشوهات الخلقية ، والتخلف العقلى الذى يصيب أبناء الحوامل التى تتعرض للإشعاعات .

فى تقرير لمنظمة مركز معونة المسجونين السياسيين فى اقليم استونيا السوفيتى فى مايو ١٩٨٦ ـــ أن اعدادا كبيرة من المواطنين والمهاجرين السوفيت من منطقة تشيرنوبيل قد قتلوا أو ماتوا بالإشعاع لأنهم كانوا يقومون بتنظيف منطقة نصف قطرها ثلاثون كيلو مترا من المفاعل وذلك من مخلفات التلوث الإشعاعى ، وقام أطباء سوفيت بأجهاض السيدات الحوامل فى منطقة التلوث الإشعاعى .

والعلماء الحاصلون على جائزة نوبل فى الفيزياء والكيمياء يطالبون فى منتصف عام ١٩٨٦ الدول الكبرى بتحريم إستخدام الأسلحة النووية خوفا على الإنسان وحضارته .

ومن الطريف أن حلف الاطلنطى قد وافق فى مايو ١٩٨٦ على انتاج أسلحة كيماوية متطورة بناء على طلب الولايات المتحدة متحديا القوانين والمشاعر الدولية ، وحجة الولايات المتحدة فى إنتاج سلاح لا إنسانى حرمه القانون الدولى عام ١٩٢٥ فى بروتوكول جنيف هو أن تقارير مخابراتها العسكرية والمركزية من أن الاتحاد السوفيتى يمتلك أسلحة كيماوية متطورة .. وهكذا يسير العالم من حرب الكواكب إلى الحرب الكيماوية ..

ولم يمض وقت طويل على إنتهاء اثار ذلك الانفجار ـــ من تهجير عشرات الألوف من السكان إلى إصابة من اصيبوا بأمراض قد لا يظهر أعراض بعضها قبل عشرات السنين ، لكن حدث عطل فى غواصة نووية سوفيتية وهى تخوض أعماق المحيط الأطلنطى ، وزفدت نهائيا فى أعماق المحيط ، ولا يدرى أحد. نتائج هذه الكارثة .

وقد صدق الدكتور مصطفى محمود حين قال أن فى أجهزة الأعلام ـــ مقروءة ومرئية ومسموعة ـــ أخبارا عن التلوث والارهاب وخطف الطائرات وتفجير السيارات الملغومة ، وأندلاع الحروب والمجاعات وأزمة الطاقة والغذاء ، والتحريض على الاضراب ، والترويج العلنى للفتن والجنس ، والإشادة بالتخريب والفوضى ، وهذا كله

برغم التقدم العلمى ومخترعات التكنولوجيا واختراق الفضاء ، والنزول على القمر ، وعجائب الكومبيوتر .. وفى هذا التقدم خسرنا القيم الإنسانية ، وحتى فى أوربا وأمريكا اختفت القيم التى تضاهى بيتهوفن وشوبان وفاجنر وشابلن ، وظهرت الخنافس والفيس برسلى .. وحفنة من ابطال الكاراتيه .. وانفجرت القنابل وانطلق الرصاص على البابا فى الفاتيكان ، وتكررت حوادث الخطف والفوضى والمخدرات والمؤامرات ..

والرأى عندنا إن هذا لم ينشأ عن التقدم العلمى ، بل عن إساءة استخدام العلم وخلو الحضارة العصرية من الدوافع الروحية والبواعث الأخلاقية ، ومن هنا بدأ طبيعيا أن يأمر ترومان رئيس الولايات المتحدة بالقاء القنبلة الذرية على هيروشيما فيقتل فى ليلة واحدة فوق مائة ألف إنسان ، يصاب عشرات الألوف بعاهات ، وحدث ما يشبه هذا فى قنبلة نجازاكى ، وأباح الغرب تشريد شعب من وطنه هو الشعب الفلسطينى ليكسب رءوس أموال يهودية ، ومن مظاهر الجشع الامريكى حرب فيتنام وكوريا وغير هذا من دلالات الوحشية والغدر عند أمم تزعم أنها هى وحدها المتحضرة أن الإنسان اليوم مازال فى أعماق نفسه هو وحش الأمس كما عرفنا حين عرضنا فلسفة توماس هوبز فى هذا المجال ، ومن هنا كانت حملات المفكرين الغربيين على المدنية الحاضرة

وأكثر مما أسلفنا عن ويلات الحروب والصلات ذكر *Wall street journal* فى منتصف يوليو ١٩٨٦ أن من الثابت بالأرقام أن ضحايا الحكومات الدكتاتورية أكثر من قتلى الحرب النووية .. ؟!! تسعة ملايين نسمة ماتوا فى الحرب العالمية الأولى ، وبلغ عدد قتلى الحرب العالمية الثانية عددا رهيبا ، يمكن القول بأن ضحايا حروب هذا القرن وثوراته يبلغ ٣٥,٥ مليون نسمة ، أما عدد قتلى الحكومات فى النظم الشمولية والاستبدادية أكثر بكثير مما يكن أن يموتوا فى حرب نووية ، وهذا غير ضحايا المجاعات المعروفة ، منها فى الاتحاد السوفيتى عام ١٩٢١ نحو أربع ملايين ضحية وراح فى المجاعة التى اجتاحت الصين عام ١٩٥٨ ـ ١٩٦١ وهذا عدا ضحايا مجاعات أفريقيا وآسيا القائمة حتى اليوم بسبب الجفاف أو غيره ...

كم مليارا من الدولارات ابتلعتها حرب الخليج بين العراق وايران منذ أكثر من ست سنوات ، مع علم الدولتين المسلمتين المحاربتين أن فى العالم الافريقى والاسيوى مسلمين

يعيشون فى مجاعات ويموتون فى بيوتهم أو على قارعات الطرق جياعا ، وعلى غير جدوى تطلب دولهم الغوث وتلتمس النجدة من أهل الرحمة .. !!

وبرغم أهوال الحضارة الاوربية الحديثة وكوارثها وجد من بين المفكرين المعاصرين من العرب ، من يقول : من لنا بمن يأخذ منا حكمة الشرق ، ويمنحنا بدلها طيارات وغواصات ومدمرات ودبابات وناسفات .. وقنابل ذرية .. !! ظننت أول الأمر أن قائل هذه الكلمة منذ بضع عشرات من السنين هو كاتبنا الكبير الأستاذ توفيق الحكيم ، فكتبت له مستفسرا للتأكد مما ظننت ، ورد سيادته بخطاب رقيق قال فيه : «لست القائل لهذه العبارة ، ولكنها جاءت على لسان المفكر اللبنانى «أمين الريحانى» عندما زار مصر فى العشرينات على ما أذكر ، وقد ذكرتها أنا فى بعض ما كتبت ، لكى ارد عليها بقولى : إن هذه المكتشفات الاوربية والأسلحة المذكورة إنما جاءت نتيجة للفلسفات التى كان للشرق نصيب منها ، وأنناإذا ازداداهتمامنا بالفلسفة والفكر كما كان الحال فى أوربا ، لكان فى استطاعتنا أن نخترع مثل ما اخترعوا ..»

ومن أسف أننا إذ اتحدثنا عن حضارة العصر فى العالم المتقدم بمخترعاتها وكشوفها العلمية وأدواتها المتطورة ، وأحزننا أن نذكر تخلف عالمنا الثالث فى العلوم والفنون والآداب ، بل عجزه عن إستخدام ما يستورده من مخترعات الغرب ، وعجزه على صيانتها وهو فى الأغلب والاعم لا يزال يستخدم فى الزراعة الفأس والمحراث والنورج والساقية .. ولعل أحسن مستوردات الغرب فى العالم النامى ما يساعد أهله على الحياة اليومية ، كالادوات الكهربائية المستخدمة فى بيوتنا كالثلاجات والغسالات والتليفزيونات والراديوهات.. أو ما يسير فى شوارعنا من أوتوبيسات وتراموايات وقطارات السكك الحديدية فى سمائنا من طائرات.. ومعنى هذا إن حضارة العالم الثالث هى حضارة الغرب ـــ بمفهوم الحضارة فى القرن التاسع عشر ـــ منقولة إلى بلادنا .. ولا يطعن فى هذا أن بيننا محافظون يهاجمون غزو الفكر الغربى لعالمنا .

وهكذا نسدل الستار على مسرحية الحضارة الاوربية الحديثة ، لكل ما ضمت من مشاهد التقدم العلمى الباهر ، والازدهار التكنولوجى الرائع ، بكل ما أسفرت عنه من تطوير للحياة الإنسانية فى كل مجالاتها ، فى الصناعة والزراعة والتجارة ، وتغلغلها فى

حياة الإنسان داخل بيته وخارجه .. وما صحب ذلك مما كشفت عنه الحضارة من أدوات التدمير والتخريب ، واثارة الذعر فى نفوس الناس ، والهبوط بالقيم العليا فى حياة البشرية .

الباب الثالث

مسيرة الحضارة الإسلامية

الفصل الأول : مقدمات فى الحضارة الإسلامية

هل هى حضارة إسلامية أم عربية ؟ الحضارة الإسلامية والإسلام لا ينفصلان ـ دعوة الإسلام إلى العلم والنظر العقلى ـ دعوة الإسلام إلى القيم الأخلاقية العليا ـ رأى الدكتور مدكور

الفصل الثانى الحضارة الإسلامية فى عصرى الراشدين والأمويين تمهيد عن حضارة العرب فى الجاهلية ـ المرحلة الأولى فى حضارة الإسلام فى عصرى الراشدين والأمويين .

الفصل الأول : مقدمات فى الحضارة الإسلامية

مرت الحضارة الإسلامية فى مسيرتها بأربع مراحل ، بدت أولاها فى عصرى الراشدين والأموين خلال القرن السابع إلى منتصف الثامن ـــ التشريع فى الإسلام ـــ والمرحلة الثانية من بدء العصر العباسى فى منتصف القرن الثامن حتى آخر القرن التاسع وهو عصر الترجمة ـــ والمرحلة الثالثة عن العصر الذهبى للحضارة الإسلامية خلال القرنين العاشر والحادى عشر ، والمرحلة الرابعة عن تدهور الحضارة الإسلامية من القرن الثانى عشر حتى بدأت تستيقظ أواخر القرن التاسع عشر حين استيقظت بعض الدول الإسلامية باتصالها بأوربا التى بدأت نهضتها منذ بداية القرن الرابع عشر أى منذ ستة قرون إلى ذلك العهد ـــ وقد أخذت بقية الدول الإسلامية تستيقظ بعد سبات طويل إبان القرن العشرين .

الحضارة إسلامية أم عربية ؟

يثور منذ البداية إشكال أثار الفرقة بين طائفتين من الباحثين ، أهى حضارة إسلامية أم عربية ... ؟ ومثل هذا الخلاف قد شجر بين الباحثين بعضهم مع بعض فى شأن الفلسفة التى نشأت وتمت فى كنف الإسلام ، أهى إسلامية أم عربية ... ؟

وقريب من الرأى الذى إنتهى إليه جمهرة الباحثين فى شأن الفلسفة الإسلامية نقول إن الحضارة التى نحن بصددها (عربية) إسلامية .

كان الإسلام فى بداية حضارة عربية ، والمسلمون هم العـرب واللفظـان مترادفان ، ومن أجل هذا أمر عمر بن الخطاب بأخراج غير المسلمين من جزيرة العرب ، فأصبح جميع أهلها مسلمين أى عربا ـــ كما يقول جرجى زيدان ـــ وقوام الإسلام هو القرآن وقد نزل بلغة العرب ، وعندما تغلب الصحابة على دولتى الروم والفرس كانوا يعتقدون أنه لا يسود إلا العرب .

الحضارة الإسلامية والإسلام لا ينفصلان :

ثبتت الحضارة الإسلامية فى ظل الإسلام ، وعاشت فى كنفه ، ثم دخلتها بعد ذلك عناصر من حضارات أجنبية وافدة تفاعلت معها وزادتها نماءً ، فالدين والحضارة اللذان بلغهما محمد ﷺ للناس بوحى من ربه يتزاوجان لا إنفصال بينهما ، ولئن قامت هذه الحضارة الإسلامية على أساس من قواعد العلم وهدى العقل ، واستندت فى ذلك إلى ما استندت إليه الحضارة الغربية فى عصرنا الحاضر ، ولئن استند الإسلام من حيث هو دين إلى التفكير الذاتى وإلى المنطق التجريدى (المتيافيزيقى) فإن الصلة مع ذلك وثيقة بين الدين ومقراراته والحضارة وأساسها ، ذلك أن الإسلام يربط بين التفكير المنطقى والشعور الذاتى ، وبين قواعد العقل وهدى العلم برابطة لا مفر لأهله من البحث عنها والاهتداء إليها ليظلوا مسلمين وطيدا إيمانهم ـــ كما يقول الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه عن « حياة محمد » . ولكن ربما قيل إن فى تاريخ الإسلام مفكرين اتهموا بالإلحاد ، ومع ذلك أنتجوا علما وفلسفة وفقها وكلاما وفنا وأدبا ، فكيف يقال بعد هذا إن الحضارة والإسلام يتزاوجان ولا ينفصلان؟ وردنا على ذلك أن الذين أدينوا بالاتهام كانوا قلة ضئيلة بالقياس إلى سائر مفكرى الإسلام ، ولم يثبت الاتهام إلا على عدد ضئيل جدا ، فالتيار العام يثبت القول بأن الحضارة والإسلام يتزاوجان ولا ينفصلان طوال تاريخ الإسلام .

ومن اقترف عملا يتنافى مع تعاليم الإسلام كان موضع استهجان من جميع من حوله من أقران وقد يجرنا هذا الحديث إلى تعبير تردد كثيرا فى الكتاب الذى بين أيدينا ، وهو « علماء العرب » فماذا نقصد بهذا التعبير .. ؟ عرضنا لذلك فى كتاب أصدرناه منذ نحو ربع قرن عن العرب والعلم فى عصر الإسلام الذهبى ، وفيه قلنا .. إننا نقصد بعلماء

العرب كل من أسهموا فى تقدم العلم ممن كتبوا بالعربية من أهل العصور الوسطى وعاشوا فى بلاد عربية أو تدين لسلطان العرب . يجمعهم تراث واحد . ويربطهم مصير واحد . ولسنا أول من وسع مدلول اللفظ على هذا النحو ، فقد سبقنا إلى ما يقرب من هذا المعنى كثيرون من مفكرى الغرب نسوق منهم بضعة شواهد :

فالمستشرف الروسى ف . بارتولد + ١٩٣٠ ***W. Barthold*** يتحدث عن حضارة الإسلام فيوحد بينها وبين حضارة العرب وحضارة الشرق إبان العصور الوسطى ، ويقول إن العرب لم ينفردوا بابتكار هذه الحضـــارة ، وإنما شاركهم فيها أهل الشرق الأدنى وقسم من أفريقيا ، عاشوا أمداً طويلا بعيدين عن الحضارة الأوربية ، آخى بينهم الإسلام ــ وهو دين الدولة ــ ووحدت بينهم اللغة العربية .. وهى لغة العلم فى تلك العصور .. ويصرح بارتولد بأن كلمة الشرق لا تؤخذ بمعناها الجغرافى الدقيق . فالشرق الأدنى المتحضر ــ فى العصور الوسطى خاصة ــ جنوبى بالنسبة لروسيا ، كما أن شمال أفريقيا ــ وهو جزء من الشرق الإسلامى ــ جنوبى بالنسبة لأوربا .. ويشير المؤلف إلى أن كلمة الشرق قد استخدمت فى عصر الأمبراطورية الرومانية بمعنى البلاد المتحضرة ، مقابلا للغرب . وأن اليونان قديما كانوا يقتسمون العالم إلى جنوبى حار الجو ، موطن الحضارة ، وشمالى بارد الجو يستوطنه المتوحشون[1] .

أما المستشرق الإيطالى كارلو ألفونسو نللينو + ١٩٣٨ ***Nallino*** فيقول فى تحديد مفهوم العرب : إن اللفظ كان يطلق حتى أوائل الإسلام على الذين استوطنوا شبه جزيرة العرب ، أما بعد القرن الأول فإن اللفظ يتخذ معنى جديداً اصطلح عليه الباحثون ، وأطلقوه على جميع الشعوب التى تقيم فى الأمم الإسلامية ، وتستخدم اللغة العربية فى أكثر تآليفهم العلمية ، وبهذا يدخل فى مفهوم اللفظ الفرس والهنود والترك والسوريون والمصريون والبربر والأندلسيون ومن إليهم ممن شاركوا فى العربية لغة للعلم ، وفى التبعية للدولة الإسلامية .

---

(١) بل كان أرسطو يعتقد ان العالم ــ مع استثناء اليونان ــ يتفرع إلى برابرة شجعان يقيمون شمالى أوربا ، ويميزهم قصورهم عن التحضر ، وعجزهم عن ادارة الدولة ، وإلى آسيويين متحضرين تنقصهم الشجاعة ، أما اليونان عنده فيجمعون بين الصفتين : الشجاعة والحضارة .

ولا يستصوب نللينو إستخدام لفظ المسلمين مكان العرب، لأنه يخرج النصارى والإسرائيليين والصابئة وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى ممن شاركوا بنصيب غير يسير فى العلوم العربية والمصنفات التى وضعت فيها ، إلى جانب أن لفظ المسلمين يستتبع مد البحث إلى ما صنفه أهل الإسلام بغير العربية من لغات ــ كالفارسية والتركية ــ ومن أجل هذا يؤثر نللينو أن يتخذ لفظ العرب نسبا إلى لغة الكتب لا إلى الأمة[1] .

أما العالم الإيطالى المعنى بتاريخ العلوم عند العرب «ألدوميلى *Aldo Miell* فإنه بدوره يطلق لفظ «عربى» على مفهوم إصطلاحى واسع : فيدخل فى مدلول العلم العربى كل إنتاج علمى نما وازدهر إبان العصور الوسطى ــ فى الفترة التى عنى بتاريخ العلم بها . وبخاصة بين القرن الثانى والثالث عشر للميلاد ــ فى امبراطورية الخلفاء العربية ، بصرف النظر عن اللغة التى كتب بها العلماء ــ وهى فى العادة اللغة العربية ــ والدين الذى اعتنقوه فإن من هؤلاء العلماء من كتب بالعربية وبغيرها ــ كالفارسية أو السريانية أو العبرية ــ ولا يعقل أن يفصل دارس العلم بين ما كتبه بالعربية وما كتبه بغيرها ، ولا يميل ألدوميلى بدوره إلى وصف هذا الانتاج العلمى بأنه إسلامى ، إذ قام بقسط فى انضاجه وتنميته غير المسلمين من مسيحيين ويهود وغيرهم ، وإذا جاز أن يوصف بعض العلوم بأنه إسلامى ــ كالفقه والكلام ــ فإن العلم ــ طبيعيا أو رياضيا ــ أحرى بأن يوصف بأنه علم عربى ، وهكذا أصبح مدلول اللفظ «عربى» لا يقتصر على من أنحدروا عن أصل عربى ، ولا من كانوا ينتمون إلى الجزيرة العربية وحدها ، بل يطلق اللفظ على كل من خضع للتأثير المباشر أو غير المباشر للمحيط الذى أوجده الفتح الإسلامى ، وحققه الخلفاء فى الدولة العربية ، أو حققته الدول التى بقيت إسلامية بعد إستقلالها[2] .

ومن الباحثين الغربيين الذين أقروا مفهوم العرب على نحو قريب من ذلك «جوستاف لوبون الفرنسى» ، إذ يرى فى كتابه عن حضارة العرب أن البلاد التى ينتمى إليها العلماء

---

(١) نلليتو (كارلو الفونسو) : علم الفلك وتاريخه عند العرب فى القرون الوسطى ــ روما ١٩١١ ــ ١٩١٦ .
(٢) الدوميلى : العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى ــ دار القلم ١٩٦٢ ــ ١٤٩،٣ .

الذين قيل إنهم ليسوا من أصل عربى ، قد دانت لسلطان العرب ، وجرى الدم العربى فى عروق أهلها ، وفكر علماؤها فى ظل الدولة العربية ورعاية حكامها ، وأنه إذا جاز لأحد أن يساوره الشك فى رد مؤلفاتهم إلى الروح العربية ، جاز له أن يشك فى نسبة المؤلفات التى خلفها العلماء الفرنسيون إلى فرنسا ، بحجة أنهم ينحدرون إلى شعوب غير فرنسية وإن شكلت الشعب الفرنسى ــ كالثورمان والسلتيين والاكتياتين ومن إليهم ، ومسايرة لهذا الرأى يجوز أن نستبعد من تراث الفكر الأمريكى أكثر المؤلفات العلمية فى شتى مجالاتها بحجة أن أهلها ينحدرون إلى أصل غير أمريكى ، كما نستبعد من تراث الرومان أكثر مؤلفاتهم لأن واضعيها من اليونان .. إن تاريخ الفكر لا يعرف حضارة كان كل بناتها من أبنائها الخلص . بل لا يعدوا الحق من يقول إن علم الأجناس لا يعرف فى تاريخ الشعوب كلها شعبا إنحدر كل أبنائه من صلبه ، ولم ينحدر الكثيرون منهم إلى أصول غريبة عنه ، ويصدق هذا على بناة الحضارة الإنسانية ــ من مصريين وهنود وصينيين وإيرانيين ويونانيين وأوربيين محدثين .

وبعد ، فإن من الطريف الذى يجدر ذكره فى هذا الصدد ، أن عالمنا البيرونى الفارسى الأصل كان يقول :

«وللهجو بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية» !

وكان هذا على غير الحال مع الحضارة الأوربية التى قطعت صلتها بالمسيحية واستلهمت العلم بمناهجه التجريبية ، التى أسقطت من حسابها الاعتبارات الإنسانية ، فخسرت الحضارة مقوماتها الروحية والأخلاقية ، على نحو ما سنرى فى الفصل الختامى الذى عقدناه على الموازنة بين الحضارتين .

دعوة الإسلام إلى العلم والنظر العقلى :

وكان توفيقا من الله تعالى أن يجمع الإسلام بين الدعوة إلى القيم الأخلاقية العليا والمبادىء الإنسانية السامية ، فى الوقت الذى بنى فيه الإيمان الدينى على النظر العقلى ، ودعا إلى أحترام المعرفة وتكريمها ، إلى حد أن أول آية نزلت من القرآن كانت فى سورة العلق ﴿**اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم**﴾ . الخ ويكبر من شأن الحواس والعقل أداة

للمعرفة فيقول : ﴿**أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور**﴾[1] . ويكبر القرآن من شأن العلم والحكمة فى قوله تعالى : ﴿**يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، وما يذكّر إلا أولوا الألباب**﴾[2] وقوله تعالى ﴿**قل انظروا فى ملكوت السموات والأرض**﴾ ـــ وفى الأرض آيات للموقنين ـــ ﴿**وفى أنفسكم أفلا تبصرون**﴾ وفى غير ذلك من آيات كثيرة ، ويأمر بالنظر فى ظواهر الكون لمعرفة الخفى المجهول ، ويعيب الغافلين عن التفكير فيما يشاهدون ﴿**قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون**﴾[3] .

يقول الشيخ الأكبر محمد مصطفى المراغى : إن القرآن قد جعل العقل حكما والبرهان أساس العلم ، وعاب التقليد وذم المقلدين ، وأنبّ من يتبع الظن ، وقال ﴿**إن الظن لا يغنى من الحق شيئا**﴾ وعاب تقديس ما عليه الآباء ، وفرض الدعوة بالحكم لمن يفقهها ، ولم تكن معجزة محمد ﷺ القاهرة إلا القرآن ، وهى معجزة عقلية أنظر كتب المتكلمين ترهم يقررون أن أول واجب على المكلف معرفة الله ، فيقول آخرون لا ، بل إن أول واجب هو الشك ، ثم إنه لا طريق للمعرفة إلا البرهان ، وهو إن كان نوعا من أنواع القياس إلا أن مقدماته يجب أن تكون قطعية حسية أو منتهية إلى الحس ، أو مدركة بالبداهة ، أو معتمدة على التجربة الكاملة أو الاستقراء على ما هو معروف فى المنطق ، وكل خطأ يتسرب إلى إحدى المقدمات أو إلى شكل التأليف يفسدها ، وقد جرى الغزالى على الطريقة نفسها وقرر فى أحد كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء ثم فكر وقرر ورتب ، ووازن وقرب وباعد ، وعرض الأدلة وهذبها وحللها ، ثم اهتدى بعد ذلك كله إلى أن الإسلام حق ، وإلى ما اهتدى إليه من الآراء ، وقد فعل هذا مجافاة للتقليد ، وليكون إيمانه إيمان المستيقن المعتمد على الدليل والبرهان ـــ وأنت واجد فى كتب الكلام فى مواضع كثيرة حكاية تجريد النفس عما ألفته من العقائد ، ثم البحث والنظر ، فطريق

---

(١) سورة الحج آية ٤٦ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٦٩ .

(٣) سورة يونس ١٠١ .

التجريد طريق قديم ، وطريق التجربة والاستقراء طريق قديم ، والتجربة والاستقراء التام وليد الملاحظة ، فليس هناك جديد عندنا ، ولكن هذه الطريقة القديمة بعد أن نسبت فى التطبيق العلمى والعملى فى الشرق ، وبعد أن فشا التقليد وأهدر العقل ، وبعد أن أبرزها العقليون فى ثوب ناصع ، وأفادوا منها فى العلم والعمل ، رجعنا نأخذها عنهم ونراها طريقة فى العلم جديدة .. إلى اخر ما يقوله الشيخ المراغى .

وقد جعل الإسلام العقل حكما فى كل شيء ، فى الدين وفى الإيمان نفسه ، يقول تعالى : ﴿**ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بمالا يسمع إلا دعاءً ونداءً صُمّ بكم عُمى فهم لا يعلقون**﴾ ويفسر الشيخ محمد عبده هذه الآية بقوله : إن الآية صريحة فى أن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين ، وأن المرء لا يكون مؤمنا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به ، فمن رُبّى على التسليم بغير عقل ، والعمل ولو صالحا بغير فقه ، فهو غير مؤمن ، إذ ليس القصد من الإيمان أن يذلّل الإنسان للخير ، كما يذلّل الحيوان ، بل القصد منه أن يرتقى عقله وترتقى نفسه بالعلم فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله ويترك الشر لأنه يعلم سوء عاقبه ودرجة مضرته .

ويعلق الدكتور هيكل على هذا فيقول إن هذا التفسير تؤيده آيات كثيرة وردت فى القرآن الكريم صريحة واضحة ، «فالقرآن يدعو الناس إلى النظر فى الكون ومعرفة آنبائه ليهديهم نظرهم إلى وجود الله ووحدانيته جل شأنه ، يقول تعالى : ﴿**إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبثّ فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**﴾[1] ويقول تعالى : ﴿**وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ، سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تُنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ، وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مُظلمون ،**

(١) سورة البقرة آية ١١٤ .

والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون ، وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفُلك المشحون ، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ، وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم يُنقَذون ، إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين﴾ والدعوة إلى النظر فى الكون لاستنباط سننه ، وللاهتداء إلى الإيمان ببارئه يكررها القرآن مئات المرات فى سوره المختلفة ، وكلها موجهة إلى قوى الإنسان العاقلة ، بدعوة إلى التدبر والتأمل ليكون إيمانه عن عقله وبيّنة ، وتحرزه الأخذ بما وجد آباءه عليه من غير نظر وتمحيص وثقة ذاتية بمبلغه من الحق .. وهذا ليس إيمان العجائز وإنما هو إيمان المستنير المستيقن الذى نظر كثيرا وفكر طويلا ، ثم توصل بعد النظر والتفكير إلى اليقين بالله جلت قدرته ..

والقرآن يكرم العلم والعلماء ــ ورثة الأنبياء ، فحديث القرآن عما فى الكون من خلق الله يوجهنا إلى أقصى ما نستطيع معرفته من أمره ، فهو يتحدث عن الأهلّه وعن الشمس والقمر ، وعن الليل والنهار وعن الأرض وما خلق فيها ، والسماء وزينة كواكبها .. وعن كل ما فى الكون من علم وفن ، ويدعو القرآن إلى النظر فى هذا كله ودراسته والاستمتاع بآثاره وثمراته شكرا لله على نعمته .. والناس بعد هذا خليقون بأن يتبعوا تعاليم الله ، وأن يقيموا نظامهم الاقتصادى على أسس روحية وخلقية ، فلا يتحكم الاقتصاد والسعى إلى الربح فى قيم الأخلاق ومبادئها كما يحدث فى الحضارة الغربية .

وهكذا سلك القرآن فى دعوته إلى الإيمان بالله وصفاته مسلكا يثير العقل ، وهو الدعوة إلى النظر إلى ما فى العالم من ظواهر **﴿أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شىء»** ، **«فلينظر الإنسان ممّ خلق»** ، **«فلينظر الإنسان إلى وزيتوناً ونخلاً وحدائق غُلبا ، وفاكهة وأبّا ، متاعاً لكم ولأنعامكم»** . إن فى

---

(١) سورة يس آيات ٣٣ ــ ٤٤ .

خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يدركون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ـــ ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم ولعل هذا النظر إلى الكون وظواهره للاستدلال منه على الله هو الذى يطلق عليه القرآن الحكمة ...

ويطول بنا الحديث إذا تتبعنا موقف القرآن من إكبار العلم والمعرفة والتفكير ، فحسبنا هذه الإشارات الموجزة شاهدا على أن الإسلام دين عقل وعلم وحكمة ، ومن هنا كان فلاسفة الإسلام ومتكلموه ـــ ولاسيما المعتزلة ـــ أرباب العقل ودعاة تحكيمه فى كل شىء ، وكانت محاولاتهم العميقة الضخمة للتوفيق بين الشريعة والحكمة ، ومَرَد ذلك إلى أن من المستحيل أن يكون فى الدين شىء يناقض العقل ، فكل ما سنهما من خلال هو فى منهج التوصل إلى الحقيقة ، فالدين طريقة الوحى الإلهى ، والفلسفة طريقها العقل (والعلم منهجه الملاحظة والتجربة) وما أصدق الغزالى حين قال : العقل شرع من داخل والشرع عقل من خارج ، والعقل مع الشرع نور على نور ...

وفى ظل هذا نشأ علم الكلام ، بعد ثلاثة قرون قضاها المسلمون فى جدل ومناقشات ، فيما بينهم أو مع خصومهم من أتباع الديانات الأخرى ، ولم يكد يمضى على وفاة الرسول ثلاثون سنة حتى انقسم المسلمون إلى طوائف فرأينا المرجئة والخوارج والشيعة .. وهذه الفرق وإن تكن سياسية فى نشأتها قد تعرضت لمسائل دينية ، وكان المعتزلة هم مؤسسو علم العقائد الإسلامية ، وكان فى مقدمتهم النظام ت ٨٤٥ م والجاحظ ت ٨٦٩ م وإمامهم فى القدرة على الإقناع العقلى ورئيسهم واصل بن عطاء ت ٧٤٧ م وأبو الهذيل العلاف ت ٨٤٩ م .. وأصبح الاعتزال مذهبا عقليا ونظرية كلامية ، وقد كانوا يعتزون بالعقل ويحكمونه فى كل شىء .

ومع ذلك فإن القرآن الذى جمع بين الآخرة والدنيا ، يغلّب منطق الحس على منطق العقل ، ويرجح التصور المادى على التصور الروحى .

وحين جاء موسى وعيسى ـــ عليهما السلام ـــ كانت علوم مصر الفرعونية وفلسفتها وتشريعها قد انتقلت إلى اليونان والرومان وأوحت إلى فلسفتهم بخير ما فيها ، وكانت يقظة العقل ومنطقه قد نبهت الناس إلى أن الخوارق لا تنهض بذاتها دليلا عقليا على شيء ، وكتب الله فى سنته أن يكون منطق العقل تاج الحياة الإنسانية ، برغم ما قلناه عن تقدير الحس ومنطقه . ولكن منطق العقل فى القرآن ليس جافا خاليا من العاطفة ومن الروح ، بل هو منطق ينظم العقل والعاطفة والروح جميعا حتى يتمكن من استكناه أسرار الكون ، وبهذا المنطق الذى تؤازره العاطفة والروح أكمل الله دينه وأتم على الناس نعمته وبه توج الرسالات وختمها ...

هذه هى دعوة الإسلام إلى العلم وتقدير التأمل العقلى وتمجيد المعرفة التى يتوصل إليها النظر العقلى والتجريد الحسى .

وحول القرآن والسنة دارت دراسات علمية وفلسفية ودينية سنشير إليها بعد ، وحسبنا أن نقول الآن إن فلسفة المسلمين لم تكن مجرد ترجمة لفلسفة اليونان كما زعم المستشرقون، فقد وفقوا بينها وبين العقيدة الإسلامية وكان هذا هو معقد الطرافة والجدة فيها ، إلى جانب الثروة الفكرية التى تكشّف عنها علم الكلام وفرقه المتعددة ، فى دفاعها عن الإسلام بالعقل وبالنص ، وفى إبطال حجج الشكاك والمفكرين ، وهذا إلى جانب التصوف الإسلامى الذى أخذ منذ القرن الثالث للهجرة يفسر التجربة الروحية التى عاشها الصوفية تفسيرا ذوقيا فأسفر ذلك عن مذهب الاتحاد عند أبى يزيد البسطامى ت ٣٦٠/ه ومذهب الحلول عند الحلاج المقتول عام ٣٠٩ ه ومذهب وحده الوجود عند ابن عربى ت ٦٣٨ه .

وفى جو القرآن والسنة نشأت علوم تفسير القرآن عند أمثال ابن جرير الطبرى ت ٣١٠ه والزمخشرى ت ٥٣٨ه وفخر الدين الرازى ت ٦٠٦ه وغيرهم كما كان علم الحديث (والسنة هى كل ما صدر عن الرسول من قول أو فعل) وكان من أشهر جامعيه البخارى ت ٢٥٦ه والترمذى ت ٢٧٩ ه وغيرهما ، وعلم الفقه الذى يدرس الأحكام الشرعية فى مسائل العبادات والمعاملات والحدود ، وفيه كانت مذاهب الأئمة الأربعة : أبي حنيفة ت ١٥٠ هـ ومالك بن أنس ت ١٧٩ هـ والشافعى ت ٢٠٤ هـ وابن حنبل ت ٢٤١ هـ وغيرهم من أئمة وفقهاء .

وعرف الإسلام فلاسفة كبارا كان فى مقدمتهم فى المشرق الإسلامى : الكندى ت ٢٤٦ هـ والفارابى ت ٢٣٩ هـ وابن سينا ت ٤٣٨ هـ وفى المغرب ابن رشد ت ٥٩٥ هـ وابن الطفيل ت ٥٨٦ هـ وابن باجه المسموم .

واعتز بمنطق العقل ـــ مع الفلاسفة ـــ علماء الكلام ، وان اختلف منهج البحث عند الفريقين ، واختلف كذلك مع منهج القرآن الكريم ، فأما القرآن فمنهجه الوحى الإلهى ، وبه تنزل الحقائق دفعة واحدة عادة من غير مقدمات تسلم إليها ، وبغير استدلال عقلى أو تجريب حسى ، واعتمد القرآن فى ذلك على فطرة البشر ، وخاطب الناس بما يلائم هذه الفطرة ويتسق معها ، لانه دين الفطرة ، نزل للبشر كافة فى كل زمان ومكان ، أما منهج المتكلمين فيقضى أن يؤمنوا بالحقائق الإلهية أولا ، ثم يبرهنون على صوابها بالأدلة العقلية ، فنقلوا الوضع من اعتماد على فطرة البشر وعاطفتهم ، إلى منطق عقلى تستنبط فيه النتائج من مقدماتها ، أما منهج الفلسفة فيقضى ألا يؤمن الفيلسوف بحقيقة إلا بعد بحثها ودراستها عقليا والبرهنة على صوابها .. ولكن المتكلمين بعد أن شاعت الفلسفة فى المملكة الإسلامية قد تأثروا بالفلاسفة ومناهجهم ، كما تأثر الفلاسفة بالكلام والمتكلمين واستخدموا مصطلحاتهم ...

دعوة الإسلام إلى القيم الاخلاقية العليا :

أما عن دعوة الإسلام إلى الالتزام بالقيم الأخلاقية العليا والمبادىء الإنسانية السامية فتتمثل فى أن قوام الإسلام هو الاخاء الإنسانى ، بمعنى أن المسلم لا يكمل دينه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، حتى يصل به هذا الاخاء إلى غاية البر والرحمة من غير ضعف ولا استكانة ، ولم تكن أقوال محمد وحدها هى دعامة الدعوة إلى هذا الاخاء الذى جعل منه حجر الزاوية فى حضارة الإسلام ، كان فى سلوكه مثلا أعلى لهذا الاخاء الإنسانى وكان يأبى أن يظهر فى أى من مظاهر السلطان أو الملك أو الرياسة الزمنية ، وكان يجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويعود المرضى فى أقصى المدينة ، وكان أكثر الناس تبسما وأطيبهم نفسا . وكان فى بيته يطهر ثوبه ويرقعه ، ويخدم نفسه ويأكل مع الخادم .. ولا يدخر شيئا لغده ، وكان جم التواضع شديد الوفاء .. وتجاوز هذا البر والرحمة الإنسان فكان رفق النبى ــ عليه السلام ــ بالحيوان ، وفى ذلك تحكى قصص كثيرة من

حياته .. ولم تكن هذه رحمة ضعف أو استكانة ، ولم يَشُبها شائبة من كبر أو استعلاء ، والإسلام يضع العدل إلى جانب الاخاء ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾[1] ﴿ **ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب** ﴾[2]

إن الناس فى شريعة الإسلام سواسية كأسنان المشط ، فلا فرق بين عربى وعجمى إلا بالتقوى ، ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن اكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾[3] وقال النبى فى خطبة الوداع : أيها الناس إنما المؤمنون إخوة ، إن ربكم واحد ، وأن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وحرص الإسلام على أن يكفل للناس حرية العقيدة ، لم يكن النبى يفكر فى ملك أو مال أو تجارة ، بل كان كل همه أن يوفر الطمأنينة لمن يتبعون رسالته ، ويكفل الحرية لهم فى عقيدتهم ، كما كفالتهم لغيرهم فى عقيدتهم ، يجب أن يكون المسلم واليهودى والنصرانى سواء فى حرية العقيدة ، وفى حرية الرأى وحرية الدعوة له ، فالحرية وحدها هى الكفيلة بانتصار الحق وتقدم العالم نحو الكمال ، ومن هنا كان النبى جنوحا للسلم ، راغبا عن القتال مقتصدا فيه طوال حياته أشد القصد ، فلا يلجأ إليه إلا لضرورة تقتضيه الدفاع عن الحرية ، دفاعا عن الدين وعن العقيدة ، كانت أول آية نزلت فى القتال : ﴿ **أُذِن للذين يقاتلون بأنهم ظُلاموا وإن الله على نصرهم لقدير** ﴾[1] وكانت الآية التى تلتها فى أمر القتال هى ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾[2] .

ودعا القرآن فى أكثر من آية إلى أدب النفس وتهذيب الإنسان بالبر والرحمة والإخاء والمودة والتعاون والوفاق والوفاء وأداء الأمانة وسلامة القلب وصدق الطوية والعدل والمغفرة والصبر والتواضع والأمان ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿ **ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىّ حميم** ﴾[3] ومثل هذه الآية فى الدعوة إلى الأخلاق الحميدة كثير وكثير .

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٤ .
(٢) سورة البقرة آية ١٧٩ .
(٣) سورة الحج آية ٣٩ .
(٤) سورة فصلت آية ٣٤ .
(٥) سورة الحجرات آية ١٣ .
(٦) سورة الأنفال آية ٣٩ .

وقوام التسامح الذى دعا إليه القرآن هو الاخاء الذى جعله الإسلام دعامة حضارته هو إخاء بين الناس كافة فى مشارق الأرض ومغاربها ، وهو اخاء يتضافر فيه العدل والرحمة من غير ضعف أو استكانه ، إخاء مساواة فى الحق والخير والفضل من غير تأثر بالعاجلة من المنافع .

وقوام هذا كله فى الإسلام هو النظام الروحى الذى نزل به القرآن ، وليس المتأثر بالمنافع الدينوية والمكاسب المالية ، كما هو الحال فى الحضارة الغربية التى تضحى بمبادئ الأخلاق فى سبيل نظامها الاقتصادى الذى يقوم على عبادة المال .

والذين لايقتنعون بهذا كله يهاجمون الإسلام إستنادا إلى تدهور الأحوال عند أتباعه من المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، مع أن مرد تدهورهم هو انصرافهم عن تعاليم دينهم ولو أنهم تمسكوا بها وارتدوا بالإسلام إلى ينابيعه الأولى لحسنت أحوالهم وتبوّءوا مكانتهم العالمية كما كان أسلافهم من قبل .. وقد أحسن الدكتور إبراهيم مدكور بيان موقف الإسلام من القيم الإنسانية فقال ما مؤداه :

رأى الدكتور مدكور :

فإذا عرضنا إلى موقف الإسلام من القيم الإنسانية قلنا مع الدكتور إبراهيم مدكور فى كتابه القيم « فى الفكر الإسلامى » أن قديم الإسلام حى وجديد باطراد ، وأصوله ومبادئه صالحة لكل زمان ومكان ، فقد أقر الإسلام حقوق الإنسان المهدرة فى قرننا العشرين ، وسبق بذلك القرن الثامن عشر الذى يعدونه قرن حقوق الإنسان ، فقد أيدها الإسلام ، ومكن لها وجعل منها ديناً ودنيا ، وأقامها على دعائم أخلاقية وروحية تسمو كثيرا على ما جاء به ميثاق الأمم المتحدة عام ١٩٤٨ وحقوق الإنسان التى تفاخر الحضارة الغربية بالكشف عنها ، قد أقرها الإسلام منذ أربعة عشر قرنا ، وهى حرية الاعتقاد وحرية الرأى والتعبير وحرية العمل وحرية التعلم وحرية التملك والتصرف ، وفى آيات الكتاب البيانات شواهد ناطقة بذلك، وقد حرص الإسلام على حماية النفس البشرية وتقديسها مع أنها اليوم مهدرة ساعدت الحروب العالمية والاقليمية على الاستخفاف بها، كما قرر الدين حقوق المرأة وبشر بالتسامح الدينى، ودعا إلى المعاملة الكريمة للمؤمنين من أهل الكتاب ، وانفتح على الأمم ذات الحضارات القديمة ـــ كما تشهد حركة الترجمة فى العصر

العباسى ، ونفر الناس من التمييز العنصرى .. وسبق بذلك كل التشريعات والمواثيق الحديثة ، وحقق آمال البشرية وتمنياتها فى عصرنا الحاضر وما بعده .. والإسلام دين وحضارة ، تعاليم وسلوك ، عقيدة وفلسفة ، وأساس حضارته الأخوة الإسلامية ، فلا تفرقة لحسب أو نسب ، ولا لجنس أو لون .. أخوة كالتى دعا إليها الرواقية من قبل ، وتريد اليوم أن نستعيدها فى ثوب المواطن العالمى .. إن عصر التكنولوجيا الذى تعيش فيه لا يعتد إلا بالجهاز والآلة وربما ضحى فى سبيلهما بحرية الإنسان وكرامته .. والقيم الإنسانية وهى تراث الماضى وصنع الأجيال المتعاقبة لم تسلم من عدوان الزمان عليها ، ولكن الإسلام يخاطب الإنسان ويوجه إليه الرسالة ، وقد دعا الإسلام إلى حرية الرأى والفكر ، وخلص الفعل من سلطان الماضى وتحكم الآباء ، واستعباد العرف والتقاليد ، وحكم المسلمون عقولهم فيما صادفوا من شئون الدين والدنيا مما لم يرد فيه نص من كتاب أو سنة ، وكان للاجتهاد بالرأى أنصار ومؤيدون يشرفون على هديه ويفنون فى ضوئه .. ومن الرأى «الإستحسان والاستصلاح» أو المصالح المرسلة التى تقضى بأن توزن الأمور بميزان المصلحة العامة .. وتتمثل تلك الحرية فى المدارس الفلسفية والعلمية ، فأخذ علماء الإسلام بالملاحظة والتجربة ، وأنشأوا المعامل ليجروا فيها مختلف التجارب ، وأقاموا المراصد ليتتبعوا سير الكواكب ويقفوا على حركات النجوم وعلى أساس هذه الحرية قامت النهضة العلمية الإسلامية التى امتدت آثارها إلى علماء أوربا ...

وطغت الحروب العالمية على القيم الإنسانية وكادت المادية أن تودى بها ، واهتم الإسلام بهذه القيم ونبه إليها الأذهان ، وفى مقدمة هذه القيم : تكريم الإنسان وحقن دمه ، ونصرة الضعيف وتحرير الرقيق ، فقد كان الرق نظاماً شائعاً فى العالم بأسره قبل الإسلام ، شاع عند اليونان والرومان وعرب الجاهلية ، ولكن الإسلام قد أوجب حسن معاملة الرقيق ، وحبب فى العتق وجعله كفارة كثير من الجرائم ، مع أننا لا نزال ونحن فى القرن العشرين نعانى من ويلات التفرقة الجنسية والعنصرية حتى فى أرقى الدول حضارة .. ! كما أقر الإسلام حقوق المرأة فسوى بينها وبين الرجل تسوية تكاد تكون تامة ، وبدأ هذا فى التعليم والافتاء فى بعض المسائل الدينية ، والمساهمة فى الشئون العامة

ولم يكن الحجاب من تقاليد العرب فى الجاهلية ولا من طقوس الإسلام الدينية ، وإنما هو عرف استمسكت به بعض الشعوب التى اعتنقت الإسلام .

كما أقر الإسلام الاخوة والعدالة والمساواة فسبق بهذا الثورة الفرنسية بقرون طوال كما أقر الإسلام مبدأ الشورى ، والشورى وإجماع أهل الحل والعقد مصدر من مصادر التشريع فى الإسلام ، وذلك عند افتقاد النص والسابقة التى يقاس عليها .. وهكذا كان موقف الإسلام من القيم الإنسانية منذ أربعة عشر قرنا من الزمان .

الفصل الثانى

الحضارة الإسلامية فى عصرى الراشدين والأمويين

تمهيد عن حضارة العرب فى الجاهلية :

كان العرب فى الجاهلية يميلون إلى سرعة التصديق وقبول الخرافات والأوهام ، لضعف قدرتهم على تعليل الظواهر بمعرفة الارتباط بين العلة ومعلولها ، فأدى هذا إلى خرافات وأساطير حفلت بها كتب الأدب العربى ، ومردّ عقلية هؤلاء العرب إلى بيئتهم الطبيعية ومحيطهم الإجتماعى .

وقد رأى ابن خلدون أن العربى فى الجاهلية متوحش نهاب سلاب ، إذا أخضع مملكة أسرع إليها الخراب ... لايجيد صناعة ولا يحسن علما ، وليس لديه استعداد للاجادة فيهما .. ووصف العرب بحب المادة ، وشاركه فى ذلك المستشرقان أوليرى ***Oleary*** وبراون ***Brown*** بمعنى أن العربى لا يقدّر إلا المادة ، إلا الدرهم والدينار ، ولا قيمة عنده للمعنويات ، وقال ابن خلدون «إن من الغريب الواقع أن حملة العلم فى الملة الإسلامية أكثرهم العجم ، لا من العلوم الشرعية ، ولا العلوم العقلية ، إلا فى القليل النادر ، وإن كان منهم العربى فى نسبه ، فهو عجمى فى مرباه وشيخته .

لكن الحقيقة أن العرب معروفون بالكرم والوفاء وبذل النفس عن سماحة هذا إلى جانب أن ابن خلدون قد زعم أن العرب إذا فتحوا أوطانا أسرع إليها الفساد .. مع أن استقراء التاريخ يشهد بأنهم فتحوا أمما متحضرة تزدهر فيها العلوم ـــ كمصر والشام والعراق وإيران ـــ فلم يسرع إليها الخراب على أيدى هؤلاء الفاتحين ، وإنما ازدادت ثقافتها نموا وازدهارا .. لكنه رد ذلك إلى أن العلوم من جملة الصنائع ـــ الصناعات ـــ وهى إنما تكثر فى الحضر .

إلى جانب أن المستشرق الفرنسى الذى نقل مقدمة ابن خلدون إلى الفرنسية ـــ وهو البارون دى سلان ***De Slane*** قد قرر بعد دراسة جادة لمدلولات ألفاظ المقدمة ، أن ابن خلدون كان يقصد بالعرب من كان منهم من البدو والرحّل والأعراب من سكان البادية الذين يقيمون فى الخيام .. وسنعود إلى بيان هذا ومناقشته بعد قليل .

على أن ابن خلدون لم يقصد إلى هذه المعانى التى ظنها من أيدوه أو عارضوا آراءه من الغربيين والشرقيين على السواء ، ومن الظلم أن يتعرض بسبب آرائه لحملة جائرة شنها عليه الكثيرون . من كتاب العرب ، ممن قالوا إنه شعوبى يكره العرب ، أو أنه ينتمى إلى شعب بربرى قاوم الفتح العربى الإسلامى حتى استسلم له كارها .. مع أن ابن خلدون نفسه قد فسر الظاهرة التى أثارت الكثيرين من قرائه على غير ما فهموه من حديثه ، فقال مفسرا رأيه إن كثرة حملة العلم فى المحيط العربى من غير العرب ، إن العلوم من جملة الصنائع ـــ الصناعات ـــ وهى إنما تكثر فى الحضر ، وبمقدار العمران كثرة وقلة ، وحضارة وترفا ، تكون الصناعات (ومنها العلوم) جودة وكثرة ، والعرب ـــ الرُحّل ـــ أبعد عن الصناعات لأنهم أعرق فى البدو وأبعد عن العمران الحضرى ، والعلوم تتطلب ملكات لا تتهيأ لغير أهل الحضر ، وهم فى ذلك العهد من العجم أو من معناهم من الموالى ، ولهذا كان أكثر حملة العلم فى الإسلام من العجم والمستعجمون لغةً ومربى ... إلى آخر ما يقوله ابن خلدون فى هذا الصدد ...

ووافق الجاحظ الشعوبية الذين رأوا أن العرب ليس لهم علم أو فلسفة ، أو كتب موروثة ، وان امتازوا بطلاقة اللسان وحضور البديهة ، وما من شك فى أن العرب قد تغيروا كثيرا بعد أن أعتنقوا الإسلام الذى بنى الإيمان على العقل ودعا إلى المعرفة كما عرفنا من قبل .

وكانت مظاهر الحياة العقلية عند عرب الجاهلية تتمثل فى الشعر والأمثال والقصص ، أما العلم والفلسفة فلا أثر لهما فى حياتهم ، وهذا ما اقتضاه التطور الحضارى الذى كانوا يعيشونه .

ونزل الإسلام بتعاليم تخالف عقائد العرب ، وزاد ففتح فارس ومستعمرات الروم ، وفيهما أرقى مدنية فى ذلك العصر ، فاتصل العرب بنظم وعلوم وفلسفات جديدة كان لها أبلغ الآثار فى عقليتهم وحضارتهم .

حسبنا هذا لمحة خاطفة عن حضارة العرب فى الجاهلية .

وإذا نحن وقفنا عند المرحلة الأولى لحضارة الإسلام فى القرن الأول للهجرة ـــ أى

عصر الخلفاء الراشدين والأمويين قلنا فى إيجاز شديد[1] :

حضارة الإسلام فى عصر الراشدين والأمويين طوال القرن السابع إلى منتصف القرن الثامن .

قلنا إن أهم معالم الحضارة تتمثل فى العلم وأخوته — من دين وفلسفة وفن وأدب ... وأنها تشيع فى عادات الناس وتقاليدهم وأساليب حياتهم ، وليس فى وسعنا أن نعرض لكل هذه الآثار فى تاريخ الإسلام فحسبنا أن نتبع أظهر وجوهها وأوضح معالمها .

أقبل الإسلام يبشر بمعتقدات ومثل عليا تخالف ما تواضع عليه العرب فى جاهليتهم ، وأفاق العرب على دين يمجد العلم والمعرفة ويدعو إلى قيم عليا جديدة تضىء حياتهم وتتم مسيرتهم فى نور الدين الجديد ، إذ أخذ تفكير الذين أسلموا منهم يبدو منظما فى التشريع والتفسير والحديث والتاريخ ، وبوجه خاص فى حركة العقائد الدينية ومسيرة الآداب العربية ، وقد أشرنا إلى أن الحركة الدينية والعلمية والفنية والأدبية هى أعظم أركان الحضارة وأظهر معالمها ، وقد بدأ المسلمون فى مراحل تاريخهم يعرفون تراث العقول البشرية فى العقليات والنقليات ، ولم يكن المسلمون فى كل ما أخذوا عن غيرهم مجرد نقلة ، بل كانت لهم إضافات تتميز بالجدة والأصالة .

وقد عرفنا أن علوم العرب التى نشأت فى بيئتهم هى الأنساب والشعر والخطابة والانواء (علم الظواهر الجوية) أما العلوم التى اقتبسوها من الأمم الأخرى فهى النجوم والطب والمثيولوجيا والأساطير والكهانة والعرافة والعيافة وغيرها . وقد أغفل الإسلام علوم الكهانة والعيافة والقيافة مما لا يتمشى مع تعاليم الإسلام ، وإنصرف العرب عن العلم فى أول دولتهم لإنشغالهم بالرياسة والسياسة ، وكان العلم عندهم من جملة الصناعات والمهن التى لا يجوز لعربى الاشتغال بها .

---

(١) استعنا فى تتبع الحضارة الاسلامية عامة بمصادر ذكرناها فى مراجعنا ، وأهمها : للأستاذ أحمد أمين : فجر الاسلام وضحى الاسلام بمجلداته الثلاثة وظهر الاسلام بمجلداته الأربعة وجرجى زيدان بمجلداته الخمسة عن تاريخ التمدن الاسلامى . وللشيخ الأكبر : التمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية — وللشيخ الأكبر محمود شلتوت : الاسلام عقيدة وشريعة ، وللدكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد — و « الدوميلى » العلوم عند العرب — وجورج سارتون : تاريخ العلم — و «ول ديورنت» قصة الحضارة .. رحمهم الله جميعا .

وانهزم العرب أمام الأمم التى فتحوها فى النظم السياسية والاجتماعية وما إليها من فلسفة وعلوم .. ولكنهم انتصروا فى مجالين : اللغة والدين ، سادت لغتهم كل البلاد المفتوحة وأصبحت لغة السياسة والعلم ، وساد الإسلام هذه الأقطار واعتنقه أهلوها ، وكان للعرب حضارة مزدهرة فى جنوب غربى الجزيرة منذ خمسة وعشرين قرنا من الزمان ، وانتشرت شمالا فالتقت بحضارات سياسية واجتماعية واقتصادية وفنية ودينية ، وفى مدن الجزيرة العربية مظاهر للمدينة ، ولم تكن جزيرة العرب بمعزل عن العالم الخارجى ، إذ كانت على إتصال تجارى وثقافى به .

وأخذ العرب المسلمون ينشرون الإسلام واللغة العربية خارج جزيرتهم بين الشعوب التى فتحوها ، ونشأت الحضارة الإسلامية فى كنف القرآن الكريم والسنة النبوية ، وكانت الأمم التى فتحها المسلمون ذات حضارات مزدهرة ، فتحوا العراق وفارس والشام ومصر ، وكانت هذه البلاد ذات مدنيات مزدهرة ، ونشأ عن فتحها عملية مزج قوية بين الأمة الفاتحة والأمم المفتوحة ، وبدت أعظم مظاهر هذا المزج فى النظم الاجتماعية والآراء العقلية والعقائد الدينية ، ودخلت البيت العربى عناصر فارسية رومانية أو مصرية أو سورية ، ودخل فى الإسلام كثيرون من أهل البلاد المفتوحة وامتزجوا بالعرب ، واشترك الفاتحون بأهل البلاد التى فتحوها فى الحركة الإجتماعية والاقتصادية .. وبهذا كله امتزجت العادات العربية بالعادات الفارسية والرومانية ، وقوانين الفرس والرومان بأحكام القرآن والسنة ، كما امتزجت حكم الفرس وفلسفة الروم بحكم العرب ... وهكذا تأثرت بهذا الامتزاج كل مرافق الحياة والنظم السياسية والاجتماعية ، والطبائع العقلية ، وكانت الأمم المفتوحة أرقى من العرب مدنيةً ، ولهذا سادت مدينتهم وإن عدلها العرب بما يلائم عقليتهم ، وكان للمغلوبين حكم وأمثال وشعر وأدب وأسهمت هذه كلها فى نشأة الحضارة الإسلامية التى كان مدارها ومرجعها إلى الدين الإسلامى .

وقد عرفنا أن العرب فى الجاهلية لم يكن لديهم علم أو فلسفة ، بل إن الأمية قد فشت بينهم لان العلم والكتابة يكثران مع كثرة العمران وبنزول القرآن استكتب النبى بعض الذين يعرفون الكتابة لتدوين ما ينزل به القرآن من آيات ، وفوق هذا كان نشر الدين

يحتاج إلى من يعرف القراءة والكتابة ، بل إن النبى قد دعا أصحابه إلى تعلم غير العربية حين تدعو الحاجة إلى ذلك ، ثم إن الفتح الإسلامى استتبع الحضارة فبنيت الدور والقصور ، واقتنى كثير من الصحابة الأموال والجنان والعيون ، ومن ثم ارتقت الكتابة والصناعة ، ونشر الإسلام تعاليمه بين أمم عرف عنها وعرفت عنه ما كان مجهولا ، وأهم من هذا كله أن الإسلام قد سلك فى دعوته إلى الإيمان مسلكا يثير التفكير ، فدعا إلى النظر إلى ما فى العالم من ظواهر ، واتجهت الحركة العلمية فى صدر الإسلام حتى آخر الدولة الأموية إلى ثلاثة اتجاهات تتمثل فى نشاط دينى يبدو فى تفسير القرآن والحديث النبوى بجمعه وتبويبه ، وفى التشريع الدينى باستنباط أحكام لما يعرض من أحداث — وسنعود إلى بيان هذا بعد قليل .

ومع هذا بدأت حركة فى علم التاريخ والقصص والسير ونحوها ، ومعها حركة « فلسفية » تتمثل فى دراسات منطقية وكيميائية وطبيعية ونحوها ، وكانت هذه الحركات كلها نواة تكونت حولها علوم بمعنى أكمل ، وبدأ بلاط الخلفاء فى استخدام أطباء من النصارى .. وكل هذه الحركات العلمية كانت تتساند ويعاون بعضها بعضا ، لأن التخصص لم يكن قد عرف بعد .

وقد شجع الأمويون الحركة الأدبية ممثلة فى الشعراء والخطباء ، وعينوا القصاص فى المساجد ولم يفعلوا ذلك مع العلماء والفلاسفة .. وكان للحديث أكبر الأثر فى نشر الثقافة فى العالم الإسلامى ، وذلك لإقبال المسلمين على دراسته ، وهو يقوم على تفسير القرآن وفهم تعاليمه .. وبهذا وبغيره انتشرت فى العالم الإسلامى ثقافات مختلفة ، فبدأ علم التاريخ وكانت قصص الأنبياء والحكم وقواعد الأخلاق مع شئ من فلسفات اليونان والهنود والفرس ، وكان الحديث أوسع منبع للتشريع فى العبادات والمسائل المدنية والجنائية .

ومنذ ظهور الإسلام بدأ يستقر الطب والطبيعيات والفلسفة فى الاسكندرية ، وفى اواخر القرن الأول فى عهد عمر بن عبد العزيز انتقل ذلك إلى أنطاكية ، وكان مركز العلوم الإسلامية فى بدايتها فى المدينة ثم هاجرت إلى البصرة والكوفة ، ثم إلى بغداد التى أنتقلت إليها العلوم الوافدة من فلسفة وطب وسائر العلوم العقلية .

بقى أن نقول كلمة خاطفة عن التشريع :

ظهور التشريع الإسلامى فى ذلك العصر

منذ القرن الأول والثانى للهجرة وجدت نزعة إلى إستخدام الرأى ــ أى الاستعانة بالعقل ، عن طريق الإستشارة فيما لم فيه نص ، واشتهرت مدرسة العراق بالرأى وإعمال القياس وكان إمامهم فى هذا هو الإمام أبو حنيفة بوجه خاص ، وكانوا يقللون من رواية الحديث ، بل غـلا قوم منهم فرأوا عدم الأخذ بالحديث ، يقول أستاذنا الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق : إن الاجتهاد بالرأى فى الأحكام الشرعية كان بداية النظر بالعقـل، عن طريـق الإستشارة فيمـا لم فيـه نص واشتهرت مدرسة العــراق بالــرأى المذاهب الفقهية ، وأينع فى جنباته علم فلسفى هو علم أصول الفقه ، ونبت فى تربته التصوف ، وذلك من قبل أن تفعل الفلسفة اليونانية فعلها فى توجيه النظر العقلى عند المسلمين إلى البحث فيما وراء الطبيعة والإلهيات على أنحاء خاصة ، وعلى الباحث فى تاريخ الفلسفة الإسلامية أن يدرس الاجتهاد بالرأى منذ نشأته الساذجة إلى أن صار نسقا من أساليب البحث العلمى له أصوله وقواعده ، لأن الاجتهاد بالرأى ــ وهو مرادف للقياس بمعناه العام ــ هو بداية التفكير الفلسفى عند المسلمين .

وهكذا نشأ الاجتهاد بالرأى ــ بمعناه العام ــ فى التشريع القرآنى مع القرآن والسنة منذ عهد النبى ، أو هو نشأ بعد عهد النبى ، وظل الرأى أصلا من أصول التشريع يستعمل كثرة وقلة ، وضيقا وسعة على حسب الحاجة إليه بكثرة السنن المروية ــ كما فى الحجاز ــ وقلتها ــ كما فى العراق .

وعلى هذا كان التشريع فى عصر النبى يقوم على الوحى من الكتاب والسنة ، وعلى الاجتهاد بالرأى من النبى ومن أهل النظر ، والاجتهاد من أصحابه ، ومن المسلمين من كان يرى أن النبى على شريعة العقل قبل أن يأتيه الوحى ، وكان النبى يتعبد قبل الوحى بشريعة العقل ، وظل على ذلك إلا فيما غيّره الشرع الجديد ، وكان العقل أصلا من أصول التشريع فيما لم ينزل به تنزيل .

وجاء عهد الخلفاء الراشدين ، واتفق الصحابة فى ذلك العهد على استعمال القياس فى

الوقائع التى لا نص فيها ، من غير تكبر من أحد منهم ، وفى هذا العهد بدت الصورة الأولى للإجماع .

وفى عصر بنى أمية (٤٠ ـــ ١٣٢ هـ) استعمل لفظ الفقه للدلالة على استنباط الأحكام الشرعية بالنظر العقلى فيما لم يرد فيه نص من كتاب أو سنة ، وسمى أهل هذا الشأن الفقهاء .

ولما إنتهت الخلافة إلى العباسيين شجع الخلفاء الحركة العلمية ، واهتموا بترجمة التراث الحضارى عند مؤسس الحضارات القديمة من الأمم ، وانتعشت العلوم الدينية فى ظلهم، بل كانت حركة النهوض أسرع إلى العلوم الشرعية لأنها كانت فى دور نمو طبيعى ، ونهض العباسيون لإحكام الصلة بين دولتهم وبين الشرع ، ونشأت العلوم وبدأ تدوينها وتكونت المذاهب الفقهية ، ووضع علم أصول الفقه ، وظهرت الخلافات بين المذاهب ظهورا واضحا فى الأصول وفى الفروع ، فكان أهل العراق أهل الرأى وإمامهم ابو حنيفة ت ١٥٠ هـ وكان أهل الحجاز أهل الحديث لوفرة حظهم منه ، مع قلة استعمالهم للرأى ـــ وإن سلموا بأنه أصل من أصول التشريع ، وإمامهم مالك بن أنس ١٧٩ هـ وتوسط أهل الحديث وأهل الرأى الشافعى ت ٢٠٤ هـ ـــ وكان الشافعى واضع أصول علم الفقه ، وفى رسالته بدت مظاهر التفكير الفلسفى ، وكان شراحها متكلمين وفقهاء ، والمتكلمون هم الذين يدافعون عن الدين بالحجة والمنطق ويفندون حجج خصوم الإسلام بالنظر العقلى ، وقد وضعوا أيديهم على علم أصول الفقه وغلبت طريقتهم فيه طريقة الفقهاء ، فنفدت إليه آثار الفلسفة والمنطق ، واتصل بهما إتصالا وثيقا ، وقد نبه شيخنا إلى قوة الصلة بين العلوم الفلسفية وعلم الكلام وعلم التصوف الشرعيين .

ويقول شيخنا إن أثر العوامل الأجنبية الوافدة المؤثرة فى الفكر الإسلامى وتطوره مهما يكن من شأنها فهى أحداث طارئة صادفت شيئا قائما بنفسه فاتصلت به ولم تخلقه من عدم ، وكان بينهما نماذج أو تدافع لكنها على كل حال لم تمح جوهره محوا .

وهكذا كان اتجاه شيخنا فى تاريخ النظر العقلى ونشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ، نبت فى أرض إسلامية ، ونما وأينع فى ظل الإسلام ، ثم دخلت عليه عناصر أجنبية

فتفاعل معها ، واستمد منها قدرة على مزيد من النمو والازدهار ... وتبنّى هذه الوجهة من النظر جمهرة تلاميذه من بعده ، وأشاعوها فى الجامعات وخارجها ...

وقد اتصلت الدولة الأموية بمدنيات مختلفة وديانات متعددة وأنظمة متباينة ، فأدى هذا بالمسلمين إلى التصدى للإجابة على أسئلة أثارها ذلك الوضع ... وتطلب علم التشريع فقها فى الدين ومعرفة واسعة بالكتاب والسنة .

ولكن حكماء الدولة الأموية لم يهتموا بشئون التشريع إلا قليلا ، ولم تكن المذاهب الأربعة قد نشأت بعد .

ومنذ ممات الرسول نشأت الفرق الدينية من خوارج وشيعة ومرجئة ، وكانت أولى المشاكل التى واجهتهم أن الرسول لم يعين قبل وفاته من يخلفه ، ولم يبين كيف يكون اختياره ، وحسبنا أن نشير الآن إلى موقف المعتزلة الذين كانوا حماة الدين بالعقل ومنطقه ، فمن ذلك قولهم بمقدرة العقل على معرفة الحسن والقبح ولو لم يرد بهما شرع ، فالقيم الأخلاقية صفات كامنة فى طبائع الأفعال الإنسانية تجعل حسنها أو قبحها ثابتاً لا بتـغير بتغير الظروف والأحوال ــ كما قال العقليون المثاليون من الغربيين ــ من هنا قالوا إن الإنسان مكلف ــ ملتزم بتعاليم الله ــ ولو لم تبلغه الرسالة ــ على عكس ما كان يقول أهل السنة[١] .

وحسبنا أن نشير الآن إلى أن المعتزلة كانوا أكثر فرق المتكلمين فى الإسلام استفادة بالفلسفة اليونانية ، وكانوا بحق أول مؤسسى علم الكلام الإسلامى ، وأول متسلح بالمنطق فى محاربة أعداء الإسلام من اليهود والمجوس والنصارى وغيرهم .

وقد شاع فى العصر الأموى الجدل فى مشكلة الجبر والاختيار ، وفى مدى إيمان مرتكب الكبيرة أو كفره ، ونحو ذلك من مشكلات أثارت جدلا كثيرا فى العصر الأموى بين الخوارج والشيعة والمرجئة والمعتزلة وغيرهم ، وكانوا كثيرا ما يضعون السيف ليلتقوا فيما يشبه المؤتمر أو الندوة للبجدل وتأييد مذهب أو تفنيد آخر .

---

(١) بدأ رأى المعتزلة بعد ذلك بعدة قرون عند أفلاطونيى كمبردج فى القرن السابع عشر فى ردهم على متأخرى علماء اللاهوت الذين رددوا رأى أهل السنة من المسلمين .

وهذه الحركات العلمية كانت فى الدولة الأموية على حال من السذاجة ، فلم تبلغ درجة القواعد المنظمة والعلوم المتميزة ، إنما كان ذلك فى العصر العباسى الذى انتصر خلفاؤه للعلم وأهله ، فطوروا ما كان من أمره فى الدولة الأموية ، وشجعوا حركة الترجمة التى نقلت إلى العرب المسلمين تراث الأمم ذات الحضارات القديمة كما سنعرف بعد حسبنا هذه اللمحة الخاطفة إلى حضارة الإسلام فى مرحلتها الأولى خلال القرن السابع إلى منتصف القرن الثامن — وسنعرض فيما بعد للأمويين الذين افتتحوا أسبانيا ونشروا حضارتهم فى بلاد الأندلس — ومنها انتقلت إلى أوربا — كما سنعرف بعد .

ننتقل الآن إلى المرحلة الثانية :

الباب الرابع

مسيرة الحضارة الإسلامية فى العصر العباسى

تمهيد :

الحضارة الإسلامية فى عصر الترجمة من منتصف القرن الثامن حتى آخر القرن التاسع - الحضارة الإسلامية فى عصرها الذهبى فى القرنين العاشر والحادى عشر - الصناعة والتجارة - تدهور الحضارة الإسلامية بالمشرق خلال القرنين الثانى عشر وما بعده - فصل ختامى

مسيرة الحضارة الإسلامية فى مرحلتها الثانية فى العصر العباسى :

نقبل الآن على ذروة الحضارة الإسلامية كما تتمثل فى الحركات الدينية والعلمية والفلسفية والفنية والأدبية ، وما تضمنت هذه الحركات من دلالات على طرق المعيشة وأساليب الحياة عند المسلمين وسنعرض لهذه الحضارة فى ثلاث مراحل : نتناول فى أولاها عصر الترجمة الذى بدأ فى منتصف القرن الثامن للميلاد فى مطلع العصر العباسى (١٣٢ هـ / ٧٤٩ م) حتى نهاية القرن التاسع - وهذا هو عصر الترجمة ، وفى المرحلة الثانية نتناول الحضارة الإسلامية بعد أن تفاعل الأجنبى الوافد مع الفكر الإسلامى الأصيل فكانت الأصالة والجدة والابتكار خلال القرنين العاشر والحادى عشر ، وفى المرحلة الثالثة نعرض فى إيجاز لتدهور الحضارة وقد بدأ فى القرن الثانى عشر حتى منتصف القرن الثالث عشر حتى فتح المغول بغداد عام ١٢٥٨ م وحولوا المدينة المضيئة بأنوار العلم إلى كومة من الخرائب ، وألقوا بآلاف المخطوطات فى مكتبة بغداد إلى نهر دجله حيث شكلت جسرا يعبر عليه الناس النهر مشاة على أقدامهم .

وبعد ذلك سارت الحضارة الإسلامية بالقصور الذاتى أى بدوافعها القديمة ، وبغير دوافع جديد يمدها بالحيوية والنشاط ، وكانت أوربا فى تلك الحقبة من الزمن قد همت بالنهوض فكانت النهضة الأوربية من عام ١٣٠٠ ، ولم تدب الحياة فى العالم الإسلامى إلا بعد إتصاله بالنهضة الأوربية فى مصر حين وفد عليها نابليون يحمل معه مطبعة وعلماء ، وأخذ محمد على والى مصر يرسل البعثات العلمية من الأزهر الشريف إلى باريس ، وإتصل لبنان بفرنسا - والآن مراحل الحضارة الإسلامية السالفة الذكر ، ونبدأ بالمرحلة الأولى :

الفصـل الأول

الحضارة الإسلامية فى عصر الترجمة من منتصف القرن الثامن حتى آخر القرن التاسع :

بدأت حركة من أوسع حركات الترجمة فى تاريخ البشرية وفيها نقل المسلمون تراث الأمم ذات الحضارات القديمة (من فارس والهند واليونان) وسنعرض لبيانها بالتفصيل فى باب اللقاءات الحضارية فى انفتاح العالم الإسلامى على اليونان قديما .

ونضيف الآن إلى ما قلناه عن حركة الترجمة فى كتاب سابق لنا أن المترجمين الذين احتلوا مكان الصدارة فى نقل التراث الحضارى القديم إلى لغة العرب هم المترجمون من اليونانية إلى السريانية ومنها إلى العربية وقد اهتموا بالطب وفى مقدمتهم جرجيس بن جبريل بن بختشوع + ٧٧١ م (وهو من مدرسة جند يسابور ثم حفيده جبريل بن بختيشوع + ٨٠٠ م وأبو يحيى البطريق ت ٨٠٠ م ومحمد بن إبراهيم الغزارى ٨٠٠ م وكان أبوه فلكيا .

ومن أكبر علماء العصر أبو زكريا يوحنا بن ماسويه + ٨٥٧ وعلى الطبرى وهو ابن فلكى معروف هو سهل الطبرى الذى قيل إنه أول من ترجم كتاب المجسطى لبطليموس وألف كتاب فردوس الحكمة فى الطب وكان هذا النشاط العلمى يشد أزره الخلفاء . وفى ذلك القرن ظهر بنو مرسى أولاد موسى بن شاكر وهم رياضيون فلكيون وحملة للعلوم ومترجميها ، وقد اشتهر من المترجمين حنين بن إسحاق وهو شيخهم وثابت بن قرة ، وعلى يد هؤلاء اجتاز العرب مرحلة الترجمة إلى مرحلة العلماء الأصلاء .

وكان حنين + ٨٧٧ رئيس مدرسة ضمت أبا يعقوب إسحاق بن حنين + ٩١٠ وابن حبيش بن الحسن ، وبعد هؤلاء نشأت أصالة العلم العربى الإسلامى . وعلينا أن ننبه إلى أن حماية العلماء ورعايتهم لم يقم بها الخلفاء وحدهم ، بل شارك فيها أصحاب القصور والبلاطات فى الدول الإسلامية التى نشأت بعد استيلاء العباسيين على الخلافة التى كان لها فضل عظيم على تنمية الحضارة والعلوم الإسلامية ، وفى مقدمة هؤلاء كان

خلفاء الطولونيين فى مصر وسوريا (٨٦٨ ــ ٩٠٨) وبعد ذلك جعل الفاطميون من مصر وعاصمتها (القاهرة) مركزا علميا ربما أسمى من بغداد .

ومن مدرسة حنين كان إصطفاف بن سهل الذى ترجم تسعة كتب من جالينوس وكان أول من ترجم كتب ديسقوريدس + ٦٠ م Discordl أشهر علماء النبات الأقدمين ، وقد نما علم النبات على يد العرب واستخدموه فى الطب والصيدلية والفلاحة .

ومن هذا نرى أنه وجد منذ القرن التاسع علماء من العرب المسلمين على مستوى عال من الأصالة والابتكار ، فلم يقتصر دورهم على نقل معارف القدماء بل أضافوا إلى العلم القديم الكثير من أفكار جديدة أوحت بها خبراتهم العملية وتأملاتهم العقلية .

والعلم الذى ازدهر عند المسلمين منذ القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر هو العلم العربى الاسلامى الذى ساد العالم الاسلامى وكان له أبلغ الأثر فى تنمية الفكر الأوربى وازدهاره . وأوج العلم العربى فى الشرق فى مرحلته الأولى كان فى أواسط القرن التاسع .

وقد كان المأمون تشجع العلماء والمترجمين ، وقد أسس بيت الحكمة ببغداد وزوده بمكتبة ومرصد فلكى ، وأمر بتقدير حجم الأرض ورسم خريطة جغرافية كبيرة ، واشترك فى ذلك الخوارزمى الشهير بأبو القاسم بن خردليزية ت ٩١٢ فى كتابه عن المسالك والممالك . وظهر الكندى ت ٨٧٣ م أول فلاسفة العرب ، وازدهرت جغرافية الخرائط العربية وكان أكبر علامها الشريف الأدريسى ت ١١٦٦ أعظم جغرافى العرب ــ كما ستعرف عند الحديث على (انفتاح أوربا على التراث العربى فى صقليه) .

وفى الرياضيات والفلك إبان هذه المرحلة نلتقى بعلماء كبار أشهرهم محمد بن موسى الخوارزمى ت ٢٣٦ هـ / ٨٥٠ م وقد وضع كتابا عن (صورة الأرض) قال عنه نللينو ان مثل هذا الكتاب لاتقوى على تأليفه أمة أوربية فى فجر نهضتها العلمية ، وإلى الخوارزمى يرجع الفضل فى وضع أصول علم الجبر ومقوماته ، وأقدم جداول حساب المثلثات ، ثم هو صاحب الحلول التحليلية والهندسية لمعادلات الدرجة الثانية ، وقد عولت الجامعات الأوربية على كتابه فى (الجبر والمقابلة) حتى القرن السادس عشر ،

وعنه عرفت كلمة لجبر فى اللغات الأوربية واتتضح كتابه عصرا جديدا فى الرياضيات فى أوربا وفى العالم الإسلامى .

وجاء بعده ثابت بن قرة ت ٩٠١ زعيم مدرسة المترجمين وقسطا بن الوقا + ٩١٢ وابن الداية المصرى ت ٩١٢ والفرغانى الفلكى الذى أخذ بنظرية الاهتزاز الأرضى ، وكانت مقاييسه لمسافات الكواكب وحجمها معتمدة عند كثيرين من العلماء حتى أيام كوبرنيكوس + ١٥٤٣ - وكانت أرقامه فى أحجام الكواكب هى : القمر ٣٩٪١ من حجم الأرض ، وعطارد ١,٣٢٠٠٠ : الزهرة ١,٣٧ والشمس ١٦٦ ضعفا للأرض والمريخ ١٥/٨ والمشترى ٩٥ ضعفا وزحل ٩٠ ضعفا للأرض .

وقد حدد البتاتى ت ٣٣٤ هـ/ ٩٢٩ م بدقة عظيمة ميل فلك البروج وطول السنة الشمسية وأبطل نهائيا كثيرا من نظريات بطليموس وفى العلوم الفيزيقية نذكر الجاحظ بكتابه فى الحيوان وفى علوم الطبيعيات من صيدلة وكيمياء قديمة ، ونذكر فى الطب سابور بن سهل ت ٢٥٢ هـ/ ٨٦٦ م أول من وضع الأقربائيين ، ثم أطباء العرب الكبار مثل زكريا الرازى ت ٩٢٥ م وكان رئيس الأطباء فى بيمارستان المدينة ، ومؤسس بيمارستان بغداد وتولى رئاسته ، وفى الكيمياء رفض السحر والتنجيم وجاهر بأنه لايسلم إلا بما تثبته التجربة عن حقائق ، والغربيون من مؤرخى الطب من ادور وبراون ووليم أوسلو وجاريسون وكامبل يعدونه أعظم أطباء عصره غير منازع ، فإنه فى رأى الدوميلى مؤسس الكيمياء علما تجريبيا ، لأنه خلص الكيمياء من الرمزية والغموض وبناها على أسس علمية تجريبية ، وفى كتابه سر الأسرار ــ شرح الأدوات التى كان يستعين بها ، والطرق التى اصطنعها فى إعداد الخمائر المطلوبة ، وكان من العلماء الذين حاربوا الاتجاه القديم فى تحويل المعادن الخسيسة إلى دهب أو فضة ــ كما فعل البيرونى وابن سينا بعد ذلك .

وأعظم كتبه كتاب الحاوى (الجامع الحاصر لصناعة الطب) وهو دائرة معارف ضخمة جدا ، يتضمن تاريخه فى العلاج العملى فى المستشفيات وقد ترجم عدة ترجمات إلى اللاتينية .

هذه لمحة إلى الحضارة الإسلامية فى المرحلة الأولى من العصر العباسى من بدايته فى منتصف القرن الثامن للميلاد حتى آخر القرن التاسع ـــ أى خلال عصر الترجمة) وقد عرض الأستاذ أحمد أمين لوصف الشطر الأول من هذه المرحلة فقال عنه إنه يتميز بغلبة العنصر الفارسى ، وبنصيب من حرية الفكر ، وبدولة المعتزلة وسلطاتهم ، وبتكوين الأدب من شعر ونثر لونا احتذى على كرالدهور ، واختلاف العصور ، كما تميز بتحويل ما باللسان العربى إلى قيد فى الدفاتر وتسجيل فى الكتب ، ومال باللسان الأجنبى إلى لغة العرب ، وهو فى كل هذا يخالف ما سبقه وما أعقبه من عصورة إلى جانب حركة واسعة النطاق لترجمة تراث الأمم ذات الحضارات ـــ من اليونان والفرس والهند ـــ إلى لغة العرب ، فكان العصر بحق هو عصر الإسلام الذهبى الذى امتد خمسة قرون من الزمان ، حين قضى التتار على أمجاد الإسلام بغزو بغداد وتخريب حضارتها كما سنعرف بعد .

ونقول مقدما إن حضارة هذا العصر كانت مجرد امتداد وتطوير لحضارة الأمويين ، وليست خلقا جديدا من عدم ، فمن ذلك أن الأمتزاج بين الفاتحين والأمم المفتوحة بدا فى عهد عمر ، ثم ظهر فى العهد الأموى جيل جديد يحمل الدم العربى والأجنبى معا ، وازداد النفوذ الاجتماعى والحضارى أيام بنى العباس ، وتبادل العرب والفرس والرومان عناصر حضاراتهم ، ففى أواخر العصر الأموى نظمت حلقات الدروس فى المساجد ، ومباحثات العلماء فى مشكلات القدر وغيره ، وأدت المناقشات مع اليهود والنصارى إلى الكتابة والتأليف والترجمة ، فنمو الحركة العلمية فى العباسية كان تطورا طبيعيا لمثيلتها فى عصر الأمويين وضعفت عوامل زادت نموها أيام العباسيين ، فى مقدمتها غلبة العنصر الفارسى ومناصرة أهله للحركة الثقافية .

وعرفت فى هذا العصر أربع ثقافات : هى الفارسية واليونانية والهندية والعربية ، وصاحبتها ثقافات دينية تمثلت فى الثقافة الإسلامية واليهودية والنصرانية .

كان أكثر الوزراء فى ذلك العصر من الفرس ، وكان الوزير يقوم مقام الخليفة فى كل شئون الدولة ، والوزراء هم أرباب الاقلام ، يساعد كل منهم أعوان يسمون بالكتاب ،

يتصفون بسعة الثقافة ، خاصة فى اللغة والأدب وعلوم الدين ، والفلسفة والتاريخ والنجوم والمنطق .. وقد أدخلوا إلى العربية الثقافة الفارسية .

ولما انتقلت عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد ، أصبحت بغداد أهم مركز للحضارة والثقافة فى المملكة الإسلامية ، بل فى العالم كله إلى نهاية القرن الخامس الهجرى وبسقوطها فى يد التتار عام ١٢٥٨ م اضمحلت الحياة الفعلية ، وتوقفت أوربا عن نقل التراث العربى إلى لغاتها كما سنعرف بعد وترجمة الكثير من الكتب الفارسية إلى العربية فى ذلك العصر وتمكن العرب من تعلم الفارسية بتراثها الثقافى، من علم وحكمة وأمثال وقصص وشعر ونثر ... وغيره مما نقله ابن المقفع وأمثاله إلى العربية ، بل إن الفرس قد نعربوا وكان من أثر هذا كله أن تغلغلت فى العرب عادات فارسية وفنون لهو وترف وإفراط فى طلب الملاذ... وغير هذا مما لم يكن مألوفا للعرب .

ومن هذا المنطلق يبدو أن الفكر العربى وعلماءه قد تعرضوا لحملة ضارية شنها عالمنا ابن خلدون ، وتابعه فيها بعض المستشرقين .

وكان أكبر حماة للثقافة ـــ فارسية أو غير فارسية ـــ هم البرامكة ، وكانوا أصحاب مال وكرم وعلم وأدب وفصاحة وثقافة عريضة ، مع نفوذ يمكنهم من تحقيق رغباتهم وآمالهم ، وكانت عنايتهم ملحوظة بالثقافة الفارسية واليونانية والهندية والعربية جميعا .

وفتح العرب الهند وتبعت ذلك حركة علمية نشأت عن إتصال العرب بثقافة الهند وحضارتها ، ونبغ الكثيرون فى الشعر واللغة والحديث من الموالى من الهنود الذين غنموا فى الحرب ووزعوا على قادة الجيش العربى وجنوده ، وأثر الهنود فى الثقافة الإسلامية عن طريقين : التجارة والفتح العربى ـــ ومن هنا كان التبادل الثقافى بين الهنود ، والمسلمنين ، بل إن الفرس قد نقلوا الكثير من وجوه الثقافة الهندية وأدمجوها فى ثقافتهم ، وانتقلت إلى المسلمين مع الثقافة الفارسية ، وكانت الهند على علم بالحساب والنجوم وأسرار الطب والالهيات والرياضيات والصناعات الكثيرة العجيبة .

وبأمر من الخليفة جعفر المنصور ترجم الغزارى كتاب السند هند فى حساب حركات الكواكب وقد استخرج من زيكا اشتهر بين العرب حتى أيام المأمون ، ويقول نللينو + ١٩٣٨ C.A. Nallion إن كتب الهند كانت شديدة التأثير فى نشأة ميل العرب

فى أوائل نمو الفلك عند العرب ، وأن تأثير علماء الهند والفرس فى نشأة ميل العرب إلى الفلك قد سبق تأثير اليونان ولو بزمن قليل ، واتفق فللينو مع البيرونى ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨ م فى أن فلكيى الهنود لا يبحثون عن العلل والبراهين ، وأخذ العرب بعض المصطلحات الرياضية من الهنود كلفظة الجيب فى حساب المثلثات ، ونظريات الهندسة فى الحساب والهندسة ، وكان فى بغداد أطباء من الهنود مع غيرهم من اليونان ، وأفاد الأدب العربى من الهنود عن طريق التجارة ألفاظا عربية عربت ورد بعضها فى القرآن الكريم كالزنجبيل والكافور .

حسبنا هنا لمحة خاطفة إلى الحضارة الإسلامية فى مرحلتها الأولى من العصر العباسى وهى تشمل عصر الترجمة ، ولنشرع الآن فى الحديث عن مرحلتها الثانية التى بلغت قمة ازدهارها خلال القرنين العاشر والحادى عشر .

الفصـل الثـانى :

الحضارة الإسلامية فى عصرها الذهبى فى القرنين العاشر والحادى عشر :

فى هذه المرحلة بلغ العلم العربى بمختلف أبعاده قمة ازدهاره بالمشرق العربى الإسلامى خلال القرنين العاشر والحادى عشر ، فكان هذا هو العصر الذهبى للحضارة الإسلامية[1] فأما القرن العاشر فقد كان أعظم اعلامه ابو نصر الفارابى ت ٣٣٩/٩٥٠ م وقد شرح أرسطو وفورفوريس وبطليموس وعنى بالمسائل النفسية والميتافيزيقية وبحث فى تصنيف العلوم وقواعدها الأساسية ، واشتهر بأنه المعلم الثانى (بعد أرسطو) وعده الأستاذ الدكتور ابراهيم مدكور أعظم فلاسفة الإسلام .

وأبو حامد الغزالى ت ٥٠٥ هـ/ ١١١١ م حجة الإسلام الذى أسس علم الكلام على مذهب أهل السنة وكان من أئمة الصوفية الذين يجرى تصوفهم على الكتاب والسنة ، وهو عند بعض المؤرخين أعظم من نظيره فى المسيحية ، وهو القديس توما الأكوينى + ١٢٧٤ ***Th.quinus*** وتميز الغزالى بحملته الضارية على الفلسفة وأهلها ، ومحاربة للعقل ــ دون القلب ــ أداة للمعرفة .

أبو الفرج بن النديم ت ٩٩٥ ، وأشهر كتبه فهرس العلوم ، وهو غزير المادة فى تراجم الكتب والعلماء إلى عصره .

ثم عرف القرن العاشر أعظم ثلاثة أعلام للفكر العلمى والفلسفى فى تاريخ الإسلام ، هم البيرونى ت ٤٤٠ هـ/١٠٣٧ م وابن سينا ٤٢٨/١٠٤٨ م والحسن بن الهيثم ت ٤٢٠ هـ/١٠٢٩ . وقد اشتهر أولهم بكتابه عن تاريخ الهند (تحقيق ما للهند من مقوله ، مقبولة فى العقل أو مرذولة) وفيه عنى بدراسة العقائد الدينية والمعارف العلمية عند الهنود ، ويذكر له المستشرقون دقته فى تقديراته للثقل النوعى وحركات الشمس ،

---

(١) هذا هو رأى بعض المستشرقين ، مع أن أكثرهم يرون أن العصر الذهبى للاسلام يبدأ ببداية العصر العباسى فى منتصف القرن الثامن للميلاد ويستمر حتى سقوط بغداد فى أيدى التتار عام ١٢٥٨ (أى خمسة قرون من الزمان) ويعنى هذا أن هؤلاء أضافوا إلى العصر الذهبى للاسلام عصر الترجمة ، ثم أضافوا قرنا ونصف قرن (١٢ إلى منتصف الثالث عشر) مما يعده بعض المستشرقين عصر تناقص العلم العربى وتدهور الحضارة الاسلامية .

الاسطرلاب والظواهر التى تبدو فى أوقات الشفق وكسوف الشمس ، وأبان عن طريقه استخراج الملح من ماء البحر ، وكشف عن قوانين عالم النبات ... وقد حدد الثقل النوعى لمواد جهازه المخروطى الذى يعتبر أقدم مقياس للكثافة . وبمقارنة أوزان المواد عنده بها عند الخازن ، وعند المحدثين من العلماء الغربيين تبدو دقته البالغة فى بحوثه .

أما ابن سينا عالم المسلمين وفيلسوفهم الأكبر فقد كان كتابه القانون فى الطب أشهر من كتاب الرازى وكان أعظم من الفارابى فى الموسيقى الذى كان وثيق الصلة بالعلم والفن عند اليونان وعند العرب . ومن كتبه المعروفه الشفاء وهو موسوعة فى ثمانية عشر جزءا ، وقد لخصه فى كتاب النجاة إلى جانب تسع وسائل فى الحكمة والطبيعيات وله أخيرا كتاب الإشارات والتنبيهات ..

أما عن الحسن بن الهيثم ت ٤٢٢ هـ/ ١٠٢٩ م فقد كان رياضيا وعالما بالطبيعيات على وجه أخص وقد اعتبره الكثيرون أعظم علماء العرب ، وقد أثر كتابه المناظر فى علماء العصور الوسطى بعد ترجمته إلى اللاتينية عدة مرات ، ومن أكبر من تأثروا به واتيلو + ١٧٢٠ Witelo وروجر بيكون + ١٢٩٢ Bocon وليوناردو دافنشي+ ١٥١٩ Leonoado davinci وكبلر + ١٦٣٠ Kepler وغيرهم من العلماء الغربيين .

وابن الهيثم هو منشىء علم الضوء من غير منازع، وتتميز دراساته بدقة أوصافه للعين وإدراك الرؤية وتفسير ظاهرة الإنكسار الجوى .. وقد درس بمنهجه العلمى الدقيق إنعكاس الضوء ، ووضع نظرية كانت إجابة على هذا السؤال :.

إذا كان لدينا مرآة اسطوانية ، وشيء يشبه النقطة ، فكيف نحدد الوضع الذى تتخذه العين لترى هذا الشيء فى المرآة ؟ وكانت إجابة ابن الهيثم فى صورة معادلة من الدرجة الرابعة حلها عن طريق خط تقاطع دائرة وقطاع زائد ...

وهكذا بدت نزعته العلمية الدقيقة فى نظريته فى إنعكاس الضوء ، وكان من رأيه أن الضوء ينشأ عن المرئيات ولا ينبعث من العين ليلمسها كما ظن خطأ أسلافه من القدماء وتلت ذلك مرحلة ظهر فيها علماء رياضة وفلك وجغرافيا وطب .

إحدى عشرة منها فى التصوف والسحر والتنجيم. وأثرت هذه الموسوعة فى المشرق تأثيراً بالغا ، وأسهمت فى إيجاد حركة علمية فى بلاد الأندلس .

وهكذا كان العصر الذهبى لحضارة المشرق فى القرنين العاشر والحادى عشر ، وبعده أخذت شمس الحضارة الاسلامية تميل إلى الغروب ، وأخذ يخبو نورها حتى إذا كانت غارة التتار على بغداد عام ١٢٥٨ كان الخراب والدمار ، وانهيار صرح العلم الذى كان يضيىء العالم بأسره وإن ظلت الحضارة الإسلامية تسير بطيئة بالقصور الذاتى ، أى بدوافعها القديمة ، دون أن تجد دافعاً جديداً يهبها الحيوية والحركة والنشاط . وكان ذلك فى وقت بدأت فيه أوربا نهضتها بدوافع جديدة تمنح قوة وحيوية ـ كما عرفنا عنه الحديد على عصر النهضة الأوربية .

واستمر الحال على هذا حتى أواخر القرن الثامن عشر حين جاء نابليون إلى مصر ومعه مطبعة وعلماء فأتصلت مصر بأوربا ولا سيما بالبعثات العلمية التى أوفدها محمد على باشا من الأزهر إلى باريس ، وسارت فى هذا الركب لبنان ، ثم بدأت الشعوب الاسلامية فى القرن العشرين تستيقظ بعد سبات وتنصل بالعالم المتقدم فتتفاعل ثقافته مع الثقافة العربية الأصيلة وتكون الأصالة والجدة فى الفلسفة والعلم والفن وطرق المعيشة وأساليب الحياة .

فمن الرياضيين والفلكيين فى المشرق خلال القرنين العاشر والحادى عشر ظهرت كوكبة من العلماء العظماء فى مقدمتهم البوزجانى ت ٣٨٧ هـ/ ٩٩٨ م وهو إلى جانب أنه من كبار المترجمين والشراح عالم أصيل رفيع المنزلة ، أثر فى تنمية حساب المثلثات وفى الفلكيين المحدثين . وقد استقام الفلك عند كثيرين من علماء العرب علماً استقرائيا رياضيا يستند إلى الملاحظة الحسية ، ويصطنع الأرصاد لتعليل حركة الأجرام السماوية وتفسير الظواهر الفلكية ، وصحح العرب الكثير من أخطاء اليونان ووضعوا أزباجا (تقاويم) كانت مثلا رائعا فى الدقة والسبق العلمى .

وسبق العرب الفلكيين الغربيين فى اختراع آلات من شأنها أن تمد فى قدرة الحواس على الادراك ، وأجهزة تساعد على تحويل نتائج دراساتهم إلى كميات عددية غاية فى الدقة ـــ كما يقتضى المنهج العلمى فى أيامنا الحاضرة .

وفى القرن العاشر رسموا خرائط للعالم الإسلامى وأقاليم (أطلس العالم الإسلامى) وتتميز هذه المرحلة بالأصالة وعدم التأثر بمحاكاة بطليموس) وذلك مع المساعدة الرحالة ، لأن الجغرافيا كما قال المقدسى علم لابد منه للتاجر والمسافر والملوك والكبراء والقضاة والفقهاء .

وفى القرن الحادى عشر بدت الجغرافيا الرياضية ، وأتسع رسم الخرائط حتى يشمل العالم كله وبدا الاهتمام بتحديد درجات الطول والعرض ، مع دقة الشواطىء والأنهار ، والحرص على مطابقتها للواقع ، وبهذا كان تفوق خرائط العرب على خرائط بطليموس .

ويمثل هذه المرحلة الشريف الادريسى ت ٥٦٢ هـ/١٠٦٦ م وقد تسامع بشهرته ملك النورمانديين فى صقلية روجار أوروجة الثانى ، فاستدعاه إلى بلاطه ، وأغدق عليه النعم ، وأمر بأن تفرغ له كسرة من الفضة عظيمة الجرم ضخمة الجسم فى وزن أربعمائة رطل ، ورسم عليها الأدريسى الأقاليم السبعة ببلادها وأطوالها وأقطارها وسبلها وريفها وخلجانها وبحارها ومجاريها ، ونوابع أنهارها غامرها وعامرها ، وما بين كل بلد وغيره من الطرقات المطروقة والأميال المحدودة ، والمسافات والمراسى المعروفة وطلب الملك إلى الأدريسىأن يضع كتابا فى وصف هذه الكرة الأرضية فكان كتابه «نزهة المستشاق فى اختراق الآفاق» .

ويبدو من خريطته أنه كان يعرف أن فى النيل عند بلاد النوبة تماسيح وأسماكا .. وقد استخرج المجمع العلمى العراقى عام ١٩٥١ خريطة للادريسى طولها متران وعرضها متر . وكان الادريسى فى كل ما كتب آية فى الدقة والفطنة ، فكان خليقا بأن يكون «استرابون العرب» .

وهكذا وفق العرب إلى إقامة العلوم الفيزيقية قبل أن تنشأ فى أوربا بمئات السنين ، فإذا كان علم الفيزيقا قد نشأ فى أوربا على يد جاليليو + ١٦٤٢ ونيوتن + ١٧٢٧ فقد استقام أمره فى علم البصريات أو الضوء عند الحسن بن الهيثم ت ١٠٢٩ وإذا كان علم الكيمياء قد نشأ فى أوربا على يد لافوازييه + ١٧٩٤ فقد سبق إلى ابتداعه أبو بكر الرازى ت ٩٢٦ م وإذا كانت نشأة علم التشريح تدين بالفضل إلى فيساليوس + ١٥٦٤ وعلم الطب إلى باراسلسوس + ١٥٤١ وعلم الأحياء إلى كلودبرنار + ١٨٧٨ فإن

مقومات هذه العلوم قد عرفت من قبل عند جالينوس العرب «أبو بكر الرازى وابقراطهم ابن سينا وأكبر جراحيهم أبو القاسم الزهراوى وكاشف الدورة الدموية ابن النفيس وإذا كان أول رواد الفلك هو كوبرنيكوس + ١٥٤٣ وجاليليو فإن نشأة الفلك تدين لعلماء العرب ، من أبى معشر البلخى ت ٩٩٥ وابن يونس المصرى ت ١٠٠٨ والبيرونى ت ١٠٤٨ وغير هؤلاء ممن يعدون من ألمع الأسماء فى تاريخ العلوم الفيزيقية .

وفى علم الطب كان من ألمع الأطباء العرب فى تلك المرحلة على بن العباس ت ٩٩٤م بكتابه الكناش الملكى الذى وضعه وسطاً فى الحجم بين الحاوى للرازى والموجز «المنصورى» وترجمات قسطنطين الأفريقى فى صقلية .

وفى سنة ١٠٥٠ قامت مناظرة علمية بين ابن بطلان الغدادى وابن رضوان المصرى ، موضوعها صغار الطير ، وقد هاجم أولهما أطباء القاهرة وتصدى للرد عليه ابن رضوان بعنف حتى اضطر الطبيب العراقى إلى مغادرة القاهرة غاضبا .

وواصل العلم العربى فى ازدهار مسيرته ، وتمثل فى نشر موسوعات ، وفى مؤلفاته فى علم الكيمياء، وفى الأولى ظهرت رسائل اخوان الصفا، وهى فرقة من الفلاسفة ظهرت فى حدود عام ٩٨٣ م ورسائلهم اثنتان وخمسون رسالة أربع عشرة منها فى الرياضيات والمنطق ، وسبع عشرة أخرى فى العلوم الفيزيائية وعلم النفس وعشر فى الميتافيزيقا ثم

يحتاج جسم الانسان إلى طعام ولباس ومسكن ، وكانت صناعة الملابس عند المسلمين أرقى الصناعات ، وإلى جانب أنهم اهتموا بزينة بيوتهم من الداخل ، فعلقوا على حوائطها صوراً ملونة ، كما اهتموا بحسن الملبس وجمال المسكن ، الذى فرشوا أرضه بالبسط ، وقد انتشرت صناعة البسط والسجاجيد ، وكانت تعلق على الحوائط كما كانت تفرش بها أرض الغرف والصحون والممرات ، أو كانت تفرش على الأرض ولا يداس عليها ، وكانت هذه إلى جانب سجاجيد الصلاة والأغطية والمقاعد والوسائد ونحوها .

وكانت مصر تزرع الكتان وتصدره إلى فارس وغيرها ، وأما صناعة النسيج فارتقت إلى حد أن صنعت منها بعض الأقمشة الصوفية فى مصر ، وخاصة فى الفيوم ودمياط وغيرهما ، ونبغت تنيس فى صنع ثياب فخمة للخلفاء ، وكانت تزركش بعضها بالذهب ، ولكن الظرفاء فى القرن الرابع الهجرى ، لايفضلون الثياب المزركشة المصبوغة بالطيب والزعفران ، بل يؤثرون اللباس المصنوع من الكتان المصرى الناعم النقى اللون .

وإلى جانب هذه الثياب الجيدة الصنع ، عرفت ثياب مهلهلة كأنها المنخل ، تزركش بالقصب ، وبعضها يلون بألوان مختلفة ، ومنها تصنع عمائم الرجال وملابس للنساء .

وكانت صناعة النسيج فى الدلتا المصرية صناعة منزلية ، فالنساء يغزلن الكتان ، والرجال ينسجونه ، وتجار القماش يدفعون لهم أجورهم كل يوم .

وكان للمشرق مراكزه الخاصة بنسيج الكتان ، وكانت أنواع الأقمشة بفارس هى الأنواع المصرية، مما يدل على مما يدل على صلة الصناعتين بمصر وفارس، إذ نقلت صناعة الكتان من مصر إلى فارس .

وكانت مدينة كابل تصدر ثيابا من قطن مشهور إلى الصين وخراسان ، وينتج العراق من القطن ما تبلغ قيمة أربعمائة مليون مارك ، كما انتشر القطن فى شمالى أفريقيا وبلاد الأندلس .

أما مراكز صناعة القطن فكانت فى شرقى فارس ، وقد اشتهرت بعض مدنها بصناعة ثياب قطنية فاخرة ، تصدر إلى مختلف البلاد وتباع بخراسان ومصر والعراق .

أما صناعة الحرير فكانت على عكس صناعة القطن منتشرة فى بوزنطه ، وكانت

أعظم مصانع الحرير توجد فى إقليم خوزستان .

أما الفرش الصوفية فكانت فارسية وأرمينية وبخارية ، ولكل منها مميزاته ، ويقول « ماركوبولو » إن الفرش الأمينية أجمل الفرش وأحسنها صناعة ، وذلك لجودة صوفها ، إذ كان أجود الصوف بعد صوف مصر كما يقول صاحب لطائف المعارف ، والأحمر منه يستعمل للزينة ، وفى أوقات الطرب والسرور ، وخاصة عند النساء والصبيان ، ومن أهم ما ذكر من خزائن الفرش والأمتعة بالقاهرة الحمراء المذهبة ، وكانت الفرش القرمزية تصنع بمدينة أسيوط بصعيد مصر ، وكانت هناك طنافس ترسم عليها زخارف وفيلة وخيل وجمال وسباع وطيور .

وكانت الحصر تصنع فى كل المملكة الاسلامية ، واشتهرت فارس بصناعة الروائح العطرية التى تتخذ زيوتها من البنفسج والنرجس وغيرهما ، كما عرف المسلمون تحضير ماء الورد ..

واستخدم أهل البصرة الطواحين التى تدار بالماء عند المد والجزر ، واشتهرت مطاحن الموصل وفى كل البلاد التى اشتدت فيه الرياح كثرت الرحى والطواحين التى تدار بالرياح ، وكان من الممكن تنظيم سرعتها عن طريق منافس تغلق وتفتح فيها ، كما نفعل نحن اليوم بالعجلات المائية .

وأحدث المسلمون فى القرنين الثالث والرابع للهجرة انقلابا فى صناعة الورق حتى رخص سعره ، خاصة باستعمال ورق البردِى الذى عرفت به مصر ، وقال المؤرخون إن صناعة تجهيز ورق البردى بمصر للكتابة قد انتهت إجمالا حول منتصف القرن العاشر (الرابع الهجرى) وكانت توجد مصانع للورق بدمشق وطبرية بفلسطين وطرابلس الشام .

وكانت صناعة الاسطرلابات والآلات الرياضية الدقيقة تقوم فى مدينة حران ، وكانت دقة موازين أهل حران مضرب الأمثال .

وفى مدينة بيت المقدس كانت تصنع السّبح لكثرة زوار الحرم الشريف ، ولا تزال هذه الصناعة رائجة مزدهرة إلى اليوم .

أما عن التجارة عند المسلمين فقد استلفت نظر هيرودوت اشتغال النساء المسلمات بالتجارة فى مصر ، إذ أنهن كن يقمن بالبيع والشراء ، وكانت السوق فى الدور والباعة نساء ، ولاحظ «ماركوبولو» أن نساء التركُنّ يشتغلن بالتجارة .

وفى القرن الرابع للهجرة أصبح التاجر يمثل الحضارة الاسلامية التى أصبحت من الناحية المادية كثيرة المطالب ، بل كانت التجارة فى ذلك الوقت مظهرا من مظاهر أبهة المسلمين ، وكانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب كل البحار وكل البلاد حتى احتلت تجارتهم مكان الصدارة من التجارة العالمية ، وكانت الاسكندرية وبغداد اللتان تقرران الأسعار للعالم فى ذلك العصر وخاصة فى السلع الكمالية .

---

(١) فصل فى بيان ذلك آدم متز فى الجزء الثانى من الحضارة الاسلامية وقد ترجمه د . محمد عبد الهادى أبو ريده ــ ورجع متز إلى مجموعة ضخمة من المصادر الاسلامية الأصلية .

الفصــل الثــالث

تدهور الحضارة الاسلامية بالمشرق خلال القرنين الثانى عشر وما بعده

كانت السلاجقة الأتراك ــ مع اعتناقهم الاسلام ــ قد قضوا على ازدهار العلم العربى بالمشرق ، واستولوا على بغداد عام ١٠٥٥ م وانتهت الدولة الفاطمة فى مصر عام ١١٧١م ثم تولت الحكم الدولة الأيوبية ١١٧٤م حتى ١٢٤٩م وقويت شوكة المتزمتين من أهل السنة، وهددوا بذلك حرية الفكر وانتعاش الحركة العلمية ــ فى المشرق وليس فى المغرب العربى ببلاد الأندلس .

وأكبر من عرف من العلماء فى القرن الثانى عشر كان القزوينى ت ١٢٨٣ م اشتهر بموسوعته « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » ، ومن ألمع علماء العصر كان نصير الدين الطوسى ت ١٢٧٤ م وكان من علماء الفلك وأقنع هولاكو بإنشاء مرصد المراغة ١٢٥٩ م وتولى رياسته ، وكان مجهزا بأكمل الآلات وبه مكتبة قيل إن بها أربعمائة ألف مجلد .. بلغت كتبه عند « سارطون » أربعة وخمسين كتابا منها كتاب « شكل القطاع » ، « وأصول إقليدس » وكتب أخرى فى الأخلاق والفلسفة وعلم الكلام .

ثم كان أبو الفتح الخازنى وأهم كتبه كتاب ميزان الحكمة فى فن الحيل (أى الميكانيكا) وموازنة السوائل وعلم الفيزيقا ، ويشمل نظرية الثقل ومقاييس الثقل النوعى والكثافة ونظرية الدوافع وغير ذلك .

ثم زين الدين الجوبرى (عاش فى النصف الأول من القرن ١٣) عرف بكتابه « المختار فى كشف الأسرار وهتك الأستار » وفيه يعرض صنوف التدليس عند أهل الكيمياء القديمة الذين يعرفون ثلاثمائة نوع من الخداع يستعملونها لاستغفال الناس .

وفى هذا العصر وجد من الجغرافيين عبد الله ياقوت الحموى وكتابه « معجم البلدان » فى ستة أجزاء وتحدث العرب عن الابرة الممغنطة التى يستخدمها الملاحون ، وأخذ ذلك عنهم الصليبيون والشعوب المسيحية .

ثم كان رشيد الدين الصورى ت ١٢٤١/٦٣٩ م من أعظم علماء النبات ، وكان يصحب معه مصورا يحمل الأصباغ المختلفة كلما ذهب إلى مواضع النبات ، ويشاهد الصورى النبات ويريه للمصور ، فيطلعه إلى لونه ومقدار ورقه وأعضائه وأصوله ويصورها كما رآها مجتهدا فى محاكاتها ، بل كان يطلع المصور على النبات وهو فى حال نبته وطراوته ، ثم فى اكتماله وظهور بذره ، فيصوره وهو على هذه الحال ثم يطلعه عليه وهو فى حال ذواه ويبسه فيصوره ، وهكذا يبدو النبات فى صور شتى تمثله فى كل أدواره كما يقول ابن أبى أصيبعة .

وفى ضوء هذا المنهج العلمى وفق العرب — حتى فى عصر الاضمحلال — إلى بناء العلوم التجريبية ، وفى الطب حسبنا أن نذكر أبا الحسن هبة الله ابن التلميذ أمين الدولة ١١٦٥ م وطبيب العيون المصرى القاضى فتح الدين القيسى رئيس الأطباء كما كانوا يلقبونه ، ثم ابن النفيس المصرى ت ١٢٨٨ وهو أول من كشف الدورة الدموية كما أشرنا من قبل .

ونذكر من المؤرخين الشهرستانى ت ١١٥٣ وأيضاً كتاب الطبقات للقفطى ت ١٢٤٨ واشتهر بكتابه : أخبار العلماء بإخبار الحكماء ، والجوينى ت ١٢٨٣ إمام الحرمين وغيرهم .

وهكذا نرى أن عصر تدهور الحضارة الاسلامية — كما يقول المستشرقون — لم تخل فترة من فتراته من علماء لامعين فى شتى المجالات ، حتى إذا كان عصرنا الحاضر ازداد العلماء والأدباء والفنانون عددا وعمقا . وكان فى عالمنا العربى الاسلامى اليوم من هؤلاء من هم جديرون بكل تقدير .

الفصل الرابع

الموازنة بين الحضارتين : الإسلامية والأوربية

(ا) الحضارة الأوربية تستلهم العلم .

(ب) الحضارة الإسلامية تستلهم الاسلام — حرية الرأى والعقيدة بين الحضارتين — أسباب الاضطهادات فى الاسلام — الاسلام والحملة على المادة — عجز المريض عن علاج نفسه طعن فى الحضارة — المكتبات فى الحضارتين .

بين الحضارتين : الاسلامية والأوربية فروق جذرية ضخمة ، تبدأ من المنبع وتسير حتى المصب ولنتتبع أهم هذه الفوارق كما تبدو لنا . ونرجوا أن نكون على بينة منذ البداية بأن الموازنة بين الحضارتين لاتتناول عصرا واحدا ، فإن ما يقال عن حضارة الاسلام ويتناولها فى عصورها الوسطى وما يقال عن الحضارة الأوربية يتناولها فى عصورها الحديثة ، ولهذا الفارق الزمنى خطورته ، وهو قطعا فى مصلحة الحضارة الأوربية ، ومع ذلك سنرى كيف سبق المسلمون فى العصور الوسطى إلى معجزات عجزت عن تحقيقها أوربا فى عصورها الحديثة .

أ ـ الحضارة الأوربية تستلهم العلم :

استلهمت الحضارة الأوربية العلم بمناهجه التجريبية التى قيل أنها أسقطت من حسابها الاعتبارات الانسانية والأخلاقية والروحية ، إن قوام المنهج العلمى هو الملاحظة الحسية والتجربة العلمية ، وموضوعه الظواهر الطبيعية أو الوقائع الجزئية ، وغايته التوصل إلى وضع قانون يفسر الظاهرة التى يدرسها الباحث بالكشف عن العلاقات المطردة الثابتة بينها وبين ظاهرة تنشأ عنها أو تكون سببا لها ، ومقياس الصواب والخطأ فى العلم هو الرجوع إلى الواقع ، باستفتاء الخبرة الحسية ، وشرط العلاقة السببية علميا هو أن يطرد وقوعها من غير شذوذ أو استثناء ، ويقتضى الأمر استكمالا لعلمية البحث أن يصاغ القانون العلمى صياغة رياضية ، توخيا للدقة والضبط ، فتتحول الكيفيات (أى الصفات التى لاتقاس) إلى كميات عددية عن طريق أجهزة ترد الوقائع الحسية إلى أرقام تقرأ على مراقم ومقاييس ورسوم بيانية ولوحات فوتوغرافية .

ومن مقومات البحث العلمى صفتان يتحتم توافرهما مجتمعتين : هما موضوعية البحث ونزاهة الباحث ، ويراد بالأولى objectevity إقصاء الخبرة الذاتية ، بمعنى أن يدرس العالم الظواهر والجزئيات المحسوسة كما هى فى الواقع ، وليس كما يريد ويتمنى ، فيكتفى بوصفها وتقرير حالتها دون أن يصورها على نحو ما يريد ، وأما النزاهة disinterestedness فيراد بها إقصاء الذات أو إماتتها Self-ermination or mortification أى أن يتجرد الباحث عن ميوله ورغباته ووجداناته ويبعد مصالحه ومعتقداته ، مع توخى الدقة والأمانة دون تحيز .

ويترتب على هذا ــ فيما قيل ــ فقدان الاعتبارات الانسانية والروحية والأخلاقية ، فإذا نجح المخترع فى تحويل الحديد إلى مدفع كان هذا نجاحا علميا ، ولو أدى ذلك إلى استخدام الاختراع فى تدمير البشرية وتخريب حضارتها ، من هنا ظهرت الدبابة والغواصات والناسفات والمدمرات وصواريخ الفضاء والقنابل الذرية والهيدروجينية .. من غير اعتراض على آثارها المدمرة .

ولكن من الانصاف أن نقول إن ضمير العلماء قد استيقظ بعد أهوال الحرب العالمية الأولى ، فقالوا إن خصائص البحث العلمى ــ من موضوعية ونزاهة .. ــ لايجب أن تتعارض مع مسئولية العالم إزاء البشرية وحضارتها ، إن العالم إنسان قبل أن يكون عالما ، فاجتمع العلماء فى مؤتمر فى لندن عام ١٩٢٤ وأصدروا ميثاقا أخلاقيا نشرته مجلة الطبيعة Nature أكدوا فيه مسئولية العالم عن البشرية وحضارتها .

لكن ما كادت الحرب العالمية الثانية تشتعل نارها عام ١٩٣٩ حتى جندت الحكومات المحاربة علماؤها لوضع نظريات تتحول إلى مخترعات تقاوم بها أعداءها ، بل تمكنها من سحقهم ، ولو أدى ذلك إلى أفدح الخسائر فى الأرواح والأموال ، ولم يستطع العلماء مقاومة رجال السياسة فرضخوا للأمر مضطرين[1] .

---

(١) شعر بعض العلماء والفلاسفة بمسئوليتهم إزاء البشرية ، وبدا هذا فى موقف «أينشتاين» + ١٩٥٥ Einstein حين كتب بيانا إلى الدول الكبرى يحذرها فيه من مغبة الحروب وأهوالها ، وأرسله إلى برترندرسل + ١٩٧١ B. Russell ليوقعه مع غيره من علماء وفلاسفة ، وتصدى «رسل» لمحاربة الحروب وقاد مظاهرة فى شوارع لندن وهو يناهز التسعين من عمره ، فانزعجت السلطات البريطانية لذلك وألقت القبض عليه ، لكن مجلس العموم قد أغضبه ذلك ، فكان دفاع السلطات عن فعلتهم أن هذا الرجل الطاعن فى السن يعكر صفو الأمن ويعرقل حركة المرور !! ..

ولكن يقظة الضمير عند العلماء لا تنفى ــ فيما قيل ــ أن العلم أصلاً لا تعنيه الاعتبارات الانسانية والأخلاقية ، لأن هذه ليست من أهدافه ، ولكن من الانصاف أن نقول إن العلم ـــ الطبيعى خاصة ـــ لم يقطع صلته منذ نشأته بالاعتبارات الانسانية ، فإن المنهج العلمى منذ أن وضع أصوله فى مطلع القرن السابع عشر فرنسيس بيكون + ١٦٢٦ F. Bacon كان وثيق الصلة بحياة الانسان العملية ، إذ جاهر بأن العلم قوة ، وهو أطول القوى بقاء ، وهو وسيلة لفهم الطبيعة توطئه للسيطرة عليها واستغلالها لمصلحة الانسان .

وقد أكدت هذه النزعة العملية فى حياة الانسان الفلسفة البرجماتية فى أمريكا ، وقد انصرف أصحابها عن النظر العقلى المجرد إلى البحث فى نتائج الأفكار والمعتقدات ، فالفكرة عندهم مشروع للعمل أو خطة لحل إشكال ، أو اقتراح للتخلص من مأزق ، وهى صواب متى تحولت إلى سلوك ناجح فى حياة صاحبها وإلا كانت خطأ ، مرهونة بنتائجه ، بالقيمة المنصرفة Cash-Value .

بل إن العلم قد تحولت تطبيقات قوانينه فى وقتنا هذا إلى تكنولوجيا العصر ، وهى قوام حضارتنا الراهنة ، وبما تمدنا به من آلات وأجهزة ومعدات قد غيرت وجه الحياة الانسانية ، ومع ذلك فإن الحضارة الأوربية ـــ فيما يبدو لنا ـــ قد أخطأت .. حين استلهمت العلم ومناهجه ، وقطعت صلتها بالدين المسيحى ، مع أن مقوماته التى لا قيام له بدونها روحية أخلاقية إنسانية ، وليس أدل على ذلك من أن المسيح عليه السلام قد جمع حوارييه على الجبل ، ليقول لهم ما الجديد فى الدين الذى نزل عليه وأخذ يبشرهم فقال المسيح فى خطبته على الجبل :

« ... لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيسر فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا ، ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين ، من سألك فأعطه ، ومن أراد أن يعترض سبيلك فلا ترده ، سمعتم أنه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، باركوا لأعقبكم ، أحسنوا إلى مغتصبوكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ، لكى

تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات ، فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين ، لأنه إن أحببتم الذى يحبكم فأى أجر لكم ، أليس العشارون يفعلون ذلك ؟ وإن سلمتم على أخوتكم فقط ، فأى فضل تصنعون ؟ .. أليس العشارون أيضا هكذا ؟ فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم فى السموات هو كامل»[1] .

فأين بالله هذه القيم الانسانية العليا مما اقترفته الشعوب الأوربية المتحضرة من جرائم ، من اظهرها استعمارها للشعوب الضعيفة لنهب أموالها وإذلال أهلها ، ومعاملتهم بأحط

ألوان المهانة والاستغلال ، ويشهد بعض الأوربيين ما ينزله زملاؤهم بالشعوب الضعيفة من عسف وظلم ، فلا تتحرك فيهم جارحة للاستياء مما يرون ، بل يبدو وكأنهم يجدون فى ظلم أقرانهم المتحضرين للآخرين تسلية ومتعة .. بل أن تاريخ حضارتهم ملطخ بأبشع الجرائم وأحط المشاعر ، وكان من الممكن أن تخلو صفحتهم من هذا لو أنهم أقاموا حضارتهم على أساس من دينهم بقيمه الانسانية العليا .

لكن أوربا بطبيعتها وبحكم ظروفها التاريخية لاتقوى على اتخاذ المسيحية دينا ، لأنها لاتلائم طبيعة أهلها ، ذلك «أن المسيحية وما تدعو إليه من الزهد فى الحياة ، واعتزال العالم ، ومن العفو والمغفرة ، ومن المعانى النفسانية السامية ، ليست مما يلائم طبيعة الغرب ، الذى عاش ألوف السنين على تعدد الآلهة ، والذى يدعوه مركزه الجغرافى إلى حياة الكفاح لمغالبة الزمهرير والضنك وسوء الحال ، فإذا قضت الظروف التاريخية عليه بأن يدين بالمسيحية ، فلا مفر له من أن يسبغ عليها ثوب الكفاح ، وأن يخرجها بذلك عن طبيعتها السمحة الجميلة ، وأن يفسد فيها هذا التناسق الروحى الذى يجعل منها حلقة فى سلسلة الوحدة التى أتمها الاسلام : هذه الوحدة التى تؤاخى بين الروح والجسد ، وتزاوج بين العاطفة والعقل ، وتسلك الفرد والانسانية جميعا فى نظام الكون ، على أنهما بعض عمده ، متسق وإياه فى لانهاية الزمان والمكان ..» إلى آخر ما يراه الدكتور هيكل فى هذا الشأن .

---

(١) انجيل متى فى العهد الجديد : الاصحاح الخامس وما بعده .

لكن أوربا قد توصلت بعد الثورة الفرنسية الدامية إلى إعلان وثيقة تاريخية بحقوق الانسان على أساس من تعاليم جان جاك روسو + ١٧٧٨ J.J.Rousseau ومجملها أن الغرض من وجود الحكومات هو ضمان حرية المواطنين وأملاكهم الشخصية وصيانة حقوقهم وحماية أرواحهم ومنع المظالم ، وأن لكل أمة الحق فى وضع القوانين وتقرير الضرائب ، ولها وحدها السلطة العليا فى البلاد ، وليس لأحد أن يستعمل هذه السلطة إلا بإرادتها .

ومنذ ذلك التاريخ تجتمع مؤتمرات دولية لاقرار حقوق الانسان ، وحرية الرأى والعقيدة ، ومنع القمع والاستبداد ونحوه ، وحسبنا أن نشير فى هذا الصدد إلى ميثاق الأطلنطى والحريات الأربع ، إذ أن الدول الدكتاتورية قد عمدت بعد الحرب العالمية الثانية إلى تحقيق مطامعها فى التوسع الاقليمى والاقتصادى بالقوة والعنف فنهضت جبهة ديمقراطية بمقاومة الغزو الدكتاتورى ومحاربة الطغيان ، والجهاد فى سبيل مبادىء الحركة التى لاقيام للديمقراطية بدونها ، ومؤكدة تجردها من المطامع والأهواء السياسية ، وعقدت الدولتان الديمقراطيتان بريطانيا المحاربة وأمريكا المحايدة يومئذ ميثاق أقرته بعد ذلك روسيا السوفيتية ، وذلك هو ميثاق الأطلنطى المنعقد فى ١٤ أغسطس ١٩٤١ .

وقد تأثر ميثاق الأطلنطى فى بعض نصوصه بالمبادىء أو الحريات الأربع التى ضمنها الرئيس الأمريكى روزفلت + ١٩٤٥ بإيمانه بالمثل الانسانية العليا رسالته إلى الكونجرس الأمريكى فى ٦ يناير ١٩٤١ وهى حرية القول والرأى ، وحرية العبادة ، والتحرر من الخوف والفقر .

ولعلنا نلاحظ أن ميثاق الأطلنطى يتضمن بعض المبادىء التى وضعها الرئيس ولسون فى يناير ١٩١٨ لتكون دستورا لعقد الصلح بعد الحرب العالمية الأولى — وقد عرفنا مصيرها عند الحلفاء الذين انتصروا فى تلك الحرب — وقد عرضنا هذا فى مواثيق السلام عند الأوربيين ، مما يثبت أن الدول الكبرى قد نسيت غداة النصر كل وعودها وعهودها ، ولم تنس أطماعها وأهدافها الاستعمارية القديمة .. هذا هو موقف الغرب فى عصرنا الحاضر .

(ب) أما عن الاسلام فحسبنا أن نقول مكررين إن الحضارة الاسلامية تستلهم

الاسلام ، وقد كرم الاسلام المعرفة ومجد النظر العقلى ودعا إلى العلم بالتأمل العقلى وبالتجريب الحسى ، إن الحضارة الاسلامية والاسلام يتزاوجان ولا ينفصلان ، فالحضارة نبتت فى ظل الاسلام وعاشت فى كنفه ، ثم دخلتها عناصر وفدت عليها من حضارات أجنبية ، فتفاعلت معها وزادتها نماء ، وقد قامت الحضارة الاسلامية على أساس من العلم وهدى العقل ، واستندت فى ذلك إلى ما استندت إليه الحضارة الأوربية فى عصرنا الحاضر ، والصلة وثيقة بين الدين ومقرراته ، والاسلام يربط بين التفكير المنطقى والشعور الذاتى ، وبين قواعد العقل وهدى العلم ، برابطة لا مفر لأهله من البحث عنها والاهتداء إليها ليظلوا مسلمين وطيدا إيمانهم .. وقد بنى الاسلام الايمان على النظر العقلى ودعا إلى احترام المعرفة وأكبر من شأن الحواس والعقل أداة للمعرفة ، وقد جعل الاسلام العقل حكما والبرهان أساس العلم وعاب التقليد وذم المقلدين .. آخر ما قلناه من قبل .

وربما قيل إن فى تاريخ الاسلام مفكرين اتهموا بالالحاد ، ومع ذلك أنتجوا علما وفلسفة وفقها وكلاما وفنا وأدبا ، لكن الحقيقة أن من ثبتت إدانته كانوا قلة بالقياس إلى سائر مفكرى الاسلام ، وكانوا مثار استهجان من الرأى العام بين المسلمين ، ومن اقترف عملا يتنافى مع تعاليم الاسلام كان منبوذا ممن حوله من أقران .

وتقوم الحضارة الاسلامية على نقيض الأسس التى تقوم عليها الحضارة الأوربية :

تقوم الحضارة الأوربية أساسا على النظام الاقتصادى ، وبالتالى تقوم قواعد الأخلاق على أسس نفعية مادية ، وبالتالى كانت المسألة الروحية فردية محضة ، ونشأت عن هذه الاباحة الأخلاقية ، والنظام الاقتصادى يتمثل مظهره الأول فى التنافس والنضال فى المذهب الفردى والمذهب الاشتراكى على سواء ، فأولهما يرى فى التنافس والنضال أهم حافز لاتقان العمل ، وخير معيار لتوزيع الثروة ، أما ثانيهما فيرى فى نضال الطوائف أداة لتقويضها حتى يرد الأمر كله للعمال ، فنضال الأمم فى سبيل المال أمر طبيعى ومن هنا كان الاستعمار أمرا طبيعيا .. أما الحضارة الاسلامية فتقوم على نقيض ذلك الأساسا ، تقوم على أساس روحى يدعو الانسان إلى حسن إدراك صلته

بالوجود ومكانه منه قبل كل شيء ، وعلى أساس مبادىء الاسلام ينظم الانسان حياته الاقتصادية ، فلا يجوز أن يضحى المسلم مبادئه الخلقية فى سبيل حياته الاقتصادية ، فالفرق فى الحضارتين : عبادة المال فى الحضارة الأوربية ومبادىء الدين الروحى فى الاسلامية .

حرية الرأى والعقيدة بين الحضارتين :

إن الحرية السياسية والاجتماعية هى التى تمكن الفرد من أن يفعل ما يريد فى حدود القانون ، ومن غير أن يسيىء إلى غيره ، وأخص الحريات السياسية حرية الرأى والقول والعمل والاعتقاد ، وهى دائما مقيدة بنظام المجتمع وحقوق الآخرين.

وقد حرمت أوربا من نعمة الحرية عصورا طويلة ، وكان مرد ذلك فى الأغلب والأعم إلى ما كان فى تاريخها من نزاع بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية ، وانتهى النزاع بالفصل بينهما ، وتهيأ للكنيسة طوال العصور الوسطى سلطان واسع النطاق محدود الرحاب ، روحيا بحكم وظيفتها ، وسياسيا بسبب ضعف الملوك والأباطرة ، فسيطرت على التعليم والمدارس ، واحتكرت لنفسها تأويل الكتاب المقدس ، ورأت أنه يحوى كل الحقائق ، فأصبحت هى مصدر الحقائق فى كل صورها ، وأدانت كل من جاهر بحقيقة لم تقرها الكنيسة من قبل ، وسلم بسياستها فى اضطهاد مخالفيها فى الرأى من الملوك والأباطرة ، ومن لم يذعن لسلطانها حافت به اللعنة ، وكانت الهرطقة أعظم خطيئة عقابها الإحراق بالنار ، وتمكن نظام الاضطهاد منذ أوائل القرن الخامس على يد القديس أوغسطين + ٤٣٠ أوسع آباء الكنيسة نفوذا فى عصره ، فمضت الكنيسة تعمل جاهدة لقمع الهرطقة وأحرار الفكر ، وكان لهذا أثره البالغ فى عرقلة النظر العقلى ، وقمع حرية الفكر ، ووقف التقدم العلمى . وبعد ممات هذا القديس ببضع عشرات من السنين فرضت الرقابة على المطبوعات ، وصدرت أول قائمة بالكتب التى حرمت قراءتها على المؤمنين ، وما انتصف القرن الحادى عشر حتى ارتفعت المطالبة باستخدام السلاح الدنيوى فى معاقبة الملحدين — ومنهم أحرار الفكر — مع نفيهم ومصادرة أملاكهم وهدم بيوتهم وحرمانهم من حقوقهم المدنية ..

ثم أنشئت محاكم التفتيش Inquisition لتتولى مطاردة المارقين وتعذيبهم إلى حد

إحراقهم وهم أحياء .. وارتكبت كل هذه الفظائع باسم دين أقصى ما يميزه دعوته إلى محبة الأعداء .

أما فى الاسلام فإن محمدا لم يكن يفكر فى مال أو جاه أو تجارة ، وإنما كان همه الأول أن يؤمن المسلمون وغيرهم بأن من اتبع الهدى ودخل فى دين الله فهو بمأمن من أن يصيبه الأذى ليزداد المؤمنون إيمانا ، وليقبل على الايمان المتردد والضعيف والخائف ، وهو يريد أن يكفل لأتباعه ولغيرهم الحرية فى عقيدتهم ، بحيث يكون المسلم والنصرانى واليهودى سواء فى حرية العقيدة وحرية الرأى ، فالحرية وحدها هى الكفيلة بانتصار الحق وتقديم العالم نحو الكمال ، وكل مقاومة للحرية تمكين للباطل ومحاولة لاطفاء النور المضيىء فى النفس البشرية ، ومن أجل هذا كان محمد ﷺ جنوحا للسلم ــ مقتصدا فى القتال أشد القصد طوال حياته ، وكانت دعوته للمؤاخاة بين المسلمين والاتفاق مع اليهود على أساس من الحرية والتحالف ، وقد كتب محمد بين المهاجرين والأنصار كتابا واعد فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم .. فى وثيقة منذ نحو أربعة عشر قرنا قررت حرية الرأى وحرية العقيدة فكانت الوثيقة فتحا جديداً فى عالم السياسة .

وجعل الاسلام الأخاء الانسانى أساس الحضارة الاسلامية ــ كما لاحظ الدكتور هيكل من قبل ، وهو إخاء يجعل المرء لايكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه ، وحتى يصل به الاخاء إلى غاية البر والرحمة فى غير ضعف أو استكانة ، والاخاء فى الاسلام لايكون إلا مصاحبا للعدل ،

وقد روى عن الامام علي أنه روى أن رسول الله كان يقول : « **المعرفة رأس مالى والعقل أصل دينى ، والحب أساسى والعلم سلاحى ، والصدق شفيعى ..** » .

والذى مكن للحرية فى الاسلام أن القرآن قد جرد رجال الدين من كل سلطة دنيوية يمكن أن تمكنهم من قمع الحرية عند أصحابها واضطهاد مخالفيهم فى الرأى ، قال تعالى مخاطبا نبيه المصطفى : ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر** ﴾ ، وخليفة المسلمين لايحتكر تأويل الكتاب والسنة حتى يكون مصدر الحقائق المعتمدة ، ولا يعد معصوما من الخطأ ، فإن زلّ وجب تقويمه ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ..

وتأكيدا لحرية العقيدة فى الاسلام قال تعالى فى صورة البقرة : ﴿ **لا إكراه فى**

الدين، قد تبين الرشد من الغي..﴾ وفى سورة الكهف: ﴿**وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر..**﴾ وفى سورة يونس يخاطب الله نبيه المصطفى بقوله ﴿**أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ..**﴾ .

وبهذا وبغيره تأكدت حرية الرأى والعقيدة فى الاسلام ، وتقررت حقوق الانسان قبل الاعلان العالمى لحقوق الانسان فى الثورة الفرنسية بأثنى عشر قرنا من الزمان ، وقبل المؤتمرات الدولية فى أوربا فى عصرنا الحاضر بنحو أربعة عشر قرنا من الزمان .

أسباب الاضطهادات فى الإسلام:

وربما قيل فى الاعتراض على ذلك إن بعض اضطهادات أحرار الفكر والمخالفين فى الرأى قد وقعت فى تاريخ الاسلام فماذا كانت أسبابها .. ؟

ترتد الاضطهادات فى الاسلام ـــ وهى قليلة كما سنرى ـــ إلى أسباب شخصية أو دوافع سياسية ، أو حين دس الحكام السياسيون أنوفهم فى مسائل علمية فلسفية دينية ، وفرضوا رأيهم على مخالفيهم بحد السيف ! .. وحسبنا أن نذكر فى هذا الصدد محنة أهل السنة ، وفى مقدمتهم أحمد بن حنبل على يد المأمون والمعتصم والواثق فى مشكلة خلق القرآن :

تعرض أهل السنة للعذاب بسبب إصرارهم على القول بأن القرآن قديم قدم الله ، ومرد المحنة التى عاشوها أربعة عشر شهرا إلى أن المأمون قد اقتنع برأى المعتزلة فى أن القرآن مخلوق وليس قديما ، وأن القول بقدمه شبه شرك ، والقائل بالشرك يجب رده ، فإن عاند وجب قتله .. واعتقد المأمون أنه مسئول أمام الله عن عقيدة رعاياه ، فتدخلت الدولة بسلطانها وهيلمانها ، وولاتها وجنودها فى حمل الفقهاء على الاعتقاد بأن القرآن مخلوق !؟ .. ولولا تدخل الدولة لظل الجدال بين المعتزلة وأهل السنة مجرد مقارعة حجة بحجة ، وبرهان ببرهان ، وما كان يمكن أن يتحول الجدل إلى تعذيب وتنكيل بأحد ، طالما كان الفريقان المختصمان مجردين من كل سلطة دنيوية ، تمكن أحدهما من اضطهاد خصمه ، وجندلة أتباعه . وقريب من هذا يقال فى مقتل الحلاج والسهروردى :

كان الحسين أبو منصور الحلاج المقتول عام ٣٠٩ هـ/٩٢١ م قد اعتنق نظرية الفناء لأبى يزيد البسطامى ، ومؤداها أن العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله ، والاعراض

عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، ينتهى هذا إلى تصفية النفس وتجردها عن شهوات البدن وأهوائه ، بالمجاهدة والتهجد والصيام والعبادة حتى يكون الفناء ، فناء الانسان عن نفسه وفقدانه الشعور بذاته ، مع شعوره بالله ، يفقد المؤمن ارادته ووعيه ، ويتحقق بأن الارادة الحقيقية هى ارادة الله فلا يرى إلا الله ، ولا يشعر إلا بفاعلية الله — وهذا الجانب الايجابى هو الذى يميز الفناء عند صوفية الاسلام من النرفانا عند فلاسفة الهنود .

فإن فنى الانسان عن نفسه وفقد شعوره بغيره ، وتلاشت رؤيته لكل ما عدا الله — فى فترة محو يعقبها صحو — ربما صدرت عنه شطحات وهو فى غير وعيه ، وبغير ارادته ، فيقول كلاما إذا أخذناه على ظاهره كان متنافيا مع شريعة الله ، ولكن هذا الفانى إذا صحا من حالة سكره يحب الله ، استغفر ربه على ما يحتمل أن يكون قد قاله وهو فى غيبته ، فاقد الوعى والارادة والشعور ، وهذا ما حدث للحلاج فثار فى وجهه فقهاء ومتكلمون واتهموه بالالحاد . فهرب من رجال الشرطة الذين ألقوا القبض عليه وصلبوه ثلاثة أيام وحبسوه فى دار السلطان . ثم حوكم فى حضرة الخليفة العباسى ببغداد ووافق هذا على الحكم بإعدامه ، فضربوه ألف سوط وقطعوا يديه ورجليه وهو لا يزال حيا .. وسقط رأسه ثم صب الزيت على جذعه ، واشتعلت فيه النار ، ثم ألقى الرماد المتخلف عن أشلائه فى نهر دجلة بالعراق .

والحقيقة أن الحلاج قد راح شهيد أوحال السياسة والأحقاد معا ، وإذا كان « ماسنيون » قد استبعد من أسباب قتله صلته بالقرامطة ، فإن نيكلسون أكد أن من أسباب قتله اتهامه بالدعوة سرا إلى مذهب القرامطة الذين كانوا قد أغاروا على مكة قبل قتله بسبع سنوات ، واختطفوا الحجر الأسود .

وكان الحلاج قد قال فى إحدى شطحاته وهو فى غير وعيه : أنا الحق .. ويقول نيكلسون إن موقف المسلمين من ابن عربى فى قوله بوحدة الوجود ، أو أبى يزيد البسطامى فى قوله : سبحانى (معبرا عن مذهبه فى الاتحاد) أو ابن الفارض فى قوله أنا هى (أى المحبوبة وهى الذات الإلهية فهما فى حالة اتحاد) ومن هذا القبيل قول الحلاج : أنا الحق — يقول ينكلسون إن المسلمين فى موقفهم من هؤلاء الصوفية كانوا متسامحين

لأنهم يعتقدون أن أولياء الله على اتصال بربهم ــ حقا لقد كان من المستحيل على أعداء الحلاج أن ينالوه بأذى إذا لم تتدخل الأحقاد والوشايات ويقتنع بها أهل السلطان ، فالإسلام برىء من تبعة هذه الجريمة .

وقريب من هذا يقال فى مصرع السهروردى المقتول عام ٥٨٧ هـ/١١٩٢ م هو مؤسس المدرسة الأشراقية فى التصوف الاسلامى ، والرأى عندها أن الله نور الأنوار ، ومصدر جميع الموجودات ، فالعالم قد صدر من أشراق الله وفيضه ، ومتى تجردت النفس عن علائق البدن وشهواته يتسر لها الاتحاد بالله والاتصال بنور الأنوار ، فيتكشف لها الغيب فى يقظة أو منام ..

كان مرد مصرعه إلى أستخفافه بالفقهاء وتمسكه برأيه واعتزازه بعقله ، وكان صلاح الدين الأيوبى قد سحق الدولة الفاطمية التى كانت معقد آمال القراطمة فكان شديد التخوف من دعاة الدعوات الباطنية ، وكان السهروردى ــ كما كان الحلاج ــ من هؤلاء ــ وكان فوق هذا مقربا من الملك الظاهر ، فأرسلوا إلى صلاح الدين يوغرون صدره ويثيرون مخاوفه ، فأرسل صلاح الدين إلى ابنه الظاهر بحلب خطابا يوجب فيه قتل السهروردى ، وكان ما أراد .

ومن هذا نرى أن أهم أسباب قتله وقتل الحلاج اتصالهما بالدعوة الباطنية التى كان يمثلها القرامطة من ناحية ، وحقد الفقهاء وحسدهم من ناحية أخرى ، ولولا تدخل السياسة فى الحالتين ما تسنى للفقهاء أن ينالوا منهما أو أن يمسوهما بسوء ، وقاتل الله السياسة فإنها تفسد الضمائر وتعمى البصائر وتتلف الأخلاق .

ومن أئمة الاسلام كالشيخ محمد عبده من عدد أصول الاسلام فى حوار مع الأستاذ فرح أنطون ونشر رأى الامام محمد عبده فى كتابه «الاسلام والنصرانية» قال أن من أصول الاسلام النظر العقلى لتحصيل الايمان ، وتقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض والبعد عن التكفير (فإذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ، ويحتمل الايمان من وجه واحد ، حمل على الايمان ولا يجوز حمله على الكفر ، ثم الغاء السلطة الدينية (فليس لأحد بعد الله سلطان) والخليفة ليس موضع عصمة ولا مهبط وحى) .

فكيف بالله يكون مع أصول الاسلام على هذا النحو ، كيف يكون قمع لحرية رأى ، أو حرية عقيدة ؟ .. ألسنا على حق نقول مكررين ما سبق لنا أن قلناه . إن الاسلام قد سبق الثورة الفرنسية بإعلانها حقوق الاسلام بنحو اثنى عشر قرنا من الزمان ، وسبق مقررات المؤتمرات الدولية فى أوربا فى وقتنا الحاضر بنحو أربعة عشر قرنا من زمان باقرار الحريات بمختلف صورها ؟ ..

الاسلام والحملة على المادة :

لكن علينا أن نفطن إلى أن الاقتصاد يحتل الجانب الأكبر من اهتمام الانسان فى العصر الصناعى وقد أستغل بعض مفكرينا هذه الحقيقة فى حملتهم على العصر الصناعى ، لأن الاقتصاد فى رأيهم يتعلق بالمادة ، وبالتالى يكون العصر الصناعى عصر اهتمام بالمادة ، لايسمح بأى نوع من السمو الروحى للانسان . لكن من الحق أن يقال ان الارتباط وثيق بين النشاط الاقتصادى والجانب المعنوى للانسان ، وقد أوضح هذه الحقيقة صديقنا فؤاد زكريا فقال :

ان التفرغ لتحقيق القيم الانسانية الرفيعة لايمكن التوصل إليه إلا إذا لم تعد المشاكل اليومية والمطالب الحيوية الضرورية هى الموضوع الرئيسى لاهتمام الانسان ، ومن المحال أن ننتظر انتاجا فنيا أو فكريا رفيعا أو تحقيقا للقيم الروحية السامية من إنسان يقضى كل دقيقة من قوته باحثا عن الخبز وحده ، أما إذا توافرت هذه المطالب الضرورية ووصل الانسان إلى حد معين من الاكتفاء المادى ، فعندئذ يمكنه أن يتفرغ لما هو معنوى وروحى . والذى نلاحظه أن الأغلبية العظمى من الناس لم يتوافر لها ذلك الحد من الاكتفاء المادى الذى يمكنها من التفرغ لسائر مظاهر الانسانية الرفيعة لحياتهم ، أن المنطق السليم يقتضينا أن نجعل للمشكلة الاقتصادية الدور الأول فى تفكيرنا واهتمامنا ، حتى نصل إلى اخضاعها نهائيا لارادتنا ، وإلى تحرير الانسان من عبودية المادة ، ومن السعى طوال حياته وراء أدنى حد من المطالب الحيوية ، واغفال الأوجه المعنوية الرفيعة لحياته .

بل أن المجالين ــ المادى والروحى متداخلان فى حياة الانسان كل التداخل ، ولا يمكن تصورها منفصلين والخطوة الأولى نحو الروحية فى الانسان هى الاهتمام بالمشاكل المادية ، والوسيلة الوحيدة لتحقيق تحرر الانسان من سيطرة القوى الطبيعية هو أول

مظهر من مظاهر شخصيته الحرة ، والوسيلة الوحيدة لهذا التحرر هى الاهتمام بالمادة ذاتها ، ولهذا فإن من يدعوا إلى الترفع والسمو عن المادة يهدف بدعوته ــ عن قصد أو غير قصد ــ إلى أن يظل الانسان عبد للمادة .

ونحن أهل الشرق كثيرا ما نوصف بأننا روحانيون ، أى مترفعون عن المادة ، مع أن السبيل الأول إلى العلو بالمعانى الروحية فى الانسان ، هو اهتمامه بمشاكله المادية وسعيه إلى حلها ، فمن المحال أن ننتظر انتاجا فكريا من مريض هزيل ، فلنبدأ بالعمل على إزالة شبح الجوع والفقر والحاجة والقلق والخوف من المستقبل ، ومن هذا نتوقع ارتفاعا فى الجانب الروحى المعنوى من حياتنا . إن الحضارة المعنوية السليمة لاتقوم إلا على أساس من الرخاء المادى ، وبغير هذا لاتحتل القيم فى حياتنا المكانة التى نتمناها ، وتضيع معنوياتنا . كما نحرم من مادياتنا .

وفى تعقيبنا على رأى الدكتور فؤاد زكريا نقول ان من أظهر مفاخر الاسلام أنه لم ينظر إلى الحياة الدنيا ومطالبها المادية على أنها مجرد جسر إلى الآخرة ، بل لقد جمع بين الآخرة والدنيا فى سمط واحد ، يقول تعالى (فى سورة الأعراف) .. ﴿... **خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الأيات لقوم يعلمون**﴾ ويقول تعالى (فى سورة الجمعة) : ﴿**فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله** واذكروا الله كثيرا **لعلكم تفلحون**﴾ وفى صورة القصص : ﴿**وابتغ فيما أتاك الله الدار الأخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض ان الله لايحب المفسدين**﴾ أى اطلب فيما أعطاك الله من الغنى ما تستحق به النجاة فى الدار الآخرة ولا تنس أن تحصل على نصيبك من العيش فى الدنيا لتستعين به على تكاليف الحياة ولا كما يفعل بعض الذين يزعمون الزهد ويعيشون عالة على غيرهم .

وهذا المعنى أو قريب منه هو من المأثورات الدينية التى تروى عن رسول الله وصحابته ، ومؤدى المعنى أن السعى فى مناكب الأرض طلبا للرزق هو جهاد فى سبيل

الله ، وليس أعظم من هذا تكريما فى الاسلام للسعى لتحقيق مطالب الدنيا متى كان السعى لها فى حدود تعاليمه ، وبهذا يتأكد القول بأن الاسلام قد جمع بين الآخرة والدنيا فى سمط واحد . وتكرر هذا المعنى فى آيات كثيرة ، وورد فى الحديث : « **إن لبدنك عليك حقا** » – إعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا – ومثل هذا كثير ، وكله شاهد عدل على أن الإسلام لم يهمل مطالب الدنيا وهو يدعو إلى العمل من أجل الآخرة .

عجز المريض الفقير عن علاج نفسه طعن فى الحضارة :

كانت بريطانيا أول دولة فى العالم تطبق نظام التأمين الصحى الذى يكفل للمواطنين — ولزوار انجلترا ممن يدركهم . أثناء وجودهم بها — ان يعالج المريض منهم بالمجان ، وقد دعا إلى ذلك المشروع اللورد بيفروج وطبق فى عام ١٩٤٦ فى عهد بيفان وزير الصحة ، ويقول بيفروج صاحب المشروع : لا يعد الشعب متحضرا متى وجد فيه مريض فقير لا يستطيع أن يعالج مرضه بسبب عجزه المالى .

وإذا كان هذا يقال فى انجلترا بعد الحرب العالمية الثانية ، فإن من المفارقات الطبية ، أن العرب المسلمين قد فطنوا فى العصور الوسطى إلى علاج المرضى على نفقة الحكومة ، إذ حرص الخلفاء وأهل اليسار على إقامة المستشفيات معاهد لتعليم الطب ، ودورا لعلاج المرضى ، وعرفت حواضر الاسلام المستشفيات الثابتة والمتنقلة ambulence وقد زودت بصنوف الأدوية وأنواع الطعام والشراب والملابس والصيادلة والأطباء ، وكان فى كل مستشفى جناح للذكور وآخر للاناث ، وخصص لكل نوع من الأمراض جناح خاص بمرضاه ، وألحقت بكل مستشفى صيدلية تضم أنواع الشراب والمعاجين والأدوية .. ويشرف عليها رئيس يتبعه معاونوه ، ويقيم المريض بالمستشفى مجانا أو يأخذ معه الدواء إلى بيته إذا لم يقتضى مرضه الاقامة به ، والأطباء يتفقدون مرضاهم فى الأقسام التى يقيمون بها ، وكانت المستشفيات تحبس عليها الأوقاف وترصد لها الأموال ، وينفق عليها فى سخاء ، والأطباء إذا فرغوا من أعمالهم مضوا إلى خزائن الكتب فى مستشفياتهم أو دورهم وأكبوا على القراءة لتكون عونا لهم فى ممارسة مهنتهم .

ومن أشهر مستشفيات مصر البيمارستان العتيق الذى أنشأه أحمد بن طولون عام ٢٥٩ هـ/٨٧٢ م وكان إذا دخله المريض نزعت منه ثيابه وحفظت مع نقوده عند أمين المستشفى ، ثم ألبس ثياب المستشفى ، وقدم له الغذاء والعلاج والدواء بالمجان حتى يبرأ من مرضه ، وعلامة ذلك عندهم أن يقوى على أكل فروج (أى فرخ دجاجة) ورغيف ! .. وعندئذ يعطى له مال وثياب ويؤذن له فى الخروج ! .. وأنشأ قلاوون عام ١٢٨٤ م المارستان المنصورى (دار الشفاء) بالقاهرة ، وكان من دلالات الاهتمام به السخاء فيما يقدم لمرضاه من صنوف الطعام والشراب والدواء والمعاجين والأكحال والفنائل والسفوفات والمراهم والأدهان ، وكل هذا بالمجان وكانت نستقدم إليه فرق المطربين كل يوم لتسلية المرضى بالغناء والموسيقى ! .. وكان هذا كله فى وقت نفرت فيه السلطات فى أوربا من الطب بحجة أنه يحاول أن يزيل عن المرضى المتاعب التى أنزلها الله بهم ، أو يغير بالجراحة مما خلق الله !! .. ليت اللورد بيفروج وأمثاله من الأوربيين يعرفون ذلك أن الحضارة العربية الاسلامية قد سبقت إلى ما عجزت عنه الحضارة الأوربية بقرون طوال .

المكتبات بين الحضارتين ، الأوربية والاسلامية :

المكتبات العامة والخاصة ظاهرة حضارية ، بل هى أعظم الظواهر ملازمة للحضارة ـــ أية حضارة ـــ وبغيرها لاتكون حضارة بمعناها الدقيق ، لأنها تقدم للقارئ الكتاب فى كل فروع المعرفة البشرية ، فتكون بذلك أمثل أسلوب لتوسيع المدارك وأثراء المعرفة العلمية والدينية والفنية والأدبية بكل مضامينها ، والرأى عندنا أن من أكبر المشكلات التى تواجه عالمنا العربى أن المتعلمين من أبنائه لايقرءون ، لا لأن الكتاب مرتفع السعر أو غير متوفر ، فقد يوضع الكتاب أى كتاب ـــ بين أيديهم فلا يكلفون أنفسهم مشقة الاطلاع عليه !! .. وبذلك تظل ثقافاتهم مجدبة ، وشعورهم بانتمائهم لوطنهم مفقود ، وبالتالى لا يفكرون فى الاسهام عن وعى فى التنمية والانتاج الذين لا ينتعش بغيرهما شعب ..

وفى حواضر الاسلام أخذت تنشأ المكتبات فى أواخر الدولة الأموية على يد

المشتغلين بالعلم ، لكن الكتب فى العهد الأموى لم تكن من الكثرة بحيث تكون مكتبات واسعة ، حتى إذا كان العصر العباسى نشطت حركة التأليف والترجمة ، وعظمت صناعة الورق وكثرت المكتبات وزخرت بالكتب وكان أشهرها وأعتاها بيت الحكمة أو دار المعرفة — فيما يسميها ابن خلدون — فى القاهرة — ودار الكتب فى قرطبة ، أما مكتبة دار الحكمة .. فى القاهرة فقد أنشأها الحاكم بأمر الله عام ٣٩٥ هـ ١٠٠٥ م وضمت مائة ألف مجلد فى العلوم الدخيلة — غير الدينية — وحدها ، منها ستة آلاف مخطوط فى الرياضيات والفلك مع كرتين سماويتين ، أولاهما من صنع بطليموس والثانية من صنع عبد الرحمن الصوفى ، ويسرت أسباب الراحة لرواد المكتبة ، فأحسن تأثيثها وزودت بالأقلام والمداد والقراطيس والخدم ، وحفلت برفوف تفصلها حواجز ، وقد علقت على كل منها لافتة بنوع الكتب التى تضمها ، وكانت بها قاعات للنسخ والترجمة والتأليف والمناظرة ، وقد حبس عليها الحاكم بأمر الله أوقافا ضخمة لا مجال تفصيل الحديث عنها .

أما دار الكتب فى قرطبة فقد أنشأها الحكم بن الناصر ، وقد ضمن مائتى ألف مجلد – وقيل أربعمائة ألف — وكانت فهارسها تستغرق أربعا وأربعين كراسة ، كل منها خمسون ورقة ليس فيها إلا أسماء الكتب .

وضمت سائر حواضر الاسلام فى العالم العربى مثل هذه المكتبات الغنية الخصبة . بل قامت إلى جانبها مكتبات خاصة زخرت بآلاف المجلدات وكانت تشبه من بعض الوجوه النوادى الانجليزية فى أيامنا الحاضرة . كما كانت محال الوراقة أماكن لهو وتسلية ، وبدأ ثراء المكتبات منذ القرن العاشر بوجه خاص ، فكانت مكتبة البلدية فى مدينة صغيرة كالنجف بالعراق تضم أربعين ألف مجلد ومكتبة أبى الفداء نحو سبعين ألفا ، ومكتبة السلطان المؤيد الرسولى فى جنوبى الجزيرة تضم مائة ألف مجلد ، ومكتبة المراغة أربعمائة ألف مخطوط ، وكانت أغنى هذه المكتبات جميعا مكتبة العزيز بالله الفاطمى بالقاهرة إذ ضمن مليونا وستمائة ألف مجلد مفهرسة ومنظمة ، منها ستة آلاف وخمسمائة فى فروع الرياضة ، وعشرة آلاف فى العلوم الفلسفية ، وكان الحكم فى قرطبة يقتنى مكتبة تضم أكثر من أربعمائة ألف مجلد ، مع أن ملك فرنسا العالم «شارل الخامس» لم يستطع بعده بأربعة قرون من الزمن أن يجمع فى مكتبته أكثر من ألف مجلد .. إلى آخر ما يرويه

المستشرق جاك ويسلر ، ويقول المؤرخون ان سلطان بخارى قد استدعى إلى بلاطه طبيبا عربيا معروفا ، فاعتذر هذا بأن نقل كتبه يحتاج إلى أربعمائة جمل — فيما أشار المؤرخ جيبون — وأرسل نوح بن منصور من ملوك بنى ساسان إلى الصاحب العباد يعرض عليه أن يتولى وزارته ، فاعتذر هذا عن قبول هذا المنصب حرصا على مكتبته التى لا يملك الابتعاد عنه ، وفيها من الكتب ما يتعذر نقله إلى مقامه الجديد . وخلف الواقدى مكتبة تقع فى ستمائة صندوق لا يقوى على نقل كل منها أقل من رجلين . بل كان عند الأمراء من أمثال الصاحب بن عباد كتب يقال أنها تعالى ما ضمت دور الكتب الأوربية من المجلدات . وكانت مكتبة ابن المطران طبيب صلاح الدين الأيوبى تضم عشرة آلاف مجلد . وتقوم مكتبة القفطى فى عصره — وهو عصر رخاء — بأكثر من خمسين ألف دينار (نحو ثلاثين ألف جنيه انجليزى) وكانت المستشفيات — إلى جانب المساجد والمدارس — تغص بالكتب العلمية عامة والطبية منها بوجه خاص ، لأنها كانت دورا للعلاج ، ومعاهد لتعليم الطب — وقد بلغ الشغف باقتناء الكتب فى العالم العربى ذروته فى الفترة التى امتدت من القرن الثامن حتى القرن الحادى عشر لميلاد المسيح .

هذه لمحة إلى بعض المكتبات فى حواضر الاسلام «وتتولانا الدهشة إذا نحن وازنا بين حال المكتبات فى العالم العربى وحالها فى العالم الأولى فى العصر نفسه . ومرد الأمر إلى أن العصر الذى أوقد فيه العرب تلك النهضة المشرفة المقدسة ، كانت أوربا أثناءه — بل بعده — فى حال مزرية من البداوة والتخلف ، عاشت أوربا فى ركود ألف عام . بدأ نصفها الأول — عصر الاباء — فى القرن الخامس واستمر خمسة قرون من الزمان ساد فيها ظلام وتنفض عن نفسها آثار النعاس الذى استولى عليها ، وجاهر مؤرخو الفكر بأن أوربا حتى فى العصر المدرسى — ولاسيما بين عامى ١٠٠٠ و ١٣٠٠ م كانت بيئة غير صالحا لنشأة العلم ، فإن العلوم لا تثبت فى أرض تنتشر فيها الأمية ويشيع السحر وتفشو الخرافة ، وقد صاحب هذه الظواهر قلة الكتب وفقر المكتبات وندرة المدارس وفوضى الجامعات وفساد الأخلاق . فالكتاب المقدس كان يكاد لا يوجد خارج الأديرة . والقيام بنسخه يقتضى عاما . وشراؤه يستنفد إيراد قس أبروشيه . ومن أجل

هذا قل من رجال الدين من كان يستطيع أن يحرز منه نسخة كاملة . ناهيك بكتب العلم فى ندرتها وارتفاع أسعارها ، كان الكتاب العادى غير المزخرف يباع بمبلغ يتراوح بين مائة وستين ومائتى دولار أمريكى ــ بقيمته عام ١٩٤٩ فيما يقول ول ديورنت وترتب على هذا ندرة المكتبات وقلة ما تحتوى من مجلدات .

ويروى مؤرخو العلم أن محبى العلم من رواد حركة احياء الآداب القديمة فى القرن الثانى عشر كان برنار من أهل نشارتر Beanaid of chartres ويقال أنه قد خلف وراءه مكتبة تضم أربعة وعشرين مجلدا له وكانت إيطاليا أغنى من فرنسا . ولهذا اقتنى أكبر رجال القانون بها «أوكيرسيوس» Oecursius ثلاثة وستين كتابا ! وكانت أغنى مكتبة فى أوربا مكتبة كنيسة كتربرى وقد كانت تضم خمسة آلاف كتاب عام ١٣٠٠ م . وأما غيرها من المكتبات الكبيرة فكانت لا تحوى أكثر من مائة مجلد ! مع استثناء مكتبة كلونى cluny التى حوت فى القرن الثانى عشر خمسمائة وسبعين كتابا ، هذا بعض ما يقوله مؤرخو العلم عن المكتبات فى أوربا أبان العصر الذى تؤرخ له . والمقارنة بينها وبين المكتبات فى حواضر الاسلام فى العالم العربى تلقى ضوءاً على الهوة السحيقة التى كانت تفصل بين العالمين فى مجال العلم .

وبعده ، فقد قلنا فى مستهل الموازنة أن بين الحضارة الاسلامية والحضارة الأوربية فوارق جذرية ضخمة ، تبدأ من المنبع وتسير حتى المصب ، ولكننا نقول الآن ان تاريخ الفكر الحضارى يشهد بأن هذه الفوارق الضخمة لم تمنع من قيام لقاءات حضارية خلت من السلاح والحقد والصراع ، بل كانت لقاءات فكرية كلها عطاء بين الأوربين فى الغرب والمسلمين فى الشرق ، فلنقف عند أربعة منها عسى أن نكشف عن بعض أسرارها ، ونتعرف على أهم نتائجها الطيبة .

الباب الخامس

اللقاءات الحضارية بين الأوربيين فى الغرب والمسلمين فى الشرق

تمهيد : الشرق والغرب يلتقيان :

انفتاح العالم الاسلامى على اليونان قديما .
انفتاح أوربا على العالم الاسلامى فى صقلية .
انفتاح أوربا على الحضارة الاسلامية ودواعى النهضة ونتائجها فى بلاد الأندلس .
انتقال الحضارة الاسلامية إلى أوربا أثناء الحروب الصليبية .

تمهيد :

نسقط من حسابنا أى لقاء حربى مسلح بين الأوربيين والمسلمين قديما أو حديثا ، وسنقصر حديثنا على اللقاءات التى أفاد منها أحد الفريقين من الفريق الآخر علما وفلسفة وأدبا وفنا وحضارة ، لأن هذا هو صميم حديثنا ، وسنكتفى طبعا بأهم هذه اللقاءات الحضارية ، ونعنى بها :

(ا) انفتاح العالم الاسلامى على الأمم ذات الحضارات القديمة وأهمها اليونان (ولا يعنينا الآن الهند وفارس ، وذلك منذ منتصف القرن ٨ للميلاد أى مطلع العصر العباسى حتى آخر القرن التاسع .

(ب) انفتاح أوربا على الحضارة الاسلامية فى صقلية فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر .

(جـ) انفتاح أوربا على الحضارة العربية الاسلامية فى بلاد الأندلس منذ النصف الأول من القرن الثانى عشر .

(د) اتصال أوربا بحضارة الاسلام فى الحروب الصليبية .

(هـ) اتصال بعض الدول الاسلامية بالحضارة الأوربية فى العصر الحديث .

وقبل أن نقف عند هذه اللقاءات الحضارية نمهد بكلمة ضرورية :

ونقول الآن أن اللقاء الحضارى بين شعبين سبلا متعددة أولها وأهمها أن يترجم الشعب إلى تراث شعب يسبقه حضارة ، وقد يكون اللقاء بهجرة علماء إلى الشعب الأكثر حضارة والاقامة معه والاتصال بعلومه وفنونه وآدابه . وقد يقال ان الاستعمار قد لا يخلو من فائدة الشعب الضعيف متى كان فى هذا الاستعمار شئ من العدل والانسانية ، ولا يعرف تاريخ الاستعمار شيئا من ذلك .

أما الترجمة فنقول فى أمرها أنها طريقة مأمون حتى استهدفت المساعدة على تطوير الانسان بتنمية ثقافته وبناء فكره ولم تكن مجرد وسيلة لأغرض سياسية أو إعلامية أو جلب رزق . والأصل فى الترجمة أنها نزوع طبيعى عند الانسان إلى كشف مجهول ، فإن وفق إلى ذلك لذ له أن يطلع عليه غيره من الناس ولهذا فإن المتزمتين الذين أشفقوا على قيمهم الدينية أو أعرافهم الاجتماعية من التراث الوافد الدخيل كثير ما هاجموا الترجمة وأصحابها فى غير رفق ، ولكنهم مع حملاتهم الضارية لم يستطيعوا أن يوقفوا تيار الترجمة — إن وجد — أو يمنعوا تسلل الفكر الوافد الغريب وتغلغله فى الفكر الأصيل ، وهذا ما يشهد به العصر الذهبى للاسلام منذ مطلع العصر العباسى ، وهذا أيضا ما تثبته يقظة أوربا بعد ركودها فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر حين نقلت إلى نفسها العلمية تراث العرب الاسلامى كما سنعرف بعد قليل .

ومن الضلال ما ينتاب بعضنا من ذعر مما يسمونه بالغزو الثقافى ، ظنا منهم أنه يعنى نقل المذاهب الهدامة ، والترويج لموبقات واشاعة الخمر والمخدرات والشذوذ وما يتبعه من الشهوات والنزوات وغير هذا مما يهدم قيمنا الدينية وأعرافنا الاجتماعية .. — كما زعم محرر جريدة عربية — .. ومناقشة مثل هذا العبث مضيعة للوقت وامتهان للعقل .

ومن المؤسف حقا أن عالمنا العربى فى عصره الحديث يستخف بالترجمة ولا يوليها ما تستحقه من تقدير ، وبلغ من أمر هذا الاستخفاف أن بعض اللجان العلمية التى تتصدى لفحص الانتاج العلمى للمرشحين للترقية من أعضاء هيئات التدريس بالجامعات

تستبعد من انتاج المرشح للترقية آثاره التى قام بترجمتها ، وقد تكون لحسن اختيارها وقيمتها العلمية أعظم من انتاجه المؤلف وأجدى ..

ونقول فى ختام هذا التمهيد أن من الطريف جدا أن المتبع للقاءات الحربية المسلحة بين أوربا المسيحية والشرق الاسلامى — حتى فى أشدها ضراوة كالحروب الصليبية — لم تكن تخلو من أن تكون لقاءات حضارية ثقافية .. كما سنعرف عند الحديث عن الحروب الصليبية التى مكنت الغرب المسيحى من أن يفيد من الحضارة الاسلامية المزدهرة .

الشرق والغرب يلتقيان :

كان شاعر الاستعمار الانجليزى رديارد كبيلنج + ١٩٣٦ Radiard Kipling يقول ما يقوله غيره من المستعمرين — الشرق شرق والغرب غرب ، ولا يمكن أن يلتقيا — وذلك ظناً منهم بأن طبيعة العقلية الغربية تؤهلها لإبداع الفكر والأصل المبتكر ، وأما طبيعة العقلية الشرقية فإنها لاتؤهلهم فى مجال الفكر لابداع جديد ، بل أن أصحابها من الشرقيين لا يقوون على فهم الفكر الغربى الأصيل ، فإن ترجموه شوهوه بترجماتهم لأنهم لم يفهموه .. ولكن استقراء تاريخ الفكر يشهد بأن كيبلنج وأمثاله من المستعمرين قد ضلوا سبيلا ، فإن الأوربيين فى الغرب والمسلمين فى الشرق قد كانت بينهم طوال التاريخ لقاءات حضارية — وليست حربية — نتحدث عن أربعة من هذه اللقاءات ، لقاء بدأ فى حركة الترجمة التى نهض بها المسلمون فى مطلع القرن الثامن للميلاد ، ونقلوا فيها تراث اليونان وطعموا به تراثهم فكان هذا بداية العصر الذهبى لحضارة الاسلام ، وفى ثلاث لقاءات أخرى نهضت أوربا بترجمة التراث العربى الاسلامى فى العلم والفلسفة والفن والأدب ، وكان هذا فى صقلية — وهى تحت حكم العرب المسلمين — فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر ، وفى أسبانيا — بلاد الأندلس — منذ النصف الأول من القرن الثانى عشر ، وفى أثناء الحروب الصليبية التى استمرت من القرن الحادى عشر حتى الثالث عشر[1] ، وأسفر اتصال أوربا بحضارة الاسلام عن خير وبركة ، إذ

---

(١) نفضل اتصال الغرب بالشرق منذ أربعة وعشرين قرنا ، فان الاسكندر الأكبر أراد فى فتوحاته فى الشرق أن ينقل تراث اليونان العقلى الحضارى إلى الشرق ، وينقل تراث الشرق الدينى الصوفى إلى الغرب فيوحد بينهما فى دولة تدين لسلطانه .. ونشأ بذلك ما سمى بعصر الهلينستى Helenistic والحضارة الهلينسية التى تمثلت فى فلسفات الرواقية

أدى هذا فى أوربا إلى يقظة بعد جمود ، ونهضة بعد ركود فانتعشت بها العلوم والفلسفات والفنون والآداب ونعرف هذا كله فيما يلى من حديث :

والابيقورية والشكاك والأفلاطونيين الجدد . فبدأ هذا فى دراسة النباتات وصلاحية التربة لنباتات معينة ، ونوع الأسمدة الصالحة لصنوف النباتات ، وعرفوا التطعيم وتوليد أصناف جديدة من أشجار الفاكهة وغيرها .. وعرفت أوربا من العرب كثيرا من النباتات التى كانت تجهلها كالأرز وقصب السكر والمشمش والخرشوف إلى جانب ما أفادته أوربا فى مجال البناء والزخرفة .

وقد انتقلت أبحاث العرب المسلمين وعلومهم إلى أوربا عن طريق صقلية وأسبانيا والحروب الصليبية حيث أنشأ العرب جامعات ومدارس أمام طلاب العلم من الأوربيين ونهلوا من علم أساتذتها المسلمين .. وهكذا تسلمت أوربا القبس من العرب المسلمين وكان المسلمون حين نقلوا عن اليونان تراثهم — كما سنعرف بعد قليل — أصحاب حضارة مزدهرة يانعة ، ولم يكونوا مجرد نقلة ، وإنما أضافوا إلى التراث الذى ترجموه إضافات من تجاربهم أو تأملاتهم العقلية وكان الكثير منها أصيلا مبتكرا . ان الانفتاح على العالم المتحضر ضرورة يقتضيها التخطيط الواعى لمستقبلنا ، كل ما نطالب به الذين ينقلون إلينا ثقافات أجنبية أن يتوخوا فيما ينقلون ما يخدم قضايانا ولا يمس قيمنا الدينية وأعرافنا الاجتماعية ، ولهم مطلق الحرية بعد ذلك فى نقل ما يشاءون ، عسى أن يبعث ذلك فى الركود الجاثم علينا الحركة والحياة . ان الترجمة تقتحم عالم الجهالة والجمود وتبدد ظلامه وتشيع فيه النور والأمل . ولنعد الآن إلى اللقاءات الحضارية بين الأوربيين والمسلمين لنعرف كيف أدت إلى اشاعة وازدهار الحضارة وخصوبة الانتاج الفكرى وأصالته .

الفصل الأول

انفتاح العالم الاسلامى على اليونان قديما :

بدأ أكبر معالم هذا الانفتاح فى حركة ترجمة واسعة النطاق عميقة المضمون فى مطلع العصر العباسى، وهى حركة خصبة لم يعرف العالم العربى أو الاسلامى كله نظير لها أبان تاريخه الطويل . وفى إشارة خاطفة نقول إن العالم الاسلامى قد انفتح بهذه الحركة على الأمم ذات الحضارات القديمة وأخصها اليونان ، والهند ، وفارس — وأن التراث الأجنبى الوافد قد تفاعل مع التراث الاسلامى . الأصيل ، فكان نتيجة التفاعل تراثا هنيا يتميز بالجدة والأصالة والابتكار طوال القرنين العاشر والحادى عشر .

ان « الدومييلى » Aldo Mieli أكبر المستشرقين الذين أرخوا العلوم العربية — فيزيقية ورياضية — يقول : كان منتصف القرن الثامن الميلادى نقطة تحول فكرى بالغ الأهمية فى تاريخ العقل البشرى ، ففى ذلك التاريخ نشأ حكم بنى العباس فى المشرق العربى[١] وبدأ حكم الأمويين فى المغرب العربى[٢] . ففى المشرق العربى بدأت حركة الترجمة السالفة الذكر وسرعان ما ازدهرت الحضارة العربية ونضج العلم العربى ، وانتقل هذا إلى بلاد الأندلس فى وقت كانت فيه أوربا فى حال مزرية من الجهالة والتخلف كما سنعرف بعد .

وفى الفترة الأولى من خلافة العباسيين كان المرتجمون من اليونانية إلى السريانية ومن السريانية إلى العربية هم الذين احتلوا المرتبة الأولى من النشاط العلمى ، ولاسيما فى مجال الطب وفى مقدمتهم جرجس بن جبريل بختيشوع + ٧٧١ م وهو نسطورى من مدرسة جند يسابور ، وحفيده جبريل بن يختيشوع + ٨٠٠ م وأبو يحيى البطريق + ٨٠٠ م وابنه زكريا ، ومحمد بن أدهم الغزارى ت ٨٠٠ م وكان أبوه فلكيا وكان أول من صنع

---

(١) يطلق المشرق العربى الاسلامى على مصر والعراق وإيران وسوريا .

(٢) ويراد بالمغرب العربى الاسلامى أسبانيا أو بلاد الأندلس (وهى ما دان بحكم العرب من شبه جزيرة ايبريا .

الاسطرلاب من المسلمين ، وعن طريقهما عرف كتاب السند هند فى الفلك ومع هؤلاء كثيرون واستمرت حركة الترجمة كحركة أمة أو مدرسة قرنا ونصف قرن ، من منتصف الثامن حتى آخر التاسع ، واجتاز العرب بعد ذلك مرحلة الترجمة ، وبعدها انتقل العرب المسلمون إلى مرحلة الأصالة والابتكار ، على أننا نجد من الضرورى أن نشير إلى أشهر مدرسة للترجمة فى الاسلام وهى مدرسة حنين بن اسحاق + ٨٧٧ م وهو نسطورى من مدرسة جند يسابور وشيخ المترجمين فى بيت الحكمة فى بغداد وابنه أبو يعقوب + ٩١٠ م وابن أخته حبيش بن الحسن ، ولم تحدث هذه الحركة المباركة من فراغ ، فقد مهدت ليقظة العرب وحرصهم على العلم واقتناء مصادره من مظانها المختلفة عدة عوامل فى مقدمتها كفالة الدولة لحرية الفكر ، والرخاء الذى نعمت به الدولة ممثلة فى خلفائها وأمرائها وأهل اليسار من أبنائها ، مما ساعد على رعاية العلماء من كل جنس وملة ، وجمع المخطوطات من نطاقها المختلفة ، وإنشاء المكتبات الضخمة على صعيد الحكومة والأفراد .. وكانت حركة الترجمة من نتائج هذه العوامل متضافرة تفاعلت معها وأثرت فيها وتأثرت بها ، وكانت دهشة الباحثين فسبقوا إلى تسمية هذا العصر بعصر الاسلام الذهبى .

وعلينا أن نلقى بعض الأضواء على العوامل السالفة :

أما حرية الفكر فمردها إلى سماحة الاسلام الذى يكفل حرية الرأى حتى لمن لا يدينون به ، ويحذر من إكراه المسلمين على شئ حتى ولو كان العقيدة الدينية .. يقول تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى ..** ﴾ ويقول فى سورة الكهف : ﴿ **وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ..** ﴾ وفى سورة يونس يخاطب الله نبيه المصطفى بقوله : ﴿ **أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾ . وخليفة المسلمين لا يحتكر تأويل الكتاب والسنة حتى يكون مصدرا للحقائق المعتمدة ، ولا يعد معصوما من الخطأ ، وقد جرد الاسلام رجال الدين من كل سلطة دنيوية ، فالله تعالى يخاطب نبيه المصطفى بقوله : ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر** ﴾ .

وبهذا وبغيره سبق الاسلام الثورة الفرنسية بل الاعلان العالمى لحقوق الانسان فى ميثاق هيئة الأمم المتحدة فى إقرار الحرية الفردية ..

ولا عجب بعد ذلك أن يكفل خلفاء المسلمين حرية الفكر حتى لمن لايدينون بالاسلام . ولم يكن غريبا أن يقيم فى ظل الاسلام أهل العلم من المسيحيين واليهود والصابئة ومن إليهم فى حرية وأمن وتوفير[1] .

وفى ظل هذه السماحة عاشت تقاليد الاسلام فى دولة العرب ، وعاش فى عنقها حملة العلم من المؤمنين وغيرهم ، يهودا كانوا أو مسيحيين أو صابئة أو غير هؤلاء جميعا فى رعاية الخلفاء وأهل اليسار ، مكفولى الأمن وحرية الرأى والعقيدة ، بل نالوا عند الخلفاء حظوة رفعت الكثيرين منهم إلى أعلى المناصب وكفلت لبعضهم من النفوذ ما جعل بعضهم يأخذون مكان الخليفة فى إدارة شئون البلاد ، وكانت لهم الصدارة دون الأمراء والوزراء أحيانا ، بل كان بين الخلفاء من يجاهر بأن العلماء — من هؤلاء الذميين واللادينيين — أرفع مكانة من الخلفاء أنفسهم !! .. وتهيأ لبعضهم كسب مادى مرموق أتاح لهم حياة ترف رفعتهم فوق سائر الناس ، فى وقت عانى الفاقة فيه أقرانهم من علماء المسلمين[2] ..

دواعى النهضة الاسلامية ونتائجها :

وقد سايرت النهضة التى نحن بصددها وكانت من دواعيها ومن نتائجها عدة ظواهر فيها أن سبل التعليم قد يسرت حتى أصبح بغير أجر ، وكان المعلمون والطلاب يتقاضون

---

(١) قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ . فى تفسير الطبرى أن من صدق رسول الله واليهود والمسيحيين والصابئة (وهم الذين يعبدون الملائكة ، وقيل من لا دين لهم ، وقيل من يؤمنون بإله واحد وليس لهم كتاب ولا نبى . أولئك جميعا لهم ثواب عملهم الصالح عند ربهم ، ولا خوف عليهم من أهوال البعث ، ولا هم يحزنون على ما خلفوا من الدنيا ..

(٢) حسبنا أن نشير إلى أن بختيشوع قضى فى خدمة الرشيد والمأمون ثلاثة وعشرين عاما جمع خلالها ثروة تقدر بثمانية وثمانين مليون درهم ، .قدرها فون كريمر Kremer بنحو مليون ونصف جنيه استرلينى — مثل تخفيض نوفمبر ٦٧ — وهى لين بول Lone-Poole تعادل مليونا وثمانمائة وخمسة وسبعين ألف جنيه ، ويقدرها ول ديورنت W. Durant بنحو سبعة ملايين ومائة ألف وأربعة دولارات أمريكية وهى ثروة يتعذر جمعها على أى طبيب معاصر فى أغنى دول الأرض .

أجورهم من الحكومة أو من أموال الصدقات وطلاب العلم يجوبون حواضر العالم العربى والاسلامى التماسا للمعرفة ، فيجدون فى كل بلد غريب مأوى وطعاما وعلما يتلقونه .. وأهم من هذا كله نشأة مكتبات حكومية أو ملكا لأفراد ، وكانت أكثرها زاخرة بألاف المخطوطات فى كل علم وفن .

وراء هذا كله كان رخاء الدولة العربية وثراء الأمراء وكثير من أفراد الناس ، ومن هنا كانت كفالة الحياة الكريمة للعلماء وتهيئة الجو لصالح دراساتهم ، ووضع مصادر العلم ومقتضياته تحت أيديهم .

وفى هذا الجو نقل المسلمون إلى لغتهم العربية تراث اليونان من علم وفلسفة ترجم العرب عن اليونان الفلسفة والفلك والرياضة والطب ــ وكان الطب اليونانى متأثرا بطب مصر القديمة الذى ازدهر وبلغ ذروة نضجه فى كل الفروع المعروفة إلى أيامنا الحاضرة ، كما نقل العرب عن اليونان علومهم فى الفيزيقا والحياة السياسية والاجتماع والفنون الجميلة ونحوها . ولكنهم زهدوا بل انصرفوا عن نقل الآداب اليونانية لأنها كانت وثنية تتحدث كثيرا عن الآلهة وكيف كان يصارع بعضها بعضا ، وفيها ــ فوق هذا كله نقائض البشر .. ولم يكن غريبا أن يتصل المسلمون فى ذلك العصر بالتراث اليونانى القديم وينهلوا من معانيه ، فإن الكثيرين من أهل الفكر الحديث فى أوربا يردون نهضة الغربيين وحضارتهم الحديثة إلى اليونان[1] .

ومع سخاء الخلفاء وأهل اليسار مع المترجمين حتى كان شيخهم حنين بن اسحاق + ٨٧٧ م يتقاضى وزن ما يترجمه ذهبا ، وكان يكتب ترجماته على ورق سميك ويكبر الكلمات ويوسع ما بين الأسطر لتعظم مكافأته من الذهب ، ولكنه مع غيره من المترجمين

---

(١) أعوزتهم معرفة اللغة اليونانية أولا ، فلجأوا إلى العرب الذين كانوا قد نقلوا إلى لغتهم التراث اليونانى وراحوا ينهلون من التراث العربى ما أغناهم مؤقتا عن معرفة اليونانية ، فلما عرفوا اليونانية ــ حين استولى الأتراك على القسطنطينية عام ١٤٥٣ ففر الكثيرون من علمائها إلى إيطاليا وغيرها ومعهم النصوص والمخطوطات اليونانية وراحوا يعلمونها لأهل اللاتين فلما عرفوها أخذوا ينقلون عن اليونان رأسا من غير وسيط ، وأحدثوا حركة علمية فى فلورانسا بوجه خاص ، ولهدوء الحركة تميزت بحرية فى الرأى ، ومكنتهم من نقد السابقين والرد عليهم إلى جانب أن الثقافة اليونانية علمية وفلسفية وفنية قد أحبت فيهم حب الطبيعة والتعلق بها .

كانوا يلتزمون الدقة ويتوخون الأمانة فيما ينقلون ، وكانوا فى العادة يقسمون الجمل إلى بنود وفقرات حتى يتيسر نقل معانيها إلى العربية، وشروحهم للأصل تشهد بأنهم كانوا على إلمام دقيق بالتعبيرات الدارجة والمصطلحات المألوفة فى اللغة التى ينقلون عنها ، وإن كان بعض المترجمين قد توخوا الترجمة الحرفية ، ولكن أكثر الترجمات التى شك فى صحتها أو دقتها لكبار المترجمين قد أعادوا ترجمتها لاصلاحها أو إعادة نقلها .

أما ما وقع فى الترجمة من أخطاء فكان مرده إلى أن الكثير من كتب التراث اليونانى قد نقل إلى السريانية ووقع ناقلوه فى أخطاء ، فلما نقل العرب هذه الكتب عن ترجماتها السريانية (أو غيرها) نقلوا هذه الأخطاء إلى لغة العرب ، إلى جانب أن مترجمى العرب كانوا كثيرا ما يقنعون بنقل المعانى المهمة ويغفلون عن عمد ما عداها ، وكثيرا ما كانوا يشرحون ما يترجمونه ويمحصونه وينقدونه ويضيفون إلى الأصل معانى دون أن يهتموا بالتنبيه إلى ما أضافوه إلى الأصل من معانى وأفكار ، وكان يقوم بالترجمة عادة جماعات من المترجمين يشرف على كل منها رئيس يراجع أعمالهم ، ويصحح أخطاءهم ، كما حدث خاصة فى مكتبة بيت الحكمة فى بغداد أو دار الحكمة . أما الأولى فقد أنشأها الرشيد ، وتعهدها المأمون ونماها منذ سنة ٨٣٠ م وكانت تضم مترجمين من اليونانية والفارسية ، وللمترجمين رئيس ومساعدون معهم نساخ وعمال ومجلدون .. وللمكتبة مدير يشرف مع معاونيه على شئونها .

وكانت أشهر منابع الثقافة اليونانية ــ قبل الاسلام وبعده ــ مدارس فى مقدمتها جند يسابور التى أسسها كسرى انوشروان ، وكان معلموا الطب فيها من النساطرة وأشهر أطبائها جورجيس بن بختيسوع وابنه جبريل وغيرهما ممن مهروا فى الترجمة الى العربية ومدرسة هراف التى اهتمت بترجمة الرياضيات والفلك ومن أشهر مترجميها ثابت بن قرة + ٩٠٠ ، والنباتى ت ٩٢٩ الفلكى .. ثم مدرسة الاسكندرية وقد اشتهرت بالطب والكيمياء والعلوم الفيزيقية . والنباتى ت ٩٢٩ الفلكى .. ثم مدرسة الاسكندرية وقد اشتهرت بالطب والكيمياء والعلوم الفيزيقية . وترجم التراث اليونانى فيما يقول أوليرى فى كتابه عن الفكر العربى خمس طوائف هم النساطرة واليعاقبة والزراد شتيون

والوثنيون الحرانيون ، واليهود ، ولكن الطب قد تحول بعد القرن الحادى عشر الميلادى إلى أيدى المسلمين ولم يكن المسلمون مجرد نقله ، ولكن إضافاتهم الأصول التى نقلوا عنها نشهد بأنهم زادوا وابتكروا لأنهم كانوا ينظرون بعين إلى الثقافة اليونانية ، وبالعين الأخرى إلى التعاليم الاسلامية .

ولم يكن العرب والمسلمون مجرد نقلة فى حركة الترجمة كما قلنا ، وإنما حللوا وأضافوا وابتكروا بشهادة الكثيرين فى المستشرقين ، وحسبنا أن نشير إلى ما فعلوه فى مجال الطب . حقيقة أنهم نقلوا طب اليونان ، خاصة ابقراط وجالينوس ، وما كان منه معروفا للسريان وغيرهم . ولكن من أطباء العرب من كانوا أئمة الطب العالمى ورواده ، كأبى بكر الرازى، ٩٣٢م وابن سينا ١٠٣٧م وعلى بن عباس ٩٩٤، وأبى القاسم الزهراوى أمام الجراحة ت١٠١٣ وغيرهم. وقد أحصوا أطباء بغداد وحدها فى زمن المعتز بالله فى أول القرن الرابع الهجرى فكانوا ثمانمائة وستين طبيبا تقدموا للامتحان فى الطب لنيل ترخيص بمزاولة المهنة ـ وذلك غير من لم يتقدم للامتحان لشهرته أو لأنه يخدم فى بلاط الخليفة .. بل كان فى خدمة المتوكل فى القرن الثالث للهجرة ستة وخمسون طبيبا .. وكانوا كثيرا ما يذكرون رأى ابقراط أو جالينوس ويعقبون برفضه وبيان أسباب ذلك . وكان من إضافاتهم المبتكرة فى الطب ، أنهم أول من استخدم المرقد (أى البنج) والكاويات فى الجراحة ، وعرفوا شكل الأظافر فى المصدورين ، واستعملوا الأفيون بمقادير كبيرة لمعالجة الجنون ، وصب الماء البارد لإيقاف النزيف ووضعوا إبرة الماء الأزرق وجراحة تفتيت الحصوة ، وقد أشار إلى هذا كله مؤرخوا الطب من الفرنجة وفى مقدمتهم لومسيه بن لوكلير L. Leclare فى تاريخ الطب العربى . وكانوا أول من كتب عن الجذام والحصبة وغيرها ، وقد آتينا عن فضلهم فى ذلك وفى الصيدلة والكيمياء والنبات فى كتابنا عن العرب والعلم فى عصر الاسلام الذهبى وبحق كان العصر الذى بدأ بحركة الترجمة الواسعة الشاملة فى نظر المستشرقين والشرقيين على السواء ، هو عصر الاسلام الذهبى لأنه بدأ بترجمة أصول ثقافية أجنبية ، تفاعلت مع ثقافة إسلامية وكان من ذلك ابتكار وتجديد وأصالة . ولكن الأمانة العلمية تقتضينا أن

نقول أن المتزمتين من المتدينين لم يحسنوا استقبال التراث الأجنبى الدخيل إذ قابلوا بين العلوم اليونانية والعلوم الشرعية ، ومع أن العلوم اليونانية ـــ من رياضيات وطبيعيات والهيات (ومنها فلسفة وطبيعة وطب وفلك وموسيقى) .. إلى آخر دائرة المعارف اليونانية ـــ مع أن هذه العلوم قد صادفت عند المسلمين اهتماما ملحوظا منذ القرن الثانى للجهرة فنقلوها إلى لغتهم بتشجيع من الخلفاء العباسيين وأهل اليسار مع هذا فإن طائفة من المتشردين فى المتبرئين قد أساءوا الظن بها واتهموا من يشتغل بها بالالحاد ، وإن واصل هؤلاء الاشتغال بهذه العلوم ولم توقف نشاطهم الحملات التى يشنها هؤلاء المتطرفين ، وقد بلغ الأمر أن شك الغزالى ت ٥٠٥ هـ/١١١١ م ـ وهو صاحب أقوى حملة ضارية على الفلسفة ـــ شك فى أن رجال الدين ينفرون من علوم كالحساب والمنطق لا لشئ إلا لأنها من علوم الفلاسفة الملحدين ، مع أنهما ـــ فيما يقول الغزالى فى «معيار العلم» لا يتعرضان للمذاهب الدينية أدنى تعرض ، بل أن الماوردى ـــ وهو من المعتزلة حماة العقل فى الفكر الدينى ـــ يرى أن النبى حين حث الناس على طلب العلم كان يقصد العلوم الشرعية وحدها دون العلوم العقلية كما أن «ابن تيمية» ت ١٣٢٨ م قد صرح بأن العلم هو وحده الموروث عن النبى .. فلا عجب بعد هذا إن قيل أن العلوم اليونانية حكمة مشوبة بكفر ، وبحجة أن الاشتغال بها يقترن بالاستخفاف بقواعد الدين ودراساته .

وقد شن المتشددون حملاتهم الضارية على الهيات أرسطو بوجه خاص ، لأن مقدماتها ونتائجها تتعارض تماما مع مقتضيات العقيدة الاسلامية ، بل إن دراسة الهندسة لم تسلم من هذا العداء .. والغريب أن «الغزالى» رأى أن العلوم الرياضية لا يتعلق شئ منها بالأمور الدينية نفيا أو اثباتا ، وقد صرح بأن دراستها تنجم عنها آفة تتمثل فى أن يحسن الاعتقاد فى الفلاسفة ويسمع عن إلحادهم قد يقول لنفسه : لو كان الدين حقا ما خفى أمره على هؤلاء .. بل أنه فى كتابيه المنقذ والأحياء قد استبعد الرياضة من دائرة العلوم التى يجوز للمسلم الاشتغال بها .. لأنها وان لم تتعلق بالدين إلا أن مبادئ أصحابها قد يسرى شرها إليهم ، بل أن المتشددين قد هاجموا المنطق اليونانى بحجة أن التسليم بطرق

البرهان الأرسطاطاليسية خطر يهدد صحة العقائد الإيمانية .. ولهذا قيل أن من تمنطق تزندق ..

ومع أن الغزالى قد صرح بأن منهج البحث فى الأمور الفقهية لا يختلف عن منهج البحث فى الأمور العقلية ، إلا أنه قد صرح فى «المنقذ من الضلال» أنه وإن كان كالرياضيات لا خطر منه فى ذاته ، إلا أن من ينظر فى المنطق فيستحسنه ، قد يظن أن ما ينقل عن الفلاسفة من الكفريات مؤيد بمثل تلك البراهين اليقينية فيتعجل ويقع فى الكفر ..

ثم بلغت معارضة المنطق ذروتها بعد الغزالى على يد واحد من أشهر وأكبر المحدثين فى بدأ عصر الانحلال . ذلك هو «ابن الصلاح الشهر زورى ت ٦٤٣ هـ/ ١٣٠١ م . وقد أصدر فتوى دينية قال فيها «الفلسفة أسس السفه والانحلال ، ومادة الحيرة والضلال ، ومثال الزيغ والزندقة ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المطهرة ، المؤيدة بالحجج الظاهرة ، والبراهين الباهرة .. وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة ، ومدخل الشرشر وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشرع ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين ، والسلف الصالحين وسائر من تقيدى به من أعلام الأمة وساداتها ، وأركان الأمة وقادتها ، فقد برأ الله الجميع من معرة ذلك وأدناسه ، وطهرهم من أوضاره ، وأما استعمال الاصطلاحات المنطقية فى مباحث الأحكام الشرعية — يشير بذلك إلى لغز الحد فهو من المنكرات المستبشعة ، والرفاعات المستحدثة ، وليس بالأحكام الشرعية ، والحمد لله ، افتقار إلى المنطق أصلا .. فالواجب على السلطان أن يدفع عدد المسلمين شر هؤلاء المباشيم — لعلا المشائيم ، ويخرجهم من المدارس ويبعدهم ، ويعاقب على الاشتغال بفنهم ويعرض من ظهر عنه اعتقاد عقائد الفلسفة على السيف أو الاسلام لتخمد نارهم ، ويمحى آثارها وآثارهم يسر الله ذلك وعجله ، ومن أوجب هذا الواجب عزل من كان يدرس مدرسته من أهل الفلسفة والتصنيف فيها والاقراء لها ، ثم سجنه والزامه فنزله .. «إلى آخر ما يرويه المستشرق الألمانى جولدسيهر + ١٩٢١ Goldziher وكان للفتوى أثرها فى الاستخفاف بالعلوم اليونانية الفلسفية واتهام المشتغلين بها بالالحاد .. ومع ذلك هل

توقف المسلمون عن دراسة الفلسفة وعلومها ؟ .. كلا لم يحدث ذلك ، بل إن الاشتغال بها قد ازدهر كثيرا فى عالمنا العربى الاسلامى فى عصورنا الحديثة .. ولكن من أسف أننا اليوم ونحن فى أواخر القرن العشرين نواجه ممن ينفرون من الانفتاح على عالم سبقنا فى مضمار الحضارة بعدة قرون ، ويهاجمون الغزو الثقافى بحجة أنه يهدم قيمنا وأعرافنا ويقضى على شخصيتنا .. حسبنا هذا عن انفتاح العالم الاسلامى على تراث اليونان فى أوربا .

الفصـــل الثـــانى

أوربا تنقل التراث الاسلامى فى صقلية

أبحر مغاربة أفريقيا إلى صقلية عام ٨٢٧ م واستولوا على الجزيرة كلها باستسلام سرقسطة عام ٨٧٨ م واستولوا على عدة ولايات ففى جنوب إيطاليا ، وظلوا آمنين فى الجزيرة حتى عام ١٠٦٠ م حين انتزع منهم ملوك النورمانديين بالرمود ١٠٧٢ ثم أنهو سلطان المسلمين فى الجزيرة كلها بالاستيلاء على نونو عام ١٠٩٢ م أى أن المسلمين قد قضوا فى حكم الجزيرة مائتين واثنين وسبعين عاما وخلال ذلك نشروا فى ربوعها الحضارة الاسلامية ، وأقامو الحكم على أساس ديمقراطى مصحوب بتسامح دينى لا عهد به لأوربا المسيحية . وأدخلوا فى الجزيرة صناعات وزراعات لم تكن معروفة لأهلها ، منها صناعة الورق التى انتشرت منها إلى إيطاليا وصناعة المنسوجات الحريرية ، وأدخلوا أساليبهم الفنية فى العمارة والصناعات الدقيقة .

ومن الطريف أن سلوك النورمانديين الذين خلفوا المسلمين فى حكم الجزيرة قد واصلوا نهج المسلمين فى الالتزام بالتسامح الدينى إلى حد أن احتفظ الكثيرون من أهالى الجزيرة بعقيدة الاسلام . وكان ملوك النورمانديين ـــ إلى جانب هذا ـــ حماة للعلوم وأمناء على تنميتها ، ومن دلالات هذا أن روجار الثانى + ١١٥٤ الذى اقترن اسمه باسم جغرافى عربى مسلم هو الشريف الادريسى ١٠٦٦ م الذى يمثل مرحلة العناية بالجغرافيا الرياضية ، ويتميز بقدرة خارقة على رسم الخرائط كما قلنا من قبل ، وعنده ـــ ومعاصريه ـــ اتسع رسم الخرائط حتى شمل العالم كله ـــ لا الاسلامى وحده ـــ وقد استدعاه روجار الثانى إلى بلاطه وأغدق عليه النعم وأمر أن تفرغ له كرة من الفضة عظيمة الجرم ضخمة الجسم فى وزن أربعمائة رطل ، ورسم عليها الأدريسى الأقاليم السبعة ببلادها وأطوالها وأقطارها وسبلها وريفها وخلجانها ومجاريها ونوابع أنهارها غامرها وعامرها وما بين كل بلد وغيره من الطرقات المطروقة والأميال المحدودة والمسافات والمراسى المعروفة . ولا يغادروا فيها شيئا .. «وطلب الملك من الادريسى أن يضع كتابا فى وصف هذه الكرة الأرضية فكان كتابه المعروف «نزهة المشتاق فى

اختراق الآفاق » ومن خريطته يبدو أنه كان يعرف منابع النيل ، ومن كتابه أنه فطن أن فى النيل عند بلاد النوبة تماسيح وأسماك وكان فى كل ما كتب آية فى الدقة والفطنة ، فكان خليقاً بأن يعد « سترابون العرب » وقد استخرج المجمع العلمى العراق عام ١٩٥١ خريطة للادريسى طولها متران وعرضها متر ، واستخرج كونارد ميلر خريطة الادريسى ونشرها باللاتينية فى طبعة ملونة عام ١٩٣١ ، كما روينا فى كتاب سابق لنا .

وفى صقلية تصدت طائفة من المترجمين لنقل التراث العربى الاسلامى إلى الشعوب الأوربية اللاتينية فى مقدمتهم قسطنطين الأفريقى وأتباعه . وازدادت الحضارة العربية ازدهارا تحت حكم فردريك الثانى + ١٢٥٠ وكان من أوائل الشعراء والكتاب الايطاليين باللغة الشعبية الدارجة وقد ضم إلى حاشيته علماء بعضهم من العرب المسلمين ، ومن أجل ذلك ، ومن أجل آرائه المتحررة وإعجابه بالعرب إلى حد أن اصطنع فى بلاطه مظاهر الحضارة الاسلامية كما فعل روجار الثانى ، من أجل ذلك كله اضطهدته الكنيسة وكان تحت وصايتها فى طفولته ، وقد واصل ما عرف به المسلمين من تسامح دينى .

واستمرت حضارة العرب فى صقلية عدة قرون ، واستندت تلك الحضارة إلى ثلاث لغات علمية عالمية هى : اللاتينية (التى نشأت عنها الايطالية الحديثة) واليونانية والعربية التى جاءت مع الفتح الاسلامى وكان ازدهار الحضارة فى تلك الجزيرة مثار بكل اجلال وإكبار . وفى هذا الجو نشأ تيار ملحوظ النشاط للترجمة من اللغات السالفة الذكر .

وكان فردريك الثانى يحمى العلم وأهله ، بل كان هو نفسه مشتغلا بعلم الحيوان ، وكتب فيه كتابا من ستة أجزاء ، ويلاحظ مؤرخو العلم أن تأثير المسلمين فيه ظاهر لا يخفى ، وكان على دراية واسعة بالعلم الاسلامى والمدارس التى تفرعت عن المدرسة النظامية التى أسسها الوزير نظام الملك المقتول عام ١٠٩٢ م ، وقد كان تأسيس الجامعات الأوربية بوحى منها وتأثير من علمائها[١] .

---

(١) تدين النظامية بمكانتها وشهرتها المدرسة نيسابور التى سبقتها فى بغداد ١٠١٥ م .

وقد أسس فردريك الثانى فى مدينة نابلى أول جامعة للدولة هى جامعة بالنسية (١٢١٢ــ ١٢١٤م) وعنى بها وسن لائحة خاصة بالعمل الطبى تفرض على كل من يزاول مهنة الطب فى مملكته أن يحصل على أجازة بذلك من هذه المدرسة . وكانت هذه أول لائحة فى أوربا المسيحية .

أما عن حركة الترجمة التى نقل بها المترجمون فى صقلية التراث العربى إلى لغتها العلمية فقد كان رائدها قسطنطين الأفريقى + ١٠٨٧ الذى حمل معه من المغرب مخطوطات فى الطب وعكف على ترجمتها فى دير إلى اللاتينية ، وعن جهوده فى ترجمة مخطوطاته نشأت مدرسة سالرنو التى ركزت على دراسة الطب ، وكان قسطنطين أول وسيط لنقل العلم الاسلامى إلى أوربا .

ولكن قسطنطين كا لا يجيد اللاتينية ، فكانت كتبه تفسيرات ــ قريبة إلى النص الأصلى للكتب العربية التى كشف عنها اساتذة مدرسة الطب الابقراطى ، وليست ترجمة دقيقة ، ثم أنه استعان بتلميذه أوتو Otto فى تصحيح ترجماته ، إلى جانب أنه فى كثير من كتبه المترجمة كان لا يشير إلى أنه مجرد ترجمة ، وعرف المؤرخون ذلك حين كشفوا عن أصولها العربية .

وترجم قسطنطين جزا كبيرا من الكتاب الملكى لعلى بن عباس ، وكتاب زاد المسافرين لابن الجزار وطب العيون لحنين بن اسحاق كما ترجم كثير من كتب العرب فى البول والحميات والأدوية المفردة وغيرها ، وقد أورد مؤرخو الطب العربى قائمة للكتب التى صنفها بلغت أربعة وعشرين كتابا ..

وظل تأثير قسطنطين يتزايد ــ بفضل تلاميذه ــ ومدرسة سالزنوبوجه أخص لأن تأثيرها سرعان ما امتد إلى أنحاء أوربا كلها . وهكذا كانت صقلية تحت حكم العرب المسلمين وفى ظل حضارتهم المزدهرة مسرحا لنقل العلم العربى الاسلامى إلى أوربا المسيحية وبه دبت اليقظة فى صقلية ومنها إلى دول أوربية أخرى فأنارتها بعد ظلام وأيقظتها من سبات .

الفصل الثالث

أوربا تنقل التراث الاسلامى فى بلاد الأندلس

قام المسلمون بغزو أسبانيا (بلاد الأندلس) عام ٧١١ م واستمر حكمهم للبلاد حتى سقطت فى يد الأسبان آخر مملكة عربية (هى غرناطة) عام ١٤٩٢ وعلى يد العرب تقدمت الحياة الاجتماعية فى أسبانيا ، فزالت الفوارق التى كانت تفصل بين الطبقات ، وأمحت امتيازات الأشراف ورجال الدين ، وتحرر رقيق الأراضى وتساوى الأهلون فى دفع الضرائب ، ونعموا بتسامح دينى لا عهد لهم به ، فبقيت للمسيحيين كنائسهم وأديرتهم ، وتمتعوا بحرياتهم كاملة حتى دفعوا الجزية .

يقول «استانلى لين بول» S. Lane-Poll فى كتابه «قصة مقاومة المسلمين فى أسبانيا» لم تنعم الأندلس طوال تاريخها بحكم رحيم عادل ، كما نعت به فى أيام الفاتحين العرب . وقد علق على هذا الرأى «ول ديورنت» Will Durant فى الجزء الثانى من المجلد الرابع من «قصة الحضارة» فقال : «ذلك حكم يصدره مستشرق مسيحى عظيم وقد يتطلب تحمسه شيئا من التقليل من ثنائه ، لكن هذا الحكم بعد أن ننقص منه ما عساه أن يكون فيه من التحمس ، يظل مع ذلك قائما صحيحا ، ان ما يروى أحيانا عن قسوة العرب التى قال ما كيافيلى + ١٥٢٧ Mackiavelli أنها ضرورية لاستقرار الحكومات وثباتها برغم هذه القسوة أورد «المقرى» مقابل هذه الأمثلة النادرة مئات الشواهد الدالة على عدل حكام الأندلس الأمويين وجودهم ودماثة أخلاقهم .. وقد كانوا أقدر أهل زمانهم على تصريف الشئون العامة فى العالم العربى ، فكانت قائمة على العقل والرحمة ، تشرف على تنفيذها هيئة قضائية حسنة النظام ، وكان أهل البلاد المغلوبون على أمرهم يحكمون فى معظم الأحوال حسب قوانينهم وعلى أيدى موظفين منهم ، وكان فى المدن شرطة تسهر على الأمن فيها ، وقد فرضت على الأسواق والمكاييل والموازين رقابة محكمة .. وكان حكم العرب نعمة وبركة قصيرة الأجل على الزراع من

أهل البلاد .. وقد ترك العرب لهم أعمال الزراعة فى معظم الأحوال ، وكانوا يستعينون بأحدث ما ألف من الكتب فى علومها ، وبفضل توجيههم بلغت هذه العلوم فى أسبانيا من التقدم أكثر مما بلغته فى أوربا المسيحية .. ونقلت بلاد الأندلس الاسلامية من آسيا زراعة الأرز والحنطة وقصب السكر والرمان والقطن والسبانخ والموز والبرتقال والليمون والخوخ ونخيل البلح والتين وصناعة الحرير .. وتقدمت الصناعات المعدنية تقدما عظيما .. ويقول المقرى أن ابن خرناس القرطبى اخترع فى القرن التاسع الميلادى النظارات والساعات الدقاقة المعقدة التركيب ..

وكان اسطول تجارى يزيد على ألف سفينة يحمل غلات الأندلس ومصنوعاتها إلى أفريقيا واسّيا وكان المسيحيون من رجال الدين وغيرهم يعيشون بكامل حريتهم — وهم آمنون — من جميع أنحاء أوربا المسيحية من نتيجة هذا التسامح فقال : «ان اخوانى المسيحيين يعجبون بقصائد العرب وقصصهم ، وهم لا يدرسون مؤلفات فقهاء المسلمين وفلاسفتهم ليردوا عليها ويكذبوها ، بل ليتعلموا الأساليب العربية الصحيحة الأنيقة .. واحسرتاه .

إن الشبان المسيحيين الذين اشتهروا بمواهبهم العقلية لا يعرفون علما أو أدبا أو لغة غير علوم العرب وآدابهم ولغتهم ، فهم يقبلون فى نهم على دراسة كتب العرب ، ويملأون بها مكتباتهم ، وينفقون فى سبيل جمعها أموالا طائلة ، وهم يتغنون بمدح علوم العرب .. وكان للعلماء فى الأندلس منزلة رفيعة وشهرة واسعة ، يعظمهم الناس ويهابونهم ، ويستشيرونهم فى شئونهم .. وكان علماء الدين يعدون بالمئات ، الخطباء وفقهاء اللغة وأصحاب المعاجم والموسوعات ودواوين الشعر والمؤرخون وكتاب السير فلم يكن يحصى لهم عدد ، وفى مقدمة هؤلاء ابن حزم الظاهرى ت ١٠٦٤ .. إلى آخر ما يقوله ول ديورنت عن الحضارة فى بلاد الأندلس الاسلامية[١] .

واهتم العرب فى أسبانيا بإصلاح الأراضى وزراعتها وعملوا على تنشيط الصناعة

---

(١) أطلنا الاقتباس عن ول ديورنت لأننا لم نجد فى كل ما قرأنا وصفا لحضارة الاسلام فى الأندلس أشمل وأدق من وصفه .

والتجارة فسرعان ما أصبحت الأندلس من أرق بلاد الدنيا حضارة ورخاء[1] .

وانتهت الدولة الأموية فى ١٠٢٩ م وجاء ملوك الطوائف واستمرت على يدهم النهضة العلمية ثم جاء المرابطون فالموحدون وكان فقهاؤهم من المستنيرين الذين شجعوا العلم والأدب فى الأندلس وظهر ابن رشد وابن زهر كما أنشئت المدارس والمساجد والمستشفيات ، ثم أخذ الأسبانيون يستولون على حواضر الاسلام حتى سقطت غرناطة عام ١٤٩٢ وانتهى حكم العرب فى أسبانيا (بلاد الأندلس) .

ومن كبار الرياضيين والفلكيين فى ذلك العصر أبو إسحاق بن يحيى النقاش الشهير بالزرقانى ت ١٠٨٧ وقد عاش فى طليطلة التى كانت فى ذلك الوقت مركزا للحياة العقلية فى الأندلس ، وقد اخترع آلات فلكية كالاسطرلاب المعروف باسم الصفيحة وأخرج الازياج الطليطلية وهى تجمع الملاحظات الفلكية التى أجراها مع آخرين عاشوا فى طليطلة وترجمت كتبه إلى اللاتينية والعبرية . وفى علم الجغرافيا كان من أئمته فى الأندلس أبو عبيد بن عبد الله البكرى ت ١٠٩٤ وأشهر كتبه المسالك والممالك ، وكتاب فى الأشجار والنباتات بالأندلس .

ومن كبار العلماء الأندلسيين فى ذلك العصر صاعد الأندلسى ت ١٠٧٠ فقد اشتغل بالفلك وأرصاده وأشهر كتبه طبقات الأمم الذى انتفع به ابن القفطى وابن أبى أصبيعة وابن العبرى .

أما العصر الذهبى للعلم فى الأندلس فقد كان القرن الثانى عشر ، ومن مشاهيره فى الفلسفة ابن باجة الذى مات مسموما ١١٣٩ وقد تأثر به من المسلمين ابن رشد ومن المسيحيين (البير الكبير) وقد اشتغل بالفلك والطب والهندسة والموسيقى .

وابن الطفيل ١١٨٦ وقد اشتغل بالطب والفلسفة وأشهر كتبه قصته الفلسفية حى بن يقظان (أسرار الحكة الأشراقية) وقد شملت ترجماته لغات شتى ، وأعظم الفلاسفة

---

(١) ومن الطريف أن غرب أوربا كله كان على وشك أن يقع تحت حكمهم لولا أن الفرنجة قد هزموا عبد الرحمن فى موقعة تور عام ٧٣٢ م .

ابن رشد ١١٩٨ الشارح الأعظم (لكتب أرسطو) وقد ترجمت كل كتبه تقريبا إلى اللاتينية والعبرية وكان تأثيرها عظيما جدا . شهرته عند المسلمين بكتابه « تهافت التهافت » الذى كان نقدا لكتاب الغزالى « تهافت الفلاسفة » الذى حارب فيه الفلسفة وأهلها بضراوة بالغة ، وكان كتاب ابن رشد مع مكانته لطريقته المنطقية فى جملتها واستدلالاته الواضحة كان سبب نكبته لاضطراد المتزمتين له واحراق كتبه ما عدا العلمى منها . وقد أثر ابن رشد فى العالم المسيحى بضعة قرون من الزمان ، وكان أجل أعماله محاولة التوفيق بين الشريعة والحكمة — شأنه فى هذا شأن غيره من فلاسفة العصور الوسطى — فى الشرق الاسلامى أو الغرب المسيحى .

وعرف الأوربيون كتب أرسطو مع شروح ابن رشد عن طريق العرب وكان لها عشاقا وأشياعها كما كان لها هداموها وأعداؤها ، وفى مقدمتهم البير الكبير وتوما الاكوينى . وبعيدا عن هؤلاء جميعا كان ابن رشد الملهم الرمزى لمذهب التفكير الحر الذى كان لمدة قرون متعددة فضيحة عند البعض وأداة التقدم عند البعض الآخر .

وفى مطالع القرن الثانى عشر تولى مطرانيه طليطلة المونسنيردون ريموند و ١١٢٦ — ١١٥١ م فاستدعى إلى مدينته طائفة من العلماء وأنشأ ديوانا لترجمة التراث العربى الاسلامى ، بل قرر أن تدرس الترجمات فى مناهج المدارس المسيحية ، وفى عهد الفونس الحليم (١٢٥٢ — ١٢٨٤ م) كانت طليلطلة مركز النور والعلم ، واستمرت حركة الترجمة أكثر من قرن — كحركة مدرسة تقف وراء سلطة الكنيسة وكانت فى ذلك العصر ذات حول وطول ، وانتقل فى هذه الحركة إلى أوربا تراث العرب المسلمين وكان يتضمن التراث اليونانى — وذلك فى وقت جهلت فيه لغة اليونان وانتقلت إلى أوربا فى هذه الحركة مؤلفات الفارابى وابن سينا وابن رشد والغزالى والخوارزمى صاحب الجداول الرياضية (الخوارزمية) التى ترجمناها خطأ باللوغارتمات ..

وبهذا كانت الكنيسة تشعل نار الحرب الصليبية وتدعو المسيحيين إلى خوض غمارها لتحطيم الاسلام وإبادة المسلمين فى نفس الوقت الذى كانت فيه الكنيسة تقوم بترجمة التراث العربى الاسلامى ليقف عليه المسيحيون الأوربيون .. وكان أشهر المترجمين من العربية جيرار الكريمونى ، ويذكر له جورج سارطون قائمة من سبعة وثمانين كتابا

ترجمها عن العربية فى الفلسفة والمنطق والرياضة والفلك وفى الطبيعيات وعلم الحيل (الميكانيكا) مع شرح الكندى وعن ثابت بن قرة وابن ماسوية وأبى بكر الرازى وأبى القاسم الزهراوى وابن سينا وغيرهم — مما يرجح أنه كان رئيسا معترفا به لمدرسة المترجمين فى طليطلة تحت رعايته .

وإلى جانب هؤلاء الذين ترجموا من العربية إلى اللاتينية يذكر المؤرخون قائمة بأسماء من ترجموا من العربية إلى العبرية . ولكن من أعظم المترجمين للتراث العربى الاسلامى كان روبرت شستر Robert of Chester الذى تسجل ترجمته لعلم الجبر عند الخوارزمى تاريخا للعلم عند المسيحيين ، كما ترجم إلى جانب ذلك كتبا فى الفلك ، بل شارك فى ترجمة القرآن الكريم . وكان أعظم من هؤلاء ترجمة للتراث العربى الاسلامى أفلاطون دى تيفولى Platon de Tivoli الذى ترجم الكتاب الفلكى للبتانى وكتب بطليموس فى الفلك نصه العربى . وجيرار الكريمونى وقد أسلفنا الحديث عنه .

وفى النصف الثانى من القرن الثانى عشر كان الفونس الحكيم وهو نفسه عالم مستنير من حماة العلم وأهله ، وجه وأسهم فى المجموعة الفلكية الضخمة (١٢٧٧) وترجم كثيرا من كتب الفلك والنجوم والآلات الفلكية من العربية إلى اللغة العشتالية .

ومن مترجمى ذلك العصر كان ارمينجو **Armengand** فترجم عن العربية كتابا متحولا إلى جالينوس والأرجوزة لابن سينا مع شرحها لابن رشد .

وإلى جانب طليطلة كانت قطلونية التى انتعشت فيها حركة الترجمة للتراث العربى الاسلامى وان أوقف هذه النهضة اضطهاد طائفة الأليينجوا ما نقل الحركة إلى برشلونه — وإلى جانب هؤلاء الذين يترجمون التراث الاسلامى إلى اللاتينية عرف مترجمون آخرون ينقلونه إلى العبرية .

وهذا كله يشهد — فيما يقول المؤرخون من الغربيين — بأن أصول العلم العربى الاسلامى قد غزت أوساط العالم المسيحى ولقحت العلم الحديث الذى بدأ ينشأ وينمو تدريجيا .

وكان القرن الثانى عشر فى الأندلس عصرها الذهبى ، فكان علماء أوربا يحجون إليها

ليتلقوا العلم على يد علمائها ويترجمون تراثها من العربية إلى اللاتينية ـــ ومنها كتب ابن رشد ١١٩٨ م وكان له اتباع فى أوربا المسيحية .

واضطربت الحياة السياسية بمنازعات الأمراء المحليين وأدى هذا إلى الحياة العقلية إلى جانب أن التلقيح والتأثير بين الحضارتين الاسلامية واللاتينية قد استغرق وقتا وكانت النتيجة الطبيعية هى أن ازدهار العلم الاسلامى فى الأندلس قد تأخر بعض الوقت عما كان عليه العلم العربى فى الشرق .

ولكن قرطبة قد أصبحت فى ظل عبد الرحمن الثانى ت ٧٥٢ م مركزا رائعا للجمال المادى والنشاط الفكرى ، ونما ذلك فى عهد عبد الرحمن الثالث ت ٩٦١ م وكان شديد العناية بالعلوم والآداب . وتزايدت هذه النهضة فى عهد ابن الحكم الثانى ت ٩٧٦ الذى كان إلى جانب علمه يرسل مندوبين إلى جميع بقاع العالم الاسلامى لابتياع الكتب أو استنساخها ووفق بذلك إلى إنشاء مكتبة تضم أربعمائة ألف كتاب كانت فهارس كتبها تملأ أربعة وأربعين جزءا .

وهكذا كانت قرطبة فى القرن العاشر أعظم مدن أوربا ازدهارا وكان الأسبان يبنون العمارات ويصنعون التحف متأثرين فى ذلك بأساليب فنية أدخلها العرب إلى أسبانيا ، فوق أنهم نعموا بعيش رغد وتسامح دينى. ولكن ملوك المرابطين والموحدين يضطهدون المستعمرين من بنى الأندلس فهاجر هؤلاء إلى الشمال ، ومن ثم اتسع محيط الحضارة الاسلامية ، وانتقل إلى الشمال الكثير من عادات المسلمين آرائهم وصناعاتهم .. ولما استولى النورمانديون على أسبانيا عمل فى خدمتهم العرب ، وتنقلت المدنية الأوربية وانتشرت أساليبها الفنية وكان سقوط طليطلة ١٠٨٥ م وقرطبة ١٢٣٦ وأشبيليه ١٢٤٨ أكبر العوامل التى أدت إلى امتزاج الصناع المسلمين بغيرهم ثم كان سقوط غرناطة ١٤٩٢ نهاية الحكم العربى فى بلاد الأندلس .

وبعد زوال الحكم العربى فى الأندلس نهض بخدمة المسيحيين مسلمون اشتغلوا بزخرفة الكنائس ونبغوا فى صناعة الخزف والمنسوجات والنقش على الأخشاب . ومن آثارهم فى قصر أشبيلية (عام ١٣٦٠) مقر الأسرة الملكية الأسبانية ، وتحول منذ

سنوات إلى متحف يثير اعجاب زائريه بعمارته العربية ، وتحفه الاسلامية النادرة كما يروى المؤرخون .

وسقطت قرطبة عام ١٠٣١ ولكن العلوم والآداب واصلت ازدهارها فاستكثر ملوك (الطوائف من حواضر الحضارة الفنية الخصبة ، وإن لم ينظر المتزمتون فى الأندلس بعين الرضا إلى حضارة يبغضونها .. وفى نهاية دولتهم (١١٤٣ م) بعثوا نشاطا حضاريا جديدا . ولكن حكم الأمير عبد المؤمن (فى عام ١١٦٣ م) كان نهاية العلم العربى فى أسبانيا ، وإن وجد علماء بارزون حتى آخر أيام مملكة غرناطة (١٤٩٢ م) .

على أن الازدهار العلمى الأول فى بلاد الأندلس قد تمثل فى ابن مسرة المعتزلى القرطبى ٩٣١ م وأبو القاسم بن أحمد المجريطى ت ٨٠٠٧ وبفضله بدأ التصوف الاسلامى يتخذ صورة جماعية فى الأندلس ، وله مؤلف فى الاسطرلاب (الذى ترجمه الى اللاتينية أديلارد أوث باث Ade Bath مع تنقيحات المجريطى ، ويظن أنه المجريطى قد شارك فى التعريف برسائل اخوان الصفا فى الأندلس[1] .

وفى القرن ١١ كان الفيلسوف ابن جيرول ت ١٠٥٨ وابن حزم الظاهرى وهو كثير الانتاج إلى حد أن قيل أنه خلف ٤٠٠ مجلد تشمل نحو ٢٤٠٠٠ صفحة (صاعد الأندلس) وأهم كتبه الفصل فى الملل والنحل وقد ترجم إلى عدة لغات .

وفى مطلع القرن الحادى عشر كان الجغرافى محمد ابن أبى بكر الزهرى وأكبر عالم جغرافى فى العالم الاسلامى كله هو الشريف الادريسى ت ١٠٦٦ م وهو صاحب ملكة ممتازة فى رسم الخرائط . وتقسم مجموعة أعماله الجغرافية مجموعتين أولهما رسم لسطح الأرض منقوش على لوح من الفضة وكتاب كبير لشرح موسع تكمله عنوان نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، وثانية المجموعتين تجمع خرائط أصغر اتساعا ومقياسا من كتاب آخر لم ينشر بعد .

---

(١) تبلغ ٥٢ رسالة ، ١٤ منها فى الرياضيات والمنطق ، ١٧ فى العلوم الفيزيقية وعلم النفس ١٠ فى الميتافيزيقا ، ١١ فى موضوعات أخرى عن التصوف وغيره ، وأثرت هذه الرسائل فى المشرق تأثيرا بالغا ، وأسهمت بنصيب كبير فى الحركة العلمية فى الأندلس ، وقد كتبت الرسائل بأسلوب واضح يفهمه حتى انصاف المثقفين ومن هنا كان تأثيرها على نطاق واسع .

ومن الرياضيين عبد الله بن عمر الفاق ت ١٠٣٥ ، ومن مشاهير الأطباء أبو القاسم الزهراوى ت ١٠١٣ أعظم جراحى العرب ، بكتابه « التصريف لمن عجز عن التأليف » والجراحة فيه تضم صورا لعشرات من أدوات الجراحة وآلاتها ، وفى كتابه تحدث عن عمليات وغيرها . أمراض العيون والأسنان وأمراض النساء وأنواع الرضوض وتجبير ضروب الخلع والكسر .. وغير هؤلاء كثيرون .

وهذه لمحة إلى ازدهار التراث العربى الاسلامى منذ القرن الثامن حتى الثالث عشر .. وانتقاله إلى أوربا المسيحية على يد مترجمين مسيحيين ومع الاشارة إلى تأثيره البالغ فى بعث الحركة فى أوربا بعد جمود وتلقيح معارضها لتزدهر وتنهض بعد ركود .

الفصل الرابع

أوربا تنقل التراث الاسلامى أثناء الحروب الصليبية

كانت الحروب الصليبية صراعاً بين الكنيسة والشرق الإسلامى، وهدفه تخليص الأراضى المقدسة من يد المسلمين ، وقد استمرت قرنين من الزمان وبدأت عام ١٠٩٦ وانتهت عام ١٢٩١[1] ومن المؤرخين من يرد إليها تطورات العصور الوسطى فى شتى النواحى الدينية والسياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، ومن هؤلاء العلماء هانزبرونس Hansbrutz فى كتاب له صدر عام ١٨٨٣ وفيه يجاهر بأن هذه الحروب هى العامل «الوحيد» فى تقدم أوربا خلال قرنين بين عامى ١١٠٠ و ١٣٠٠م وتجاهل بذلك حتى أثر الترجمة فى صقلية والأندلس على نحو ماعرفنا من قبل .

ولكن من المؤرخين من يرى أن المحاربين الأوربيين لم يكونوا فى وضع يساعدهم على الدرس والتحصيل ، ومع هذا فإن دور هذه الحروب فى نقل الصناعات والفنون الاسلامية إلى أوربا كان عظيما فمن ذلك أن البنادقة قد صكوا نقوداً ذهبية للتعامل التجارى مع المسلمين ، وكانت عليها كتابات عربية وآيات قرآنية واستمرت حتى احتج على ذلك البابا انوسنت الرابع عام ١٢٤٩ . ثم ان الأتراك العثمانيين قد استولوا على القسطنطين وامتد سلطانهم إلى أم البلقان وسكان جزائر بحر الأرجنيل ، واتصل ملوك أوربا ببلاط الخليفة فأدى ذلك إلى طبع فنون هذه الأقاليم بطابع شرقى ظل واضحا إلى اليوم . وانتشرت من العالم التركى إلى سائر أنحاء أوربا كثير من الأساليب الفنية الاسلامية فيما يقول الدكتور زكى حسن .

---

(١) ففى سنة ١٠٩٥ م جمع البابا ايربان الثانى Urban II بجلس كليرمونت الذى تمثلت فيه جميع الطوائف فى أوربا الغربية وحضره من الأساقفة ٢٢٥ اسقفا فخطب فيهم البابا خطابا حماسيا طالبهم فيه بانقاذ بيت المقدس من أيدى المسلمين ووعد المحاربين بحماية الكنيسة لأملاكهم وعائلاتهم مع غفران ذنوبهم والموتى منهم بجنات النعيم ، فأجاب الجميع بصوت واحد : وهكذا أراد الله Dreu le veut ، وكانت أربع حملات أساسية تبعتها ثلاث حملات ثانوية .

ومن خلال الحروب الصليبية عرفت أوربا ألفاظا عربية كثيرة ، منها فى التجار بازار Bazar ودينار dinar وتعريفه tariff وفى الشئون البحرية : أدميرال (أمير البحر) admiral ودار الصناعة arsenal وفى الشئون المنزلية مخدة matterss ومقعد Sofa وحجاب amulet واكسير eliser وطلسم talsman وفى غير هذا قافلة caravan .

إلى جانب أن استخدام الدرع للفارس وفرسه مأخوذ عن الشرق أبان الحروب الصليبية ، ومثله الأدثرة القطنية والوسائد تحت الدروع . واستعمال الكوفية العربية لوقاية الرأس والرقبة من ضربة الشمس وكذلك استخدام الحمام الزاجل فى حمل الرسائل الحربية ، واضاءة الأنوار فى احتفالات النصر . واتحاد الغرب مع الشرق أبان تلك الحروب أدت فى الغرب إلى تقدم الطرق التجارية ونمو وسائل جديدة للشئون المالية ، ونشأة نظام الأوراق المالية الخاصة بتدوين ما للعميل من حساب فى المصارف ، بل تأسست بيوت مالية ذات فروع فى شرق بحر الروم ، بل سك البنادقة عملة ذهبية للتداول فى الأرض المقدسة وقد نقشت عليها بالعربية وآيات قرآنية صغيرة مع تاريخ هجرى ، استمرت حتى عام ١٢٤٩ كما أشرنا من قبل .

كما أثر العرب فى الفنون والصناعات المنزلية فى الغرب ، فمن ذلك أن الكبراء فى مملكة بيت المقدس قد أنشأوا منازل لهم على الطراز العربى ، ساحة ورخام ونافورة وجزيرة مياه جارية ومثلها كانت الزخرفة والأثاث الداخلى .

وسنرى كيف انتقل التراث العربى من علوم وفلسفة وفنون من أسبانيا وصقلية إلى الغرب . وقد أسس ريموندلول Raymundus Lullus عام ١٢٧٦ كلية للرهبان فى ميرامار لدراسة اللغة العربية وقرر مجلس فينا عام ١٣١١ إنشاء كراسى للغات الشرقية فى جامعات باريس ولوفان وسلامنكا . وصفوة القول أن الشرق الاسلامى قد أثر فى الغرب المسيحى أبان الحروب الصليبية من أربع نواحىّ هى :

(ا) فى الكنيسة البابوية إذ قامت فى بيت المقدس عام ١١٠٠ مملكة دنيوية بدلا من التيوقراطية الدينية التى كان يحلم بها البابا .

(ب) كما أثرت الحروب فى الحياة الداخلية والاقتصادية فى جميع الممالك ، إذ نشأ

نوع جديد من الضرائب على ممتلكات الأشخاص ، كما ساعدت تلك الحروب على انحلال والاقلال من أراضى الاشراف .

(جـ) كما أثرت الحروب فى العلاقات الخارجية للدول ونظام أوربا ، بتأثيرها فى الكنيسة من ناحية وبإيجاد رابطة جديدة للوحدة الأوربية .

(د) كما أثرت تلك الحروب فى العلاقات القائمة بين أوربا وآسيا ، فنهضت حركة الارتياد والرغبة فى الاستزادة من المعلومات الجغرافية ، وكان علم الجغرافيا خلال القرن الثانى عشر أخصب العلوم لاعتماد الحجاج عليه فى وصف الطرق والأماكن المقدسة ومعرفة العسكريين لأصلح ميادين الخطط العسكرية ، واتجهت حركة الاستكشاف فى القرن الثالث عشر إلى الاهتمام بالقارة الآسيوية كلها[1] .

واختلط الأوربيون بمدينة أرقى من مدينتهم فتعلموا منها ما لطف من خشونهم وهذب من أخلاقهم ، وخفت عند المسيحيين حدة التعصب الدينى الذى ينشأ عادة عن الجهل ، مع تسرب الحضارة الاسلامية علومها وآدابها إلى أوربا فساعد هذا على قيام النهضة الأوربية الحديثة من تخلف وجهالة ، ونشطت التجارة بين الشرق والغرب وكانت مركز هذه الحركة مصر وسوريا .

ووجود العرب فى شمالى أفريقيا وصقلية والأندلس أدى إلى نشاط التجارة مع أوربا ، وأخذ التجار يعرضون نفائس الشرق فى الأسواق ، فحركت هذه رغبة الأهلين فى الحصول عليها ، فنشطت تجارة الشرق من منسوجات حريرية وسجاجيد وعطور نادرة .. ولما وصلت هذه المصنوعات إلى أيدى الأوربيين حاولوا تقليدها ، فقامت فى أوربا صناعة الحرير والزجاج والمخمل ، واستعملت الأصباغ الشرقية .

وإلى جانب هذا كله فإن الحروب الصليبية كانت بداية حركات كشف أراضى جديدة ومعرفة شعوب مجهولة ، لأن هذه الحروب قد وضعت أوربا (لأول مرة) فى اتصال وثيق بالعالم الشرقى الجديد فنشأت الرغبة فى معرفة الشرق الأقصى (الصين والهند) .

---

(١) فصل فى بيان هذا بوجه خاص ايرنست باركر فى فصل كتبه عن الحروب الصليبية فى تراث الاسلام وترجمة د . على أحمد عيسى .

لكن نتائج الحروب الصليبية كانت تافهة من ناحية ما حققه لأوربا من غزو حربى ، ففى عام ١١٨٧ تخلى الصليبيون عن الأراضى المقدسة ، وأصبحت مملكة بيت المقدس مقسمة. وأصبح واضحاً أن العالم المسيحى «لا يستطيع عسكرياً أن يقف على قدميه فى مواجهة الاسلام . فقد سالت الدماء غزيرة وأنفقت الأموال الطائلة فى غير طائل ، وذلك إلى جانب أن الحروب الصليبية قد أوجدت تعصبا مقيتا وسفكا للدماء رهيبا مما زاد تلك الدماء والمسئولية بين الشرق والغرب فقاما» ..

وتوالت بعثات الكشف والريادة بعد ذلك . ويطول بنا الحديث لو استقصينا كل ما أفادته أوربا من الشرق الاسلامى أبان الحروب الصليبية .

وهكذا يشهد استقراء التاريخ بعكس ما ظن رويارد كينج وأمثاله من المستعمرين ، وذلك أن الشرق والغرب قد التقيا طوال التاريخ لقاءات حضارية غير مسلحة ، وإذا كان المسلمون قد أفادوا من ذلك فى لقاء ، فإن الأوربيين قد أفادوا مقابل ذلك فى ثلاثة لقاءات أرب بهم إلى الحركة والحياة بعد جمود ، واحياء النهوض بعد جهالة وتخلف .

ولا يزال الشرق والغرب يلتقيان ، ويفيد أحدهما من الآخر علما وفلسفة وفنا وأدبا .. أكثر الله من أمثال هذه اللقاءات الحضارية .

ومن كل ما أسلفنا نرى أن العلم العربى الاسلامى قد أشرق فى صقلية وأسبانيا — وكانا تحت حكم العرب — ثم فى الحروب الصليبية ، فأضاء الظلام من جوانب أوربا ، ودفع أهلها إلى الحركة بعد جمود ، والنهوض بعد سبات ، وواصل النهوض مسيرته حتى كان من أمره ما نراه اليوم مما يثير الدهشة التى قد تصل إلى ذهول ..

مصادر فى الحضارة الاسلامية(١)

الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق : التمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ط ٢ (١٩٥٩)

الشيخ الأكبر محمود شلتوت : الاسلام عقيدة وشريعة (١٩٥٩)

د . محمد حسين هيكل : حياة محمد ط ٢ (١٩٣٦)

أحمد أمين : فجر الاسلام : ط ٢ (١٩٣٣)

ضحى الاسلام بمجلداته الثلاثة (١) ط ٢ (١٩٣٤) (٢) ط ١ (١٩٣٥) (٣) ط ١ (١٩٣٦)

ظهر الاسلام : بمجلداته الأربعة (١) ١٩٥٨ (٢) (١٩٥٧) (٣) ط٢ (١٩٥٩) (٤)

جرى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى بمجلداته الخمسة (١) و (٢) بدون تاريخ (٣) ط ٢ (١٩٥٨) ط ١ (١٩٥٥)

عبد الرحمن بدوى :دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى (بيروت : ١٩٦٥) التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية ـ دراسات لكبار المستشرقين ترجمتها وألف بينها عبد الرحمن بدوى (١٩٤٠)

التهانوى : كشاف اصطلاحات العلوم والفنون

المعجم الفلسفى : أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٧٩ .

معجم العلوم الاجتماعية : أشرف على اخراجه مجمع اللغة العربية بالقاهرة مع مركز تبادل القيم الثقافية بالقاهرة ومع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو) عام ١٩٧٥ .

(١) يطيب لى أن أخص بالشكر الدكتورة زينب الخضيرى والدكتورة منى أحمد أبو زيد والسيدة/ رجاء أحمد على تفضلهن بتزويدى ببعض المصادر الخاصة بهذا الكتاب . وقد تفضلت الدكتورة منى أبو زيد بمراجعة تجارب الكتاب كلها فلها أجزل الشكر على ما احتملت من عناء .

أدم ميتز : الحضارة الاسلامية جزءان ترجمة د . محمد عبد الهادى أبى ريده (١٩٥٧)

توفيق الطويل : العرب والعلم فى عصر الاسلام الذهبى (١٩٦٥) فى تراثنا العربى الاسلامى سلسلة أعلام المعرفة بالكويت (١٩٨٥) .

Miele, A. La Science arabe et son röle dans l'evelution scientifique mondiale.

ترجمة د . عبد الحليم النجار ، د . محمد يوسف موسى تحت عنوان : العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى (١٩٦٢)

مصادر فى الحضارة الأوربية

فؤاد زكريا : الإنسان والحضارة فى العصر الصناعى (١٩٥٧) .

حسن سعفان : الموجز فى تاريخ الحضارة (١٩٥٩) .

توفيق الطويل : أسس الفلسفة ط (١٩٧٩) .

فلسفة الأخلاق ط (١٩٧٩) .

European civilization, its origin & development (edited by E. Eyre, 1937 Bogar, E: Economic history of Eurpe (1942).

Bossenbrook, W: Development of comtemporary civilization (1940).

Ceilingwood, R. G: The idea of history (1946).

Herskovits, M: Economic anthropology (1952).

Bury, J. B: The idea of progress (1913).

Taggart, F. J: The idea of progress (1930).

Pollard, Sidney: The idea of progress (1931).

Wolf, A: Aphilasophic & Scientifie retrospect (1935)

Wurant, W: Story of civlization.

ترجمها محمد بدران (بالاشتراك) فى عدة أجزاء . وينظر جـ ٢ المجلد ٤ من عصر الإيمان .

Kroeber, A. L: The nature of cultrue (1952).

Lucas, H.S:A stort history of civilization (1953).

حضارة عصر النهضة لأربعة علماء ــ ترجمة وتعليق د . عبد الرحمن زكى (١٩٦١) .

Toynbee, A:A study of history (1948).

Spengler, G: The aecline of the west (Eng. trans).

Schweitzer, A: The philosophy of civilization (Eng. trans).

وترجمة د . عبد الرحمن بدوى تحت عنوان : فلسفة الحضارة (١٩٦٣) .

المحتـــويــات

البــاب الأول

مقدمات عملية فى موضوع الحضارة

الباب الثانى

مسيرة الحضارة الأوربية الحديثة

الباب الثالث

مسيرة الحضارة الإسلامية

الباب الرابع

مسيرة الحضارة الإسلامية فى العصر العباسى

الباب الخامس

اللقاءات الحضارية بين الأوربين فى الغرب والمسلمين فى الشرق

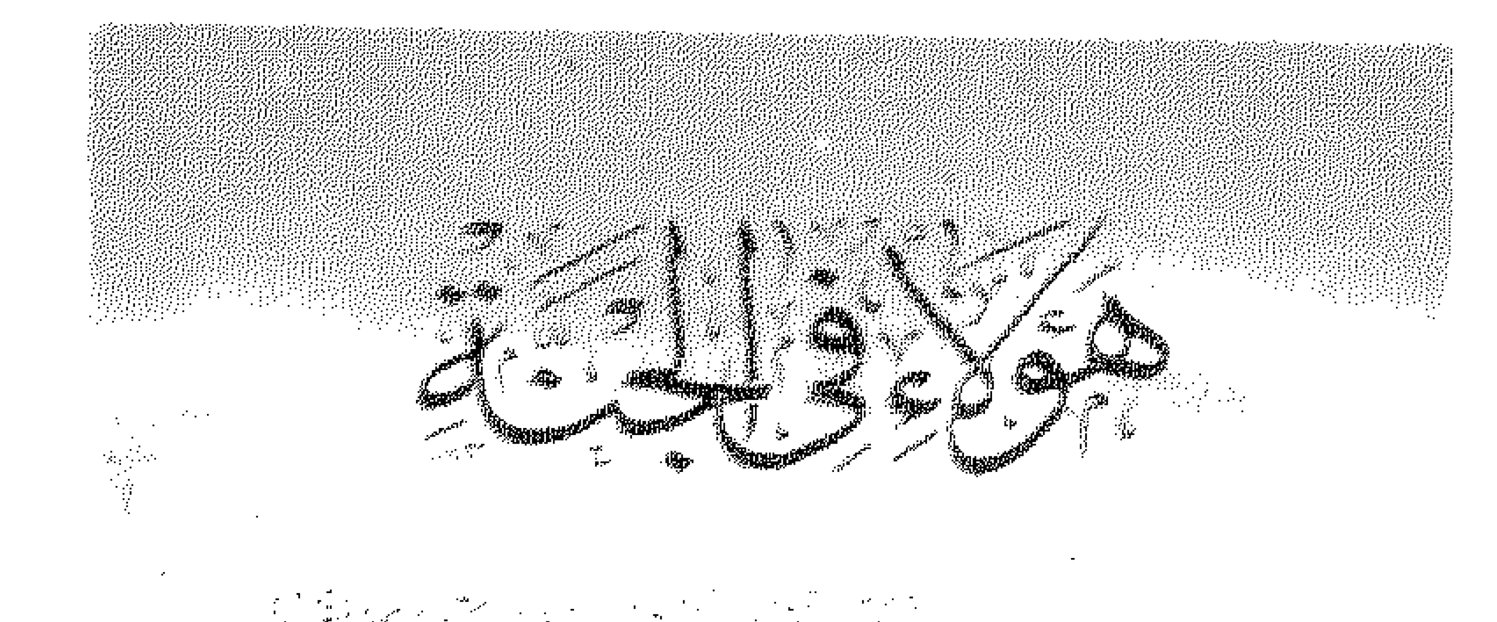
٩٠ /١٥٩٢

٦ - ٧٩ - ١٧٠٠ - ٩٧٧

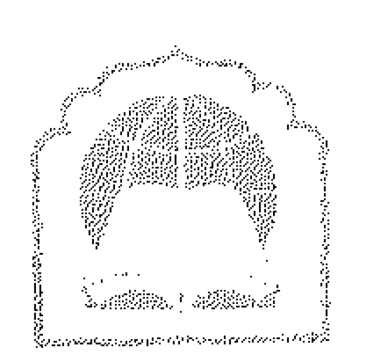
طبع بمطبعة دار نوبار للطباعة

٤٧

صدر حديثاً







مكتبة التراث الإسلامي
ت : ٣٩١١٣٩٧ ــ ٣٩٢٥٩٧٧ ــ فاكس : ٣٩١٣٤٠٩